سيرة عيسى المسيح

المحتويات

باسمك أيها الإله الحبيب
خالق السموات والأرض

يا من رحمته جديدة علينا كل صباح

عيسى، سبيلُك رحمةٌ، ومحبةٌ
في العالمينَ، وعِصمةٌ، وسلامُ
ما كنتَ سفّاكَ الدماءِ، ولا امرأ
هانَ الضِّعافُ عليهِ والأيتام
يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورَى ،
كثُرَتْ عليه بأُسمكَ الآلام
(أحمد شوقي)

تمهيد

كان غروب الشمس ما زال يضيء جبل طابور نحو الجنوب، والظلام قد بدأ يخيِّم على طريق بحيرة طبريا. وكان قد صعد هذه الطريق بعد الظهر مع ستة من رفاقه، في آخر مرحلة من الرحلة التي استمرت يومين، والتي بدأت من المخاضة في غور الأردن حيث إلتقاهم. وكانت رحلتهم رغم حرارة الطقس مريحة ومرحة، أكثر من غيرها من الرحلات التي يتذكرها أي من مرافقيه. وكان من المناسب أن تنتهي هذه الرحلة بحضور حفل زواج. وقف إلى جانب أمه مع جمهور الضيوف، بينما تحركت المشاعل نحو التل.

كانت قرية قانا أمامهم، وكانت المشاعل تترجرج مع أصوات الدف والصنج وتصفيق القروِيِّين داخل القرية. وكان صوت الموسيقى يتعالى كلما اقترب العروسان. وامتلأت الشوارع بالألحان واصطفَّ الرجال الذين يحملون المشاعل الكبيرة إلى جانب مدخل بيت العروسَين، وكانت الفتيات في بداية الموكب تحمل كلٌّ منهن مصباحاً يرجرج وميضه في اليد اليمنى وغصناً من الآس في اليد اليسرى، ثم وقفن إلى جانب الطريق. وشاهد الضيوف أخيراً العروس وقد وضعت الغطاء على وجهها، وسار بها العريس الشاب بفخر حتى وصل إلى منزله.

تجمّع المحتفون في الساحة الصغيرة، بعد أن انتهى الحفل الرسمي، وقامت مرافِقات العروس برفع الغطاء عن وجهها.

صب الخدم الماء من الجرار الحجرية الكبيرة الموجودة على المدخل لغسل أقدام وأيدي الضيوف، لأن شعوب الشرق الأوسط لا يأكلون إلا إذا طبَّقوا قواعد النظافة التي تفرضها عليهم الطقوس. ثم جلس الضيوف إلى الطاولات المليئة بالطعام، وأُضيئت الساحة بالمشاعل الملتهبة، وكانت غرف البيت مفتوحة ما عدا غرفة العروس. اهتزت أصوات المرح في الحال، وكان العازفون يعزفون على آلاتهم، بينما أكل الجميع وتحدثوا وضحكوا وشربوا النبيذ الذي كان يقدِّمه لهم الخدم.

كان يوحنا ابن أخت مريم يراقب عيسى المسيح (المعروف بعيسى بن مريم سلامه علينا)، الذي لم يظهر أي تلميح يشير إلى عدم الرضي ، أو غير ذلك خلال مشاركته بالحفل. كان وجهه الذي لوَّحته الشمس نحيلاً من الصوم في البرية، والذي انتهى قبل أن يقابله يعقوب ويوحنا. ولا شك أن ابن خالتهم النبي يحيى (يوحنا المعمدان) الذي كان يلبس الثياب الخشنة ويأكل الطعام المكوّن من الجراد والعسل البرِّي ، يشجب كل ما كان يجري هنا.

كان عيسى المسيح مثل يوحنا في الثلاثين من عمره. له جسم حسن التكوين، ووجه وسيم بشوش بشكل يلفت النظر ،ولحية صغيرة عادية. وكان من أكثر الأشخاص الذين أثاروا اهتمام يوحنا، في حين أن وجوده لم يثر الاهتمام لدى العديد من الضيوف. واستطاع يوحنا من المكان الذي اتكأ فيه أن يرى «المسئول عن الاحتفال»، وهو جار العريس، الذي دعاه ليقوم بدور المضيف الرسمي. وقد شرب هذا الرجل الخمر وأكثر منها، ومازح العريس، ونظر بخبث إلى العروس، وكان في الظاهر لا يبدي اهتماماً بوجود عيسى المسيح.

انقطعت هذه الأفكار عندما شعر يوحنا أن ثمة شيئاً ليس على ما يرام. وبدا الخدم ينظرون بقلق وحَرَج إلى العريس وإلى المسئول عن الحفل. ونظروا إلى كومة من قِرب عصير العنب الفارغة في الزاوية. وأحسَّت مريم بمشكلتهم في الحال، فمالت إلى عيسى المسيح وقالت له بهدوء: «لقد فرغت قِرَبُ عصير العنب».

سمعها يوحنا رغم الضجيج الذي أحاط به، وشعر بالحرج الذي سيحس به العريس الشاب، عندما يعرف الناس أن العصير قد نفد. ولن تمر هذه الحادثة بسلام إذا بدأت حياته الزوجية بها.

تساءل يوحنا عما تفكر به مريم، ويمكن أن يقوم به ابنها. ولم يعطِ عيسى المسيح أي تلميح، وإنما أجاب فقط: «لم تأتِ ساعتي بعد». ومالت مريم التي لم ينثن عزمها إلى الجانب الآخر، وأشارت إلى رئيس الخدم قائلة: «مهما يأمركم به فافعلوه».

كان يوحنا معجباً بعيسى المسيح، ولكنه لم يتخيل ماذا يمكن أن يفعل في مثل هذه الساعة من الليل. وفي تلك الأثناء كان الضيوف غير مدركين للكارثة المقتربة. ثم رأى يوحنا عيسى يستدعي خادماً. ثم أشار إلى الجرار الحجرية الضخمة الستة، والتي أصبحت الآن فارغة من الماء، بعد أن اغتسل منها الجميع، وقال لهم: «إملأوا الجرار بالماء!» وكان له تأثيره الخاص عندما يعطي الأوامر، بحيث يجعل الشخص يستجيب له مهما كان الأمر غريباً. رأى يوحنا الخدم يسحبون الجرار

إلى أسفل التل عند البئر ويختفون في ظلام الليل، ويظهرون مرة ثانية وهم يحملونها بجهد ونشاط بعد أن كانت قد ملئت إلى حافتها.

وكان طلب عيسى المسيح التالي أكثر غرابة: «اغرفوا من الجرار وناولوا رئيس المتكأ». سمع الحواريون الستة هذه الكلمات، وتساءلوا عن مقصده: لا يشرب مضيف العرس الماء؟ غرف خادم ماهر ملء إبريق من أحد الجرار وحمله إلى الطاولة الرئيسة. ملأ كأساً لرئيس المتَّكأ. وشرب المضيف الذي كان بالكاد يتوقف عن ثرثرته، وتلمظ الشراب بشفتيه وأحبه، ثم شرب أكثر.
استدعى رئيس المتَّكأ العريس، وقال له ضاحكاً: «الجميع يقدم العصير الجيد أولاً! وعندما يشرب المدعوون كثيراً، فإنه يقدم العصير الأقل جودة. ولكنك احتفظت بالعصير الجيد حتى الآن».

فكر العريس بأن المضيف يضايقه بالسخرية منه مرة أخرى. حتى ارتشف من كأسه المعبَّأة مرة ثانية، وتذوق العصير الأفضل بكثير من العصير الذي أحضره للعرس. وتعجَّب من أين جاء ذلك العصير. ولم يقل شيئاً، لأن المضيف لم يهتمَّ. كان يستمتع بالعصير الذي كان يُسكب بسخاء على الطاولات بينما كان الخدم يغرفون المزيد من الموجود في جرار الماء. وعجز الخدم عن إخفاء دهشتهم. ويوحنا ورفاقه الخمسة الذين كانوا يسمعون ويراقبون، ومن ثم يتذوَّقون، راحوا ينظرون إلى عيسى المسيح نظرة خاصة.

الجزء الأول
البداية في الجليل

رفاق الطريق :
كان يوحنا يعرف طوال أيام حياته وجود عيسى المسيح، فقد عرف من أطراف الحديث بين والديه زبدي وسالومي بأن شيئاً من الغموض يحيط بمولد ابن خالته، وكان قد أشيع بأن يوسف لم يكن أباه، وكانت سالومي عندما تتحدث عن أختها، تصفها باللطف والطهارة.

وُلد عيسى المسيح في مدينة بيت لحم عندما جاء إليها يوسف مع مريم من الناصرة من أجل الإحصاء الروماني. وكانت جميع أماكن الإقامة عند وصولهما مليئة، ولهذا فقد مرَّت مريم بتجربة صعبة، ولكنها مألوفة بالنسبة إلى الفقراء، عندما ولدت ابنها البكر في مغارة، واستعملت المذود كمهد له. وهربت مريم مع يوسف والطفل إلى مصر بعد أيام معدودة من ولادته، لينجُوَا به من المذابح التي قام بها الملك هيرودس، ولم يرجعوا إلى الجليل إلا بعد وفاة هذا الملك.

نشأ عيسى في ربوع مدينة الناصرة وترعرع أولاد خالته في مدينة كفر ناحوم التي تقع عند البحيرة، ونادراً ما كان يلتقي الولدان في سنواتهما الأولى، خاصة وأن الظروف كانت مضطربة. فلقد جلبت الثورة التي تَزَعَّمها يهوذا الجليلي، القتال إلى كل مكان. وكانت مشاهد الرجال المصلوبين على مفترقات الطرق تثير الفزع والخوف. وعندما عاد الهدوء إلى البلاد استطاعت كلٌّ من العائلتين الذهاب معاً إلى القدس للمشاركة في احتفال عيد الفصح السنوي. وكان كلٌّ من الغلامَين في الثانية

عشرة من عمره. وأثناء رحلة العودة إلى البيت، ضاع عيسى المسيح من قافلة الحج، فأسرع يوسف ومريم وهما يشعران بقلق كبير في العودة عبر الطريق الجبلية الصعبة للبحث عنه، فوجداه في الهيكل يستمع إلى الكتبة ورجال الدين اليهود ويوجِّه لهم الأسئلة، وقد أصابتهم دهشة كبيرة من ذكائه.

تلقى الولدان تعليماً عادياً وتمكّنا من القراءة والكتابة بلغتهما الآرامية، والتحدث باللغة اليونانية العامية، ودرسا معاني القطع المشهورة في التوراة اليهودية واستظهرا العديد من عباراتها. وبمرور أيام شبابهما وبداية رجولتهما، ظهر من خلال الاتصالات التي كانت تجري من حين لآخر، أن عيسى المسيح الذي احترف النجارة، يملك فهماً مختلفاً للأيمان اليهودي القديم.

كان يوحنا يهودياً، ولهذا فقد حدَّدت هذه الديانة ومتطلباتها العديدة أسلوب حياته، ونغَّصت عليه مسراته. فقد كان عليه الذهاب إلى الكنيس كل يوم سبت للاستماع إلى الصلوات والجلوس أثناء قراءة التوراة والعظة التي كانت تتألف غالباً من مجموعة من التعليقات التقليدية. وكان عليه أن يحفظ حرفياً شريعة موسى. ولكنه كان عالي النفس، فثار على التقاليد، ولكنه لم يستطع أن يجد لها بديلاً آخر، خاصة وأن تلك التقاليد متجذرة في التاريخ. وكان يوحنا يفتخر بيهوديته ويحتقر غير اليهود من الذين يصادفهم، وكان هؤلاء كثيرين. وعندما كان يوحنا في أوائل العشرينات من عمره، قام هيرودس أمير الربع والجليل، وهي إمارة تابعة للرومان، ببناء عاصمة جديدة على شاطئ البحيرة على بعد بضعة أميال إلى جنوب كفر ناحوم وسماها «طبرية» على شرف الإمبراطور، وأسكن فيها اليونانيين أو غير اليهود. كما أعاد هذا الحاكم بناء قرية صيد هادئة، ووسَّعها وسماها «بيت صيدا يوليوس» على اسم القيصر، وذلك بالقرب من بيته وعبر نهر الأردن. وأصبحت اليونانية بدلاً من العبرية لغتها كما اتبعت العادات اليونانية، وكان لهذا تأثيره الإيجابي على يوحنا. وغادر الشقيقان اليهوديان يوحنا ويعقوب اللذان ولدا في «بيت صيدا» للسكن في كفر ناحوم التي تعد أكثر تجانساً. وأصبح سمعان وأندراوس اللذان يتميزان بجسم ضخم ورجولة مكتملة، شريكين ليعقوب ويوحنا في صيد الأسماك.

ولم يدرك أيٌّ من صيادي الأسماك الشباب الأربعة بأن حياتهم سوف ترتبط بحياة نجَّار من الناصرة. وكان زبدي رجلاً غنياً لأنه كان يزوِّد مدينة القدس البعيدة عن البحر بمختلف أنواع السمك، وكان ابنه يوحنا معروفاً في بيت الكاهن الأكبر وغيره من الأعيان. وأما عائلة عيسى المسيح في الناصرة، فقد كانت فقيرة، وكانت أمه مريم وحيدة. وهكذا فقد ابتعدت العائلتان عن بعضهما البعض: كانت إحداهما بالقرب من البحيرة والأخرى فوق الجبال.

وعندما بلغ يوحنا الثلاثين من عمره، في أوائل شتاء عام 27 أو 28 للميلاد، اجتاحت شواطئ بحيرة طبريا أو بحر الجليل إشاعة غير عادية تقول إن نبياً جديداً قد ظهر في برية اليهودية. وكان يوحنا مثل غيره من اليهود يحتفظ بالأمل القديم بمجيء المسيح لكي يخلِّص الأمة. ولكن هذا الأمل بقي ضعيفاً. فآخر نبي ظهر قد عاش قبل أربعة قرون تقريباً، ولم تُسمع كلمة الله إلا في القراءات الطقسية التي كانت تُقدَّم من خلال تعليقات الكتبة.

وبدأت الجماهير من القدس والمناطق المحيطة بها، والجليل والأردن تتجه نحو البرية حيث يصبُّ النهر في البحر الميت. ولم تشهد تلك الأيام مثل هذا التحرك الجماهيري من قبل. وشارك المزارعون وأصحاب الكروم في الذهاب، لأن تلك السنة اليهودية التي بدأت في أواخر آذار، كانت سنة سبتية (سنة تأتي كل سبع سنوات، تترك فيها الأرض دون فلاحة والكروم دون تشذيب). وكان

صيادو الأسماك يعملون في تلك السنة، ولكن عندما جاءت الأخبار بأن هذا النبي كان سابق المسيح أو حتى أنه المسيح نفسه، ترك يوحنا وأخوه وشريكاهما سمعان وأندراوس شباكهم، وساروا نحو الجنوب. وقد شغلتهم هذه الأحداث التي سوف تربط بين يوحنا وابن خالته إلى الأبد. ولم يسمع شيء عن عيسى المسيح: فقد بقي في الناصرة غير متأثر ظاهرياً بهذه الضجة.

وكان يوحنا في مخاضة عند نهر الأردن، وضمن جمهور ضخم يصغي إلى كلمات النبي يحيى القوية والمؤثرة. «توبوا» صرخ النبي «فقد اقترب ملكوت السماوات». وكان يرتدي ثوباً من وبر الإبل، رُبط بحزام جلدي، أعطاه مظهر الناسك. وأصرَّ بأنه كان السابق الذي أخبر عنه إشعياء: «صوت صارخ في البرية: أعِدُّوا طريق الرب». وأن شخصاً آخر أعظم منه سيأتي، ولكي ينجوا من محاكمته، عليهم التوبة والاعتراف بخطاياهم، وأن يعتمدوا في النهر كرمز إلى المغفرة.

وكان النبي يحيى بعد الانتهاء من كل عظة، يسير باتجاه حافة النهر، ويقف في الأماكن الضحلة، بينما تتدافع المئات من الناس إليه لكي تتعمَّد. ويحتمل أن يكون يعقوب ويوحنا قد شاهدا في الجليل الاحتفال بالتغطيس تحت الماء لغير اليهود، إشارة إلى الدخول في شعب الله، لأن اليهود لا يقبلون بالتغطيس أبداً. ولم يتردد يوحنا، فقد انتظر مع أخيه وشريكيهما تحت الشمس، حتى وقفوا أخيراً أمام النبي يحيى الذي وضع يده القوية على يوحنا بن زبدي الذي تواضع وأحنى ركبتيه في النهر الموحل، حتى سمع اندفاع المياه في أذنيه.

وفي نهاية فصل الشتاء، بعد أن قلَّت الجماهير، جاء عيسى المسيح من الناصرة دون أن يلحظه أحد، وعُمِّد بالماء بعد أن تغلب على احتجاجات النبي يحيى. ولم ير يوحنا ويسمع بما حدث. ثم اختفى عيسى المسيح. وبعد مرور ستة أسابيع شاهده النبي يحيى راجعاً، وكان نحيفاً قد لوَّحته الشمس، وكأنه قد خرج من تجربة عميقة صعبة لا يستطيع الآخرون المرور بها. وفي الحال أشار إليه النبي يحيى أمام الجمهور، وقال: هذا هو الشخص العظيم الذي أعلن عنه. ولكنّ عدداً قليلاً من الناس أعاروا الاهتمام لهذا الشاب الجليلي الذي لوَّحته الشمس، والذي لا يناسب توقُّعاتهم. أشار يحيى في اليوم التالي مرة ثانية إلى عيسى المسيح، وكان يوحنا وأندراوس إلى جانبه، فعرف يوحنا ابن خالته الذي لم يره منذ أيام الصبا، واقترب الجليليون منه بخجل.

رحب عيسى المسيح بهم في السقيفة التي كان يقيم فيها، وبدل أن يجدوا قاضياً متعالياً بعيون ملتهبة، رأوا رجلاً شبيهاً بهم، يجمع بين اللين والقوة، وقد جذبهم إليه، لدرجة أن أندراوس قال لأخيه سمعان في الحال: «لقد وجدنا المسيح». ولم يدرك أندراوس تماماً معنى هذا الاكتشاف وإلى أين سيقودهم. وأسرع سمعان لملاقاة عيسى المسيح الذي قال له في لحظة: «أنت الصخرة» (الصفة بالآرامية، وبطرس في اليونانية)، وهكذا اكتسب بطرس هذا اللقب.

ترك عيسى المسيح مع يوحنا ويعقوب وأندراوس وبطرس ضفاف نهر الأردن. وشجع النبي يحيى ولاءهم لعيسى المسيح دون أن يشعر بالغيرة، وقال لهم: «يجب أن يصبح هو أكثر عظمة، وأن أصبح أنا أقل عظمة». وتبع عيسى المسيح تلميذان آخران، هما فيلبس من بيت صيدا، ونثنائيل من قانا، وقد تأثرا به كثيراً من اللقاء الأول بالرغم من أن نثنائيل كان لا يحب سكان الناصرة.

وانطلقوا معاً سائرين في طريق الحجاج إلى الهضبة الشرقية، حيث وصلوا الطريق التي تمر جنوباً وشمالاً عبر بلاد كانت أكثر خصباً وخضرة مما ستصبح عليه في قرون لاحقة، وتمر أيضاً عبر المدينة اليونانية قيصرية.

أمضوا الليل في قرية إلى جانب الطريق، ثم غادروا الطريق الكبرى لينحدروا مرة ثانية إلى وادي الأردن، حيث ساروا صباح ذلك اليوم بهدوء دون أن تلوح في الأفق أية متاعب، ثم صعدوا إلى تلال الجليل.

وصل عيسى المسيح إلى عرس في قرية قانا في الجليل، حيث حوّل الماء إلى عصير العنب، وكتب يوحنا حول هذه الحادثة بعد ذلك بوقت طويل، يقول: «واظهر مجده فآمن به تلاميذه».

ظل يوحنا يتذكر بشوق كبير في السنين التالية، الأشهر الأولى التي قضوها معاً ويحاول تفسير معناها، وعندما رجع عيسى المسيح إلى الناصرة، تركه يوحنا لأسباب غير معروفة (هناك انقطاع في الرواية). وبعد مرور عام على انضمامهم إلى الجماهير المتجهة إلى النبي يحيى، وخلال شتاء سنة 29 ميلادية، عاد الشركاء يوحنا ويعقوب وبطرس وأندراوس إلى العمل ثانية في صيد الأسماك، بينما رجع عيسى المسيح إلى الناصرة. ويشير ذلك إلى أن صداقتهم كانت بحاجة إلى أن تبدأ بداية جديدة.

السبت العجيب

كانت بحيرة طبريا تتلألأ تحت أشعة شمس الربيع، وانتشرت فوقها عشرات القوارب الشراعية، فيما كانت القوارب التجارية تبحر ذهاباً وإياباً بهدوء لصيد السمك. وظهرت مدن وقرى الشاطئ الشرقي بعد ظهر ذلك اليوم واضحة تحت أشعة الشمس وعبر المياه الزرقاء الداكنة والسماء الصافية، وكانت التلال المنخفضة التي تقع خلفها كثيفة الأشجار، في حين ظهر جبل الشيخ إلى الشمال بقمته المغطاة بالثلوج والتي يلفها الضباب.

كان يوحنا يجلس مع أبيه وأخيه يعقوب وعدد من الرجال المستأجرين في قارب الصيد الذي تملكه العائلة، راسياً على الشاطئ الصخري الأجرد. كان الجميع يستعدون لصيد السمك في الليل، وكان يعقوب الأخ الأكبر ليوحنا يوبخه من حين إلى آخر، لأنه يعقد الشباك أو ينسى ثقباً، أو يترك أعشاباً بحرية كان يجب تنظيفها وإلقاؤها بعيداً. ولم يكن يوحنا يتأمل في هذه المناظر الطبيعية، أو يفكر في عمله، وإنما كان في دوامة من الأفكار، ولم يكن يعرف إذا ما كان سيشعر بالفرح أو القلق بعد أن يخرج عيسى المسيح من الناصرة.

كانت الأخبار الأولى التي وصلت تقول إن هيرودس قد سجن النبي يحيى وأسكت صوته القوي. ثم جاء مسافرون إلى كفر ناحوم يحملون أخباراً تفيد بأن المسيح قد ظهر، وأن الإضطرابات تحدث في الأماكن التي يذهب إليها، فلقد طُرد من الكنيس في الناصرة، ولقي الترحيب في أماكن أخرى، وأخبروا عن أعماله بدهشة واستغراب . وسمع يوحنا بهذه القصص والإشاعات في أواسط فصل الربيع الدافئ، وكان يقود السفينة في البحيرة، أو يسحب الشِباك أو ينفذ الأوامر التي يصدرها أبوه إليه. وكان يفكر طويلاً وبصورة جدية بأن يلتحق بعيسى المسيح، ولكنه كان يخشى أن يراه ثانية رغم إعجابه الكبير به. وقد شعر خلال أشهر تلمذته في السنة الماضية بأنه سيِّد نفسه، وأنه يأتي

ويذهب كما يشاء. وعرف بأن لحظة ستأتي، لا بدَّ أن يعلن فيها ولاءه إلى الأبد، أو أن يتركه يذهب في طريقه. وكانت الشِباك تتعقد بين يديه مرة أخرى، مما دفع يعقوب إلى الصراخ عليه.

وكانت ترسو عند الشاطئ بالقرب منهم السفينة المشتركة الأخرى، وقد جهَّز سمعان وبطرس وأندراوس شباكهم للصيد في الماء العميق أثناء الليل. وهم يقفون الآن في الماء الضحل على الشاطئ عراة حتى حقويهم، ويعدّون الشبكة على شكل جرس من أجل صيد السمك على الشاطئ.

وسمع يوحنا فجأة صوتاً مألوفاً له، فنظر إلى الأعلى من خلال شبكته، فرأى عيسى المسيح واقفاً على ظهر المركب، على بعد بضعة أقدام منه، ويقف خلفه بطرس وأندراوس. وكانوا قد وضعوا ملابس العمل على أكتافهم القوية شبه العارية، ومنظر المغامرة بادياً على وجوههم. وكان يظلل وجه عيسى المسيح نفسه ، غطاء الرأس العادي المسترسل لحمايته من الشمس، واستطاع يوحنا أن يلاحظ أنه يبتسم. وكان جسمه نحيفاً، ولكن قوته كانت واضحة. وأدرك يوحنا من تلقاء نفسه أن عيسى المسيح يدعوهم إلى إتباعه. فأطاعوه بفرح كالأطفال دون اكتراث للمخاطر في المستقبل.

قال عيسى المسيح ليعقوب ويوحنا: «اتبعاني!» لقد أتت لحظة القرار. فألقى يعقوب بالشبكة أرضاً وقفز عن الحافة العليا من جانب المركب وتبع عيسى المسيح، ونظر يوحنا إلى زبدي والرجال المستأجرين الذين جفلوا، وفكر في أمه سالومي، ولكنه كان يعرف أنها ستوافق، ولهذا لم يتأخَّر عن الذهاب. وأخذ زبدي قارب الصيد في تلك الليلة دون مشاركة أبنائه.

ولم يخبر يوحنا وبطرس إلى أين أخذهما عيسى المسيح، وماذا علّمهما في اليوم الأول بعد أن التقيا ثانية. ولم يرغبا في هذه المرحلة أن يتخلّيَا عن أسرتَيْهما، ولهذا كان بطرس يعود كل ليلة إلى زوجته وعائلته، في حين حل عيسى المسيح ضيفاً على سالومي. وحلّ يوم السبت بعد غروب الشمس، وكان لا بد من المحافظة على السبت يوماً للراحة، فلا يجوز لليهودي أن يعمل. وكانت الأنوار المتلألئة على البحيرة في الليل، والسفن التي تسير في النهار، تخصُّ غير اليهود الذين يعملون من طبريا وبيت صيدا أو الشاطئ الشرقي.

كان السكون يخيِّم على كفر ناحوم صباح يوم السبت، عندما انطلق عيسى المسيح ويوحنا ويعقوب مع والديهما في الشوارع المرصوفة بين البيوت ذات الحجر الأسود، وكانوا يسمعون وقع أقدام من جميع الجهات، إذ كان على اليهود أن يسيروا مسرعين نحو الكنيس كدليل على رغبتهم في العبادة. وكان القانون يفرض على كل رجل وامرأة وطفل حضور الصلاة في ذلك اليوم. وحفزت رتابة الصلوات الجيران على إيجاد العذر الذي يعفيهم من الحضور ومخاطر العقوبات التي يفرضها الكبار. وجاء في هذا السبت جمهور أكبر من المعتاد إلى الكنيس الجديد الذي بناه قائد الحرس الروماني، الذي يقيم في المعسكر ويحكم البلدة. وكان هذا الحاكم يحب أبناء الشعب ويدعمهم في حين كان الضباط الآخرون ينظرون إليهم باحتقار.

وانتشر الخبر بأن عيسى المسيح الناصري موجود في البلدة وأنه قد يقوم بالوعظ. وكان يايرس رئيس الكنيس ينتظره خارجاً لتوجيه الدعوة إليه، ولم يكن يهتم به سوى لكونه معلّماً زائراً محترماً، ويمكن أن يزيد من عدد المصلّين. وكان يايرس قد حصل على منصبه بسبب ثروته وقدرته الإدارية وليس بسبب قداسته.

دخل المصلُّون إلى بناء طويل يحتوي على صفَّيْن من الأعمدة الجميلة، وكانت المنصَّة وتابوت العهد الذي يحتوي على التوراة يقعان في المقدمة. وجلست النساء مع الأطفال أثناء الصلوات في جانب وجلس الرجال والأولاد في جانب آخر، ثم وقفوا ليردِّدوا شهادة الإيمان التقليدية بالله الواحد، ثم سار الحزان (قيم الكنيس) إلى تابوت العهد، واختار سِفْراً وسلمه إلى عيسى المسيح الذي كان يقف على المنصَّة، ففتح السفر وقرأ قطعة باللغة العبرية كالعادة، بينما أجهد الناس أنفسهم بتتبُّع لغة كانت لا يتكلَّمها أحد، ثم بدأ بالشرح والتعليق بلغتهم الأم وهي الآرامية.

سمع يوحنا عيسى المسيح وهو يعظ، ولم يندهش لجلوس المصلِّين مشدودي الانتباه. فقد كان بعض المعلّمين يقدمون للمصلّين سلسلة طويلة من الآراء الغامضة لكبار الحاخامات، تزيد النصَّ صعوبة. ولكن عيسى المسيح أهمل تفسير القدماء وتحدَّث بلغة بسيطة وبعث حياة جديدة في النص، وقدَّم لهم تفسيراً جديداً يعبِّر عن رأيه: «سمعتم أنه قيل... ولكن أنا أقول لكم...» واستمع الحضور إلى كلماته، وكان يحظر التعجُّب بصوت عال، أو مقاطعة الخطبة في الكنيس. ولكن يوحنا أحسَّ بدهشة الحضور. ولم يشعر عدد من المصلّين الذين جلسوا إلى جانبه براحة عندما ألحَّ وقال: «توبوا! إن ملكوت الله هنا في حضوركم في هذه اللحظة! توبوا وآمنوا بالأخبار السارة». ارتفعت فجأة صرخة داخل المبنى، فقد قال رجل كان يجلس على أحد المقاعد بصوت مرتفع، مخاطباً عيسى المسيح، بعبارة قديمة كلها تحدٍّ وعداوة: «ما لي ولك يا عيسى الناصري؟».

شعر الناس بالخوف، وتعرَّفوا على صوت الرجل، وتساءلوا كيف اندسَّ بينهم، لأنهم عرفوا من عينيه المحدقتين، وعاداته الغريبة، بأنه في قبضة روح شريرة نجسة، وكان يجب استثناؤه من المصلّين. فقد نجَّسهم بحضوره وأفسد العظة عليهم. حاولوا كبته؛ ولكن حاخام الناصرة سيقوم بمعالجته لطرد الأرواح منه فيما بعد، وليس في الكنيس. ويجب أن يصمت الآن، ولكنه ازداد صراخاً: «يا عيسى الناصري! أنا أعرف مَنْ أنت. أنت قدوس الله!» وبدأ يصرخ ويجدِّف، ولكن الناس كانوا يأملون بأن يتجاهله الواعظ.

توقف عيسى المسيح، ونظر باتجاهه وتكلم بصوت صارم وقوي: «اخرس، واخرج منه في الحال!» فارتجف الرجل بقوة وسقط على الأرض بعد أن صرخ صرخة عالية.

وبعد لحظات قليلة لم يصدِّق الناس ما شاهدوه. لقد نهض الرجل وجلس بملامح طبيعية لم تظهر على وجهه من قبلُ سنوات عديدة. وعندما استأنف عيسى المسيح عظته، استمع الرجل دون أن يشعر بأنه قد عمل تلك الضجة.

وعندما انتهت العظة، وخرج المصلُّون، لم يتمكنوا من إخفاء مشاعرهم. وكانوا يقولون: «إنه شيء جديد، وإن سلطته مدهشة. لقد علّمنا كما أراد وليس مثل الكتبة. هل رأيتم قوته على ذلك الشيطان؟ لقد أمره بالخروج وأطاع، وهذا الأمر يثير الدهشة».

وانسحب عيسى المسيح بعيداً. لقد وعد أن يشارك يوحنا ويعقوب وأندراوس وجبة السبت في بيت بطرس وزوجته. وتم إعداد الأطعمة الشهية في كافة أنحاء كفر ناحوم للاحتفال بيوم السبت. ولم يكن للنساء شيء يعملنه بعد الصلاة في الكنيس، سوى خدمة رجالهن. ولكن زوجة بطرس لم

تحضر إلى الكنيس، لأن أمها التي اعتنت بالبيت كانت طريحة الفراش بالحمَّى، وتخلَّفت عن الحضور للعناية بها.

أسرع بطرس في العودة، بينما سار الآخرون ببطء، لأن هذا التقليد يشير إلى الحزن لانتهاء الخدمة الإلهية. وكانت البحيرة أمامهم هادئة، فيها غابة من الصواري والأشرعة المطوية للسفن الكبيرة التي ألقت المراسي.

وعندما وصل عيسى المسيح وأصدقاؤه إلى البيت على الشاطئ، ودخلوا الساحة الصغيرة المحيطة به، وجدوا بطرس وزوجته في حالة يُرثى لها. كانت زوجة بطرس تفرك يديها وتمسح الدموع عن عينيها عندما قالت لعيسى المسيح إن حرارة أمها ارتفعت إلى حد كبير، وإنها لم تقم بإعداد الطعام. وبدل الإكرام والترحيب الذي كانا ينويان تقديمه له، كان عليه أن يجلس ليشاركهما الحزن والخوف. وقال عيسى المسيح: «خذوني إليها». وذهبوا جميعاً إلى الطابق العلوي، وكانت المرأة كبيرة السن مستلقية على الفراش،وقد أصابتها الحمَّى والعرق والهذيان. وعندما اقترب عيسى المسيح منها، راقبه يوحنا وشاهد أنه بصحة جيدة وجسم سليم، وكان يخشى من أن تنتقل العدوى إليه، وهو لا يحتمل مثل هذه الحمَّى لأحد من أصدقائه.

قال عيسى المسيح شيئاً بدا كأنه توبيخ، ليس للمريضة وإنما للحمَّى. وأمسك بيدها وأنهضها من الفراش، فنهضت وَبَرَدَ وجهُها في الحال. وبدل أن تتماثل ببطء للشفاء، عاودها نشاطها المعتاد، وأسرعت بهم خارج الغرفة واغتسلت ولبست ثم أسرعت إلى المطبخ، وجلس الرجال بعد لحظات لتناول طعام شهي.

خيَّم السكون بعد ذلك على كفرناحوم، واستراح الأهالي في بيوتهم حتى توارت الشمس خلف التلال الغربية، وانتهى السبت. وفجأة سمع عيسى المسيح وأصدقاؤه أصوات حركة داخل البيوت والشوارع المجاورة، فعبر يوحنا الساحة ونظر إلى الخارج، وأصيب بدهشة كبيرة عندما رأى الطرق قد امتلأت بالمرضى والمعاقين والذين يعانون من مختلف أنواع الإصابات. فلقد انتشر خبر الحادث الذي جرى في الكنيس، كما انتشر خبر شفاء حماة بطرس. وكان الشقاء المكبوت لهذه البلدة الريفية يتحرك، وتمكَّن المرضى من قطع المسافة القصيرة إلى بيت بطرس دون أن يدنِّسوا حرمة السبت، كما أنهم افترضوا أنه لن يُشفيَ أحداً قبل انتهاء يوم السبت، لأن الشفاء معناه العمل، ولهذا أرادوا أن يكونوا على استعداد. وعندما حل الظلام،وصل الرجال بالحمَّالات والأسرَّة، لأنهم لم يجسروا أن يحملوا حمالة أو سريراً قبل الغروب، لئلا يشكوهم الناس إلى كبار رجال الدين.

سار عيسى المسيح في الطريق، وكان يوحنا مندهشاً من شفاء الحالات الأولى بلمسة أو كلمة، ولهذا قام أصدقاؤه الأربعة في الحال، بتنظيم المتألمين، وإبعاد المتفرجين الذين ازداد عددهم بشكل كبير، بعد أن أسرع الذين شفاهم عيسى المسيح إلى نشر الأخبار في البلدة. واستطاع بطرس ويوحنا التعرُّف على جيران المرضى، كما زاد عدد الغرباء على الجيران، لأن كفرناحوم كانت مأوى الزوار الذين كانوا يذهبون إلى الينابيع الشافية خلف طبريا، المدينة التي كان يتجنبها اليهود والأتقياء، لجوِّها المنجَّس من قِبَلِ غير اليهود. وأشعل الشباب المشاعل لإنارة المكان، وانتشرت الجموع على الشاطئ، وتسلَّق الأقوياء صواري السفن القريبة من أجل إلقاء نظرة. وكان هذا الجمع صغيراً، ولكنَّ الضجة كانت غير عادية: تأوُّهات وتوسُّلات، وصرخات المصروعين الذين يلقون

الزبد على الأرض، وصرخات الذين قبضت عليهم الأبالسة، حتى أسكتهم عيسى المسيح بكلماته الناهية، التي عبّرت عن كراهيته للشر وسروره لإطلاق سراح الضحايا.

ترك هذا المشهد أثراً لا ينسى في الذين تم شفاؤهم وفي المتفرجين. وأسرع قائد الحرس الذي كان قد بنى الكنيس للبلدة، بالنزول من المعسكر ليرى سبب هذه الضجة. ولم تكن ثمة حاجة لجنودٍ لمكافحة الشغب ،ولكنه بقي يراقب. وانتاب عقله العسكري الشعور بأن عيسى المسيح قد مارس قوة تمثل سلطة قوية، عرفتها قوى الشر وأطاعتها.

ونظر مُشاهد آخر يدعى لاوي أو متَّى إلى الأمر بشكل مختلف. وكان متَّى في ذلك الوقت شخصية سيئة السمعة، لأنه أصبح غنياً بسبب جباية الضرائب على الحدود خارج البلدة. وكانت لديه معرفة جيدة بالأنبياء العبرانيين. وقد ذكَّره مشهد الليلة بنبوءة إشعيا عن العبد المتألم: «لقد أخذ عاهاتنا وحمل أوجاعنا».

ولاحظ يوحنا الذي كان قريباً من عيسى المسيح لحمايته من الزحام، أنه يشعر بالإجهاد عند شفاء الناس. كما حزن لأجل معلّمه، وكان متأثراً بقوته الأولى التي لا تنفذ، وبطريقته العجيبة في شفاء المرضى، خاصة وأنه قد شاهده وهو يشفي حالات معينة. وتم شفاء كل الذين جاءوا، رغم أن يوحنا وأصدقاءه لم يَصِفوا الأحداث بصورة مفصَّلة كما فعلوا مع أحداث أخرى. وأصيب يوحنا بالدهشة أيضاً لأن عيسى المسيح، شارك المرضى في الألم تماماً كما شارك في الأفراح في عرس قرية قانا.

وبعد شفاء المريض الأخير، أعطى عيسى المسيح ابتسامة سريعة لأصدقائه، ثم ذهب واستلقى على الأرض في بيت بطرس، واستغرق في النوم. وذهب يوحنا مع يعقوب إلى بيته، وصعد إلى عليته لينام، ولكنه لم يستطع النوم. فالتفكير في ما حصل لم يدعه ينام، وكان يحاول فَهْمَ هذا الرجل المدهش وهذه الحوادث غير العادية. كما أنه لم يكن يعرف شيئاً عن الصلب، أو القبر الفارغ، أو الأحداث التي سوف تحدث في حياة عيسى المسيح، والقصص التي ستُسمع من فمه، والتي يعرفها الملايين عبر العصور فوق أحضان أمهاتهم. لم يتمكَّن يوحنا من أن يخبرنا عن نية عيسى المسيح، ولكنه كان يعرف أنه يهدف إلى شيء ما، وأنه قادر على السيطرة على الأحداث وعلى نفسه. وكانت شخصيته تتصف بالعظمة والغموض في آن واحد، وكان من المفروض أن يكون أكثر من نجار أو ابن خالة، لذلك كان حريصاً على التقرب منه. فلقد أراد يوحنا أن يكون معه وأن يساعده، وأن لا يتركه أبداً.

وفجأة اخترقت أصوات بعيدة نومه العميق، إذ أيقظه صوت بطرس، فاندفع إلى النافذة. لقد طلع الفجر ولكن الشمس لم تشرق بعد. «لقد ذهب!» صرخ بطرس من الشارع: «لقد أتيت في الفجر... الناس يأتون إلى الباب الآن.. ولكنه ذهب!».

تجديف:

ساروا مسرعين عبر الأرض المنبسطة، ثم تسلقوا الجبال التي تقع خلف القرية. وكانت الشمس تشرق عن يمينهم، وشاهدوا السفن الراجعة بعد انتهاء عمل الليل، وهي ترفع الشراع لتصل المياه الضحلة في الصباح الباكر. وشاهدوا بريق الدروع ورماح الجنود الذين يستعرضون في معسكرهم في سفح التل.

اجتازوا حقولاً تمَّ حرثها في أرض جرداء، وتسلقوا الصخور البازلتية، ومروا إلى جانب كهوف قديمة. كان بطرس يملك غريزة يمكن من خلالها أن يعرف مكان وجود عيسى المسيح، وكان يوحنا يسير لاهثاً وراء يعقوب وأندراوس، وتسلقوا الجبال لمدة ساعة تقريباً، وكانوا يأكلون من الزبيب الذي أحضره يوحنا من بيت الطعام. ثم توقف بطرس وأنصت، وعبر الهدوء الذي تخلَّلته أصوات العصافير، سمعوا صوت عيسى المسيح. قادهم بطرس بلمحة عبر الجبل الموحش حتى رأوا أمامهم جسماً أبيض على البازلت. اقتربوا منه قليلاً ثم وقفوا مشدوهين.

كان عيسى المسيح يتكلم ووجهه مرفوعاً نحو السماء وركبتاه على الأرض لا يدرك وجودهم ظاهرياً، ويصلي بطريقة لم يره فيها أحد منهم من قبلُ، لأن اليهود يقفون دائماً عند الصلاة. ولم يدهشوا لأنه صلَّى بصوت عالٍ، لأن الجميع كانوا يقرأون ويصلُّون في القرن الأول بصوت مرتفع. كان عيسى المسيح يكلم الله بطريقة حميمة، تبدو مخيفة لو قام بها شخص آخر. كان يقول في صلاته: «أبانا، أيها الآب». استعمل التعبير الحميم الذي يستعمله الأطفال في البيت عند مخاطبة والديهم المحبوبين. وكانت الطقوس الدينية قد خاطبت الله رسمياً كأب لأبناء إسرائيل، ولكن لم يجرؤ يهودي واحد من قبل أن يدعو خالق الكون العظيم «أبي».

استرقوا السمع، فقد كان عيسى المسيح يطلب من الله بكلمات بسيطة أن يبارك المتألمين الذين شفاهم. وكان على استعداد لشفاء الذين سيأتون، ثم تكلم عن أصدقائه المقرَّبين واحداً واحداً حتى تحقق يوحنا أن عيسى المسيح يعرفهم ويعرف ميولهم ونقاط ضعفهم. وبينما كان عيسى المسيح يصلِّي، أراد يوحنا أن يكون شبيهاً به في كل طريقة، واعتقد بأن هذا سيكون ممكناً فقط إذا بقيا معاً.

توقف عيسى المسيح عن الصلاة، ونهض على ركبتيه والتفت إليهم وابتسم. كان مسروراً لرؤيتهم، وغفر لهم تَتَبُّعهم له، واستراقهم السمع دون أن يذكر ذلك. ظهر ذلك كله من خلال الابتسامة التي ظهرت على وجهه. تشجع بطرس وقال: «كل واحد يبحث عنك!».

تجاهل عيسى المسيح هذا التوبيخ المبطَّن، ولم يرجع معهم وإنما قال: «سوف نذهب إلى مدن أخرى، حتى أتمكن من التبشير بالأخبار السارة، لأني أُرسلت من أجل ذلك». بدأ يسير بمحاذاة سفح التل باتجاه كورازين، ولأنه لم يأكل شيئاً، ألحوا عليه أن يأكل ما تبقى من الزبيب، ثم توقفوا للشرب عندما وصلوا إلى النبع.

كانت الأسابيع التالية مشهودة، فقد ذهبوا من قرية إلى قرية، ومن بلدة إلى بلدة. تجنَّب عيسى المسيح المدن اليونانية. ولم يعد إلى الناصرة التي أُعجب جيران طفولته فيها بعظاته، لكنهم حاولوا قتله عندما تكلم عن الحقائق الخاصة بهم. وسار يوماً بعد يوم مع تلاميذه عبر الممرات والطرق في الجليل. وناموا في أماكن غير مريحة، ولكن بعض العائلات كانت تستقبلهم؛ وبما أنهم لم يكونوا مستعدين للسفر، لم تكن لديهم ملابس ولا أردية ولا صنادل إضافية. وكان عيسى المسيح يقبل بالحاجات الضرورية فقط بامتنان وكياسة.

وكان لا يغضب عند التعب، ولا يبدو أنه في عجلة من أمره، ولم يكن متكاسلاً أبداً. وكانت قدرته على التحمُّل وعدم أنانيته وراحته النفسية، قد جعلت أيامه سعيدة. ولم يتوقع يوحنا أبداً أن يكون ثمة رجل بلا عيوب، حتى تجول مع عيسى المسيح. وفي حين كان الجيران المتدينون الذين يفتخرون

بكمالهم محتملين بالنسبة إليه، فإن عيسى المسيح كان مرافقاً ممتعاً. وكان واضحاً أنه يحس بنفس الصعوبات التي يواجهها أصدقاؤه، ولكن رد فعله كان سليماً دائماً.

من المظاهر التي أثارت دهشتهم في شخصيته، تواضعه وذهابه في الصباح الباكر إلى بقعة مهجورة من أجل الصلاة. كانوا يرافقونه ويسهرون عليه عن قرب، ولم يسمعوه أبداً يعترف بخطايا أو يتلو صلاة الغفران ولو مرة واحدة. وكلما ذهب إلى مكان جديد، كان يطلب استعمال الكنيس، سواء أكان ذلك الكنيس بناية رائعة مثل كنيس كورازين، أو بيتاً متواضعاً في قرية صغيرة. وكان الجمهور يتجمع في الحال، لأن شهرته انتشرت في المنطقة كلها وتجاوزتها.

شارك في الطقوس الدينية أيام السبت، وغالباً ما كان يفتح سفر إشعياء، ليجد النبوءة التي قرأها في الناصرة في ذلك اليوم الذي حاولوا قتله فيه: «روح الرب حالٌّ علي لأنه مسحني لأبشر المساكين . أرسلني لكي أعلن الحرية للمسجونين، وأردَّ البصر للعميان، وأُطلق سراح المضطهدين، وأُعلن سُنَّة رضا الرب». وعندما انتهى من القراءة، انتظر الجميع بصوت عميق، ليعرفوا كيف سيفسر النص. فأخبرهم في الحال ودون تردُّد، أن النبوءة قد تحققت بينما كانوا يستمعون. وقد رأوا البرهان على ذلك في الحال عندما أحضروا له مرضاهم.

وثمة حادثة أخرى زادت من عدد الجماهير التي اجتمعت حوله، حتى استحالت السيطرة عليها، مما أثار الخوف لدى أصدقائه الأربعة المقرَّبين منذ البداية. كانوا يسيرون معه باتجاه إحدى المدن، عندما شاهدوا رجلاً بملابس رثّة ولحية شعثة،وعرفوا في الحال أنه كان مريضاً من مظاهره الخارجية. وكان على الأبرص أن يصيح: «نجس! نجس! لتحذيرهم».

تُستعمل كلمة أبرص باليونانية لعدة أنواع من الأمراض الجلدية. ولم يكن أيٌّ منها أخطر أو أكثر عدوى من البرص، وكان كل مريض يُعتبر نجساً طقسياً، وعليه أن يتجنب المناطق المأهولة، وأن يبتعد عن المارة. تراجع التلاميذ باشمئزاز وخوف عندما أسرع هذا الأبرص ذو الجلد الأبيض والمتساقط ببشاعة. ركع على الأرض في الطريق على بُعد أقل من قدم أمام عيسى المسيح وأحنى رأسه في الغبار في تذلُّل وأسف. كان بودهم أن يذهبوا به بعيداً قبل أن يؤذي معلّمهم، ولكنهم لم يتجاسروا أن يلمسوا الرجل. كانوا في حَيرة من أمرهم: غير قادرين على المساعدة وغير راغبين في الهرب. وشعروا بكراهية كبيرة لهذا المخلوق. نظر الأبرص إلى أعلى، وكان الغبار الرمادي المنتشر يغطي بياض جلده المصاب. توسَّل قائلاً: «يا رب، إن شئت تستطيع أن تطهرني».

فأجابه عيسى المسيح بعطف وشفقة واضحة: «بالطبع أريد». وكان في الظاهر لا يدرك مخاوف أصدقائه أو شعورهم بالكراهية، ولم يكن قد أبرأ أبرص من قبلُ. ولم يشكَّ يوحنا في قدرته، ولا الأبرص في إرادته. ولكن يوحنا كان يتمنى أن يتجنب عيسى المسيح ملامسة الأبرص تماماً كما فعل النبي اليشع في الزمن الغابر، عندما شفى القائد السوري نعمان عن بُعد. وضع عيسى المسيح يده ولمس الرجل. اندهش التلاميذ. لأنه لا يكسر القوانين الدينية عندما ينجس نفسه فحسب، وإنما يعرض صحته للخطر. قال عيسى المسيح: «اطهر!».

وتخبرنا التوراة كيف أن لحم نعمان عندما أطاع اليشع «أصبح ثانية مثل لحم الطفل الصغير وأصبح طاهراً». ولم يتوقع يوحنا أن يرى مثل هذا الشيء يحدث أمام عينيه. وبينما كان التلاميذ يراقبون ذلك، أصبح جلد الرجل الراكع طرياً، وأخذ لونه الطبيعي، وارتسمت نظرة امتنان عميقة

على وجهه. ثم تحدث عيسى المسيح بعد ذلك إلى الرجل بقوة، بعد أن كان يتحدث إليه بعطف قبل لحظات، فقال: «لا تَفُهْ بشيء لأي أحد». وأمره أن يذهب إلى الكاهن من أجل القيام بالطقوس الدينية المطلوبة منه. ولكنْ، عليه أن يبقى صامتاً.

لم يطع الرجل، فقد جعل الأرض تدوي بقصَّة شفائه السريع على يد الناصري. كانت الإثارة كبيرة، فحيثما ذهب عيسى المسيح تقاطرت الجموع عليه بأعداد كبيرة، حتى إنه لم يعد باستطاعته التبشير في كنيس أو الدخول إلى مدينة، فكان يبشر في المراعي وعلى التلال. ورجع أخيراً إلى كفرناحوم مع أصدقائه بصورة سرية في صباح أحد الأيام قبل أن يعرف بذلك سكان المدينة.

شعر يوحنا بعد ذلك بوقت بصير، بحاجة إلى مراجعة العلاقة العميقة التي تربطه بعيسى المسيح. وفي تلك الأثناء طرق باب البيت الذي يسكن فيه بطرس أعيان من القدس، دلت ثيابهم وطريقة سيرهم وحديثهم بأنهم من الفريسيين «المنفصلين» الذين اعتبروا أنفسهم الحراس الصادقين لنقاء الدين اليهودي، رغم أن العديد منهم كان يهتم بالمظهر أكثر من اهتمامه بالجوهر. وكانت صلواتهم الظاهرية في زوايا الشوارع موضوع حديث الناس. وأتى مع هؤلاء الرجال المقدسيين عدد من الفريسيين المحليين والكتبة، وهم الذين فسروا شريعة موسى وتمسَّكوا بكل تفصيلاتها، وكانوا غالباً بدون دعم من الجماهير، لرفضهم احترام الأعباء الأخلاقية التي وضعوها على عاتق الناس.

وكان بمقدور هؤلاء الفريسيين والكتبة تدمير حياة مَنْ يريدون من الناس، فكان لظهورهم في فناء بيت بطرس ردة فعل قوية لدى أهل البيت. أخذ بطرس الوفد إلى غرفة الضيوف العليا، وأخبر عيسى المسيح الذي كان يستريح في غرفته، ثم ذهبا بصحبة يوحنا عبر البهو الضيق المسقوف والذي كان يمثل الممر العلوي العادي لمثل هذا البيت، ودخلوا غرفة الضيوف. وبينما كانت حماة بطرس تقدم الكعك، والعصير، تحدث عيسى المسيح إلى هؤلاء الزوار الذين أثاروا الخوف والقلق، وكانوا يوجهون إليه أسئلة دقيقة.

نبّه وصول هؤلاء الفريسيين الجيران إلى أن عيسى المسيح في البيت، فدخل العديد منهم إلى الحظيرة وجلسوا بهدوء في ظلال البهو في الأسفل، وكانوا على استعداد للانتظار طوال النهار لكي يسمعوه. وانضمَّ إليهم في الحال آخرون كثيرون، حتى أن بطرس خرج ليرى الجلبة الموجودة في الخارج، وعندها قال عيسى المسيح للفريسيين والكتبة بأن عليه أن يعظ لهم. ولما كان هدفهم هو اختبار تعاليمه، فقد رحَّبوا بهذه الفرصة للاستماع إليه، وتحرّكوا إلى جانب الشرفة عندما ذهب عيسى المسيح إلى الخارج.

سمعوا صوت الجمهور وهو يرحِّب به، واستند عيسى المسيح إلى قضبان البهو وهو يحتمي من أشعة الشمس بالقرميد المعلق، وبدأ الوعظ. وقف بطرس ويوحنا على مقربة منه وهما يستمعان ويراقبان الكتبة والفريسيين بقلق. كان لصوت عيسى المسيح نبرة دافئة جذابة حتى عندما كان يتحدث بصوت منخفض إلى جمهور صغير. وكان صوته مسموعاً بشكل جيد، حتى إن سكان البلدة في الشوارع المجاورة أسرعوا إلى الاقتراب منه،وتدافعوا إلى المدخل، حتى لم يبق هناك مكان لاستيعابهم في الساحة. وازدحم القادمون المتأخِّرون على المدخل وانتشروا على الطريق. ووعظ عيسى المسيح وهو يقف في الظل حوالي نصف ساعة، عندما لاحظ يوحنا فجأة أن أشعة الشمس قد أصبحت على وجه معلّمه، وازداد الضوء بعد لحظة، وسقط بعض الغبار على الأرض. نظر إلى الأعلى فرأى أن قطع القرميد يتمُّ رفعها واحدة واحدة، حتى فُتحت فجوة فوق البهو بين الإفريز الممتد

وجدار البيت. توقف عيسى المسيح، وأخذ الجمهور في الساحة يراقبون مندهشين. فقد قام أربعة من صيادي السمك مفتولي العضلات، برفع قطع القرميد عن المتراس السفلي الذي يحمي سقف البيت المسطح، ورفعوا فوقه فراشاً من القش مربوطاً في زواياه الأربع بحبال، وأنزلوه برفق حتى توقف عند قدمي عيسى المسيح. وكان رجل مشوه صغير السن يستلقي في الفراش. وقد امتدت ساقاه المشدودتان بصورة غير طبيعية، وامتدت ذراعاه المتيبّستان على جانبيه، ونظر إلى عيسى المسيح نظرة فيها الكثير من التوسل والخوف.

أدرك يوحنا حالاً ماذا حدث. لقد أراد الصيادون الأربعة أن يحملوا صديقهم المشلول إلى البيت، وأن يطلبوا من عيسى المسيح أن يشفيه. وعندما أوقفهم الجمهور في المدخل، ولم يتمكنوا من رؤيته، ذهبوا إلى أسفل الشارع، وتوسلوا أن يؤذن لهم في الصعود إلى أعلى السقف المسطح، وبعد ذلك حملوا الرجل فوق الكتلة الرئيسة عبر كل متراس فاصل، حتى وصلوا بيت بطرس. ولم يستطيعوا حفر التراب الجاف دون أن يسببوا سقوط كمية كبيرة من التراب على الجمهور المحتشد أمام المسيح، ولكن إزالة البلاطات الممتدة، كان أسهل بالنسبة إليهم. ابتسموا تعبيراً عن انتصارهم عندما رأوا صديقهم ممدداً أمام عيسى المسيح تماماً. فرد عيسى المسيح الابتسامة، وكان واضحاً أنه مسرور لإيمانهم. ثم حدَّق في أشلاء الرجل، وخيم سكون على الجمهور الذي كان يراقب من الأسفل، وانحنى الفريسيون والكتبة إلى الأمام بانتباه شديد من داخل غرفة الضيوف. انتظر يوحنا. وكان قد تخلى منذ وقت طويل عن أية محاولة لاكتشاف الطريقة التي يستطيع بها عيسى المسيح الدخول في فكر رجل غريب أو معرفة ماضيه.

وتكلم عيسى المسيح، وقال: «يا بُني، لقد غفرت لك خطاياك».

كاد الفريسيون يقفزون من أماكنهم لشدة غضبهم. وبدا عيسى المسيح مرة ثانية وكأنه يدرك أفكارهم الخفية، ففي اللحظة التي كان فيها يوحنا يحاول فَهْمَ سبب روعهم، التفت عيسى المسيح إليهم وقال: «لماذا تفكرون في هذه الأشياء؟ أيُّهما أسهل؟ أن يقال لهذا الرجل المشلول: مغفورة لك خطاياك؟ أم يقال له: انهض واحمل سريرك وامش؟» وحتى تعرفوا بأن المسيح ابن الإنسان له سلطان على الأرض لمغفرة الخطايا... ثم تكلم إلى الرجل ثانية: «أنا أقول لك الآن: انهض! احمل سريرك! اذهب إلى بيتك!».

نظر الفريسيون والكتبة إلى بعضهم البعض بدهشة وغضب، بينما امتد الرجل وعيناه مثبتتان على عيسى المسيح، ثم وضع الذراع التي كانت متيبسة على الأرض ونهض، وأصبح معافى تماماً. وانحنى إلى الأسفل بابتسامة معبِّرة، وطوى الفراش والحبال وكل شيء، ثم امتد بنفسه. وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة تعبِّر عن السرور الخالص. مشى خطوة ثم أخرى وسار عبر البهو، بينما انطلق صراخ من الجمهور بالشكر لله. كانوا يقولون: «لم نر شيئاً مثل هذا من قبلُ»، بينما رافق بطرس الرجل من أسفل الدرج إلى الساحة. وأفسح الناس الطريق له لكي ينضمَّ إلى أصدقائه، الذين أسرعوا بالقفز عبر أسطح المنازل إلى الطريق التي أتوا منها.

وتفرق الجمهور بدهشة كبيرة، ولكن الفريسيين غادروا دون التفوه بأية كلمة. وبعد ذلك سأل يوحنا عيسى المسيح: ماذا كان يفكر هؤلاء الرجال؟ فنظر إليه مباشرة وأجاب: «بالتجديف... أي أن هذا الرجل يجدِّف، لأنه لا يستطيع مغفرة الخطايا سوى الله».

العشَّار:

احتار يوحنا كيف يدّعي رجل كان صالحاً ومتواضعاً بأنه الله، وكان يوحنا وبطرس وإخوتهما قد اعتقدوا بأن عيسى هو المسيح الذي تنبأ عنه الأنبياء، ولكن الأنبياء لم يعلنوا بأن الله نفسه خالق السماوات والأرض سوف يأتي إلى هذا العالم. سيكون المسيح كائناً بشرياً مسحه الله، ولقد عرف المفسِّرون بأن العديد من المسحاء يمكن أن يظهروا، لأن الملك العظيم الذي سيُرجع قوة ومجداً لن يكون عبداً متألماً أيضاً.

كان هذا الأمر محيِّراً بالنسبة إلى صيَّاد سمك. أليس محيَّراً أن يقول عيسى المسيح للرجل المشلول: «يا بُني، مغفورة لك خطاياك». فالفريسيون يرون أنه لا يستطيع مغفرة الخطايا إلا الله وحده. وكان عيسى المسيح عاقلاً وأميناً تماماً، وقد ظهر ذلك جلياً عندما نهض الرجل المشلول ومشى.

لم يحاول يوحنا أن يجد حلاً للمأزق، أراد أن يبقى مع عيسى المسيح ليسمع ويرى، ولم يكن أحد في العالم أكثر أهمية بالنسبة إليه. وكان كلٌّ من بطرس ويعقوب وأندراوس يرى أن عيسى المسيح سوف يوضح كل شيء في حينه.

وكانت في تلك الأثناء مفاجآت أخرى في انتظارهم. كانوا يسيرون في أحد الأيام في الطريق التي تؤدِّي من كفرناحوم إلى بيت صيدا. وكانت الأمطار التي تساقطت في نهاية فصل الربيع قد منعت الجماهير من الاستماع إلى عيسى المسيح، وكان الطقس غائماً. وقد لفّت الغيوم جبل الشيخ، وبدت التلال الموجودة فوق الشاطئ الشرقي بعيدة. وكان واضحاً أن عيسى المسيح كان يهدف إلى شيء لم يكشف عنه بعدُ، ولو كان الأمر غير ذلك لما اختار هذه الطريق المزدحمة بالناس، والتي اتسخت حجارتها المرصوفة من قوافل البغال والجمال. وأعرب رؤساء القوافل عن غضبهم من المشاة الذين اعترضت حزم بضائعهم الطريق. وكان الرعاة الذين يسيرون خلف قطعان خرافهم، والخيالة السائرون على خبب جيادهم في مهماتهم الرسمية، قد جعلوا السير بطيئاً ،ولكنه لا يسبب الخطر. تجمهر كل هؤلاء عند مركز الجمارك الحدودي في كتلة واحدة قد فقدت الصبر. وكان لا بد من تنزيل الأحمال وإحصاء الخراف والمعز، حتى إن الثياب كانت تخضع للضريبة.

جلس متَّى في المكتب الرئيس لمركز الجمارك غير مبالٍ بهذه الضجة، وغير متأثر بالغضب المكبوت، ونفاد صبر الذين فُرضت الضرائب على بضائعهم وأشخاصهم. وكان الجميع يكره متَّى كبقية جامعي الضرائب والموظفين العامين في فلسطين، فهو عميل غير مباشر لسلطة الاحتلال. كان يعيش في رخاء وذلك من النسبة المئوية التي كان يحصل عليها لنفسه، والرشاوى التي كان يأخذها من الأشخاص الذين كانوا يجتازون الحدود دون تفتيش. وكان المؤمنون ينبذونه أيضاً، بسبب معاشرته لغير اليهود، وتعامله بالعملة الوثنية التي تحمل صورة القيصر. ولم يعتقد أحد أن جامع الضرائب يمكن أن يكون شريفاً.

توقف عيسى المسيح عند مركز الجمارك وأخذ يراقب. وظهرت على وجهه تعبيرات تدل على العطف أكثر من عدم الرضى. فقد عرف عن اهتمام متَّى بنصوص التوراة والنبوءات خاصة، وعرف من حضوره شفاء المرضى في مساء ذلك السبت في أول الربيع. وتململ التلاميذ في تلك اللحظات: فلم يكن من المناسب أن يكون هذا الموظف العام رفيقاً لرجل الله. وكلما أسرع عيسى

المسيح في إكمال سيره، كلما كان ذلك أفضل. وانهمك متَّى في تفتيش عمل مساعديه، ومر وقت قبل أن يشعر بوجود عيسى المسيح، ثم نظر إلى أعلى والتقت عيناهما.

فقال له: «اتبعني».

حدث توقف لم يشعر به أحد تقريباً. أمر متَّى كبير مساعديه أن يستمر في عمله، ثم تخلَّى عن عمله ومصدر رزقه ولحق بعيسى المسيح عندما رجع باتجاه كفرناحوم. كان هناك شيء من السرور في نغمة صوته، وطلب من الحواريين أن يرحِّبوا بزميلهم الجديد، فظهر على وجوههم مزيج من علامات الدهشة والكراهية والإعجاب. فقد عجبوا لاختياره لهذا التلميذ. وكان يوحنا قد عرف بأنه شاب سريع الغضب، ولكنه لم يمارس مهنة غير مشرفة، ولم يخالط الرجال والنساء الذين خالفوا شريعة موسى، إلا أنه أُعجب بشجاعة متَّى. عندما استجاب صيادو الأسماك إلى نداء عيسى المسيح وتبعوه، لم يتركوا قوارب صيدهم، وإنما ذهبوا إلى الصيد في البحيرة عدة مرات منذ ذلك الوقت. أما متَّى الذي سيُطرد من الآن فصاعداً من وظيفته في الجمارك، فلم يبق له سوى الأموال التي وفرها. وعرف يوحنا في الحال بأن هذه الأموال سوف تساعدهم، وذلك بلفتة عظيمة من متَّى قبل أن ينطلق للسير معهم كتلميذ.

كان متَّى يسير إلى جوار عيسى المسيح، يتحدث إليه بجدية. وعندما وصلوا الضاحية الفخمة التي كان يعيش متَّى فيها، هزَّ عيسى المسيح رأسه ثم افترقوا. فذهب متَّى إلى بيته، وذهب الآخرون باتجاه بيت بطرس على شاطئ البحيرة. وطلب عيسى المسيح منهم أن يلبسوا أحسن الثياب وأن يستعدوا للذهاب في الوقت المحدد إلى بيت متَّى لتناول طعام الغداء.

لم يدخل يوحنا قط بيت مثل هذا الرجل الذي كان يُعتبر خاطئاً بالنسبة لجميع اليهود، ولم يشعر عيسى المسيح بالحرج من ذلك. ولاحظ يوحنا ظاهرة غريبة، وهي أن المكان الذي يدخله عيسى المسيح تطغى عليه في الحال شخصية المسيح، وليس شخصية صاحب ذلك المكان. كان البيت واسعاً وفخماً ومكسواً بستائر حريرية، ويغطي الأرائكَ قماشٌ ثمين. توقع يوحنا بأن تكون هذه الأشياء كلها قد تمَّ شراؤها بالأموال التي يدفعها المسافرون رغماً عنهم على الطريق باسم هيرودس. وعندما اقتربوا من البيت، أخبر عيسى المسيح الحواريين بأن متَّى سوف يبيع كل شيء، ويعطي قسماً من أمواله للفقراء، ويحتفظ بالقسم الآخر لإعالتهم خلال تنقلهم في الأشهر القادمة. وسيترك المال الكافي لزوجته وعائلته لكي يعيشوا حياة كريمة، إذا كانت له زوجة وعائلة (الأمر الذي لم يعرف أبداً).

ودعا متَّى الجميع إلى الجلوس إلى الموائد المحمَّلة بالطعام. وأصيب يوحنا بالمفاجأة عندما شاهد الأشخاص الذين تمَّت دعوتهم في مثل هذا الوقت القصير إلى المشاركة في هذه الوليمة الأخيرة، والتي كان يقيم مثلها لأصحابه. فلقد استجاب لدعوته العشَّارون وموظَّفو الجمارك من بيت صيدا كفرناحوم وطبريا. واستجاب لدعوة رسول متَّى مسافر قادم من كورازين، تاركاً حماره يستريح من التعب في ظل الحديقة الخلفية. وكان الناس يحتقرون هؤلاء الموظَّفين العامين، وغيرهم من الخطاة الذين ابتعدوا عن الكنيس بسبب زواجهم من غير اليهود. ولاحظ يوحنا في الظلال بين النساء امرأة عاهرة، لا شك أنها خالطت مثل هؤلاء الموظَّفين، وربما لم يكن متَّى مستثنى من ذلك. فلا تكاد تجد بين أصدقائه رجلاً لم يرتكب الزنا، لأنهم كانوا يعيشون مثل غير اليهود، وكان قسم منهم يتعبد في هياكل وثنية.

قابل عيسى المسيح ضيافة متَّى الغامرة بفرح، واتَّجهت قلوب الحاضرين إليه، واستمعوا إلى كلامه حول التوبة والطهارة والملكوت الذي حلَّ بينهم. وصار قسم منهم من أتباعه، لأنهم أخذوا يشعرون أن بقاءهم قريباً منه يمكّنهم من مقاومة الانجذاب إلى فراش عاهر، أو التوقُّف عن سلب الفقراء. وكان بعضهم شارد الذهن. وشكر الجميع متَّى على الطعام والنبيذ، وذهبوا في طريقهم، في حين أبدى قسم آخر احتقارهم له.

تأخر عيسى المسيح داخل البيت مع بعض الضيوف الذين طلبوا مشورته، وعندما خرج التلاميذ إلى الشارع قابلتهم مجموعة غاضبة من الفريسيين والكتبة. فقد وصلت أخبار هذا الحفل كإشاعة يصعب تصديقها، مفادها أن عيسى المسيح قد دخل بيت رجل سيِّئ السمعة، وأكل مع رفاقه الذين عُرفوا بسمعتهم السيئة. ولما كانوا قد كرَّموا عيسى المسيح بالسماح له بالتعليم في الكنيس، فقد ينعكس هذا السلوك على احترام الناس لهم. وسألوا بطرس ويوحنا: لماذا يأكل معلمكم مع العامَّة والخطاة؟

كان هذا التساؤل يتضمَّن التهديد، لأن المعلّم الذي يرافق الخطاة يمكن أن يتمُّ إسكاته، أو حتى حرمانه من الكنيس، مع حوارييه. وكان هذا التساؤل يثير القلق أيضاً، لأن بعض الفريسيين كانوا رجالاً رحماء اهتموا بمواطنيهم، واعتقدوا بأن عيسى المسيح يملك موهبة حقيقية للكلام عن الله بطريقة يستطيع أن يفهمها البسطاء والفقراء. وإذا انقطع عن التيار الرئيس في الحياة الدينية للأمة فسوف يفقد تأثيره.

وسألوا مرة أخرى: لماذا يأكل ويشرب مع العشَّارين والخطاة؟ وسمع عيسى المسيح السؤال بينما كان خارجاً إلى الشارع، فأجابهم في الحال: «لا يحتاج الأصحاء إلى الطبيب، وإنما يحتاج المرضى إلى ذلك. لم آت لأدعو الأبرار وإنما الخطاة». وعرض عليهم نصاً من التوراة، وطلب منهم أن يذهبوا لدراسة معناه، وتركهم واقفين بالقرب من الباب. وبعد أن قاموا بمناقشة علمية لإجابته، ظهر لهم في الحال أنه لم يستجب لشكواهم. وتتبعهم قسم من هذه الجماعة أينما ذهبوا في الأيام القليلة التالية. وسيعود بعد وقت قصير إلى كفرناحوم وفد الجماعة الهامة من الرجال الذين ذهبوا إلى القدس، لكي ينقلوا الأخبار عن حادثة الرجل المشلول. وتمنى الفريسيون المحليون أن يجمعوا الأدلة الكافية التي يمكن على أساسها إصدار حكم حول تأييد عيسى المسيح أو طرده.

وبحلول يوم السبت بعد مرور يوم أو يومين على الحفل الذي أقامه متَّى، كان عيسى المسيح يعلّم في الهيكل. وحضر الكتبة والفريسيون وجلسوا بوجوم يراقبون كل كلمة من كلماته من أجل العثور على خطأ. وتبعوه بعد ذلك واقتفوا خطواته عندما سار مع الحواريين عبر الحقول خارج البلدة، إلى أحد المراعي المنعزلة، حيث أراد أن يعلّمهم على انفراد، قبل العودة لتناول وجبة السبت. وانتشى يوحنا وبطرس في الآفاق الروحية الجديدة التي فتحتها لهم عظته في ذلك المكان. وعند عودتهم أخذ عدد من الحواريين، أثناء مرورهم بحقل من الحنطة، بعض سنابل القمح لكونهم جائعين، فقد مارسوا حق عابر السبيل القديم، وفركوا سنابل القمح بيديهم وأكلوه. وكان وقت الحصاد قد اقترب لأن أمطار الربيع الأخيرة والشمس القوية قد أنضجت القمح سريعاً في الأراضي المنخفضة بجانب البحيرة.

ثم سمعوا صرخة تأتي من الخلف، فقد أسرع أحد الفريسيين إلى عيسى المسيح وسأله: «لماذا لا يحافظ حواريوك على قدسية السبت؟» مرت لحظة قبل أن يعرفوا قصد الرجل. ثم تبين لهم بأن الفريسي اعتبر فرك سنابل القمح مساوياً لعمل الحصاد بالمنجل، وهو أحد الأعمال التسعة والثلاثين المحظورة يوم السبت. وبَّخ عيسى المسيح الفريسيَّ في الحال، فاستشهد بحادثة من التوراة، وأتبعها بعبارتين مؤثِّرتين، حيث قال: «جُعل السبت من أجل الإنسان ولم يُخلق الإنسان من أجل السبت!».. ثم قال مستعملاً اللقب الذي أشار به غالباً إلى نفسه: «إن ابن الإنسان هو سيِّد السبت؟».

عندما ذهب يوحنا إلى الكنيس بعد ذلك بسبعة أيام، رأى الوفد المقدسي في البلدة ثانية، وقد جلس في المقدمة على المقاعد المخصَّصة للحكام، وجلس الفريسيُّ الذي وبخه عيسى المسيح خلفهم. وجلس رجل غريب مشوَّه ويده متقلِّصة، في مكان يشاهد فيه عيسى المسيح عندما يُدفع إليه السِّفر المقدس ليقرأه. وعرف يوحنا في الحال، بأن هذا الرجل قد أُحضر من خارج البلدة، كطعم لإيقاع عيسى المسيح في المصيدة. لم يشكَّ في قدرة معلمه على شفاء اليد المتقلِّصة، سواء أكانت ضامرة أو ناتجة عن حادث، أو مشوهة منذ الولادة. ولكن شفاء تلك اليد يُعَدُّ عملاً كبيراً في يوم السبت.

وعندما دعا قَيِّمُ الهيكل عيسى المسيح إلى منصَّة القراءة، مال الفريسيون إلى الأمام وراقبوه عن كثب، وكانوا على استعداد للرد والمناقشة. ودفع قَيِّمُ الهيكل السِّفر المقدس إلى عيسى المسيح وقرأ فصلاً منه، وابتدأ بالشرح كما لو أن اليد المتقلِّصة لم تكن تعني شيئاً له. وتوقف فجأة ونظر مباشرة إلى الرجل، وقال له آمراً: «انهض وَقِفْ هنا حيث يستطيع الجميع أن يراك». أطاع الرجل، وخيّم الصمت في الكنيس، بينما ازداد التوتر. وعبّر وجه الرجل الغريب عن الأمل الممزوج بالشك والإحراج. وكان الفريسيون في حالة انتظار، فالتفت عيسى المسيح إليهم، وبصوت يخلو من الانفعال الذي يتَّسم به الحاخامون عند الجدال، طرح عليهم سؤالاً بشكل جدلي: «أخبروني... ما هو العمل المشروع يوم السبت: عمل الخير أم عمل الشر؟ إنقاذ حياة أم قتلها؟».

رفض الفريسيون الجدال وظلوا صامتين، وكان عيسى المسيح غضباناً. وكان الغضب يناقض الكراهية والنفاق وتفاهة عقول الزعماء الدينيين الذين اهتموا بحرفية الشريعة ولم يهتموا بالرجل المشلول. واستطاع يوحنا أن يلاحظ بأن المشلول كان يتحدَّث بتمتمة إلى عيسى المسيح، وقد أغضبته قساوة قلوب الفريسيين، ولو فتحوا قلوبهم له فإنه سوف يشفيهم هم أيضاً.

واتجهت جميع الأنظار إلى المشلول. أمره عيسى المسيح: «امدُدْ يدك». وعندما مدَّ الرجل يده، سرت عبر جموع المصلِّين حركة تنمُّ عن الدهشة. ولم يتمكَّن أحد من وصف عملية الشفاء بالتفصيل، ولكن الجميع استطاع أن يرى بأن اليد المشلولة العديمة الفائدة قد أصبحت قوية.

الدعوة في التلال:

منعت السلطات عيسى المسيح من التعليم في الكنيس لمخالفته الصريحة لأنظمة يوم السبت. لم يحرموه أو يحكموا عليه بالجلد، وإنما وصموه بالعار بشكل علني. وبدأوا بالتفكير سراً بطريقة لقتله. وبالتالي سيفقد كلُّ مَنْ يبقى في رفقته سمعته وربما حياته.

وبعد أيام عديدة، أعطى عيسى المسيح التعليمات إلى بطرس ويوحنا لكي يخبرا الجميع بأنه سوف يعلّم في الصباح التالي المبكر في بقعة منعزلة بالقرب من كفر ناحوم. ذهب إلى التلال، وأمرهم أن لا يتبعوه مهما كانت الأسباب، بينما انطلقوا لنشر الأخبار إلى جميع الجيران الذين كانوا

يجلسون في العادة بالقرب منه. ومع انبلاج أول ضوء النهار، وجدوا أن البعض قد اعتذر عن الحضور، في حين كان يصعد إلى الجبل ما يقرب من سبعين أو ثمانين شخصاً من الذين كانوا يشتاقون إلى سماع عيسى المسيح، غير مدركين لماذا أرسل في طلبهم.

وعندما صعدوا إلى الهضبة الصغيرة المرتفعة التي تمَّ اختيارها، رأى يوحنا عيسى المسيح على صخرة ينظر إلى أسفل عبر البحيرة، وكانت مياهها تتلألأ تحت ضوء أشعة الشمس، قبل أن يحجب المنظر الضباب المنبعث من حرارة الطقس. وظهر كأنه يستحمُّ في أشعة الشمس. وعندما ازداد اقترابهم منه، أدرك يوحنا أن وجهه يضيء وعينيه تشعَّان بنور داخلي، ولا بد أنه قد قضى الليلة وهو يصلّي. وبعد أن اجتمعوا حوله شرح لهم مقصده. كان على وشك اختيار اثني عشر رجلاً ليعلّموا إلى جانبه، لكي يذهبوا إلى أي مكان باسمه، ويعرفوا أكثر مما سوف يقوله للجموع.

توقّف قلب يوحنا عن الخفقان لحظة صغيرة، بينما انتظر ليعرف إذا ما سيكون واحداً من الحواريين. نادى عيسى المسيح اسم سمعان بطرس أولاً، وبإشارة خاصة أزال خوف أندراوس وطلب منه أن ينضمَّ إلى أخيه. وعندما سمع يوحنا اسم أخيه الأكبر ينادى عليه تبدَّدت شكوكه. وبعد بضع لحظات كان مع يعقوب إلى جانب عيسى المسيح. ثم نادى على أصدقاء المسيرة (من قانا إلى ضفاف نهر الأردن) فيليبس ونتنائيل وبرتلماوس، ثم متَّى وخمسة آخرين. واحد فقط من الحواريين لم يكن جليلياً، وكان اسمه يهوذا الاسخريوطي «نسبة إلى خريوط». وهي بلدة تقع على الهضبة الشرقية للبحر الميت. ولم يكن هناك ثمة شيء يوحي إلى الحواريين الآخرين بأن بذور الخيانة كانت موجودة لديه.

كان الانفعال واضحاً على يوحنا ،وتملّكه شعور غامر بالامتنان والتصميم على أن يكون جديراً بالثقة. وأظهر عيسى المسيح بصورة غير مباشرة، بأن اتخاذ الحواريين امتياز خاص به، وأن كل واحد منهم يعد هبة عظيمة يتولى أمرها، من أجل منفعتهم. ونظر يوحنا حوله إلى هؤلاء الرجال الأحد عشر الذين سيصبحون من الآن فصاعداً رفاقه كل يوم، ورغم محبته لبطرس وأندراوس وحبه لأخيه والصداقة التي نمت مع معظم الآخرين، فإنه لم يمنع نفسه من عقد المفارقات بينهم وبين عيسى المسيح. كان العديد منهم أطول وأقوى منه، ولكنّهم لا يقارَنون به في الأخلاق والحكمة.

لم يكن هناك مجال واسع للتفكير، فقد نادى أحد الأشخاص قائلاً بأن الجماهير تزحف إليهم، وكان ذلك واضحاً من الهضبة المشرفة على أعلى الممر الذي ساروا فيه في الصباح الباكر. وبدأ عيسى المسيح في الحال بالنزول من الجبل باتجاههم، ليعلّم التلاميذ طريقة معاملة إخوتهم في الإنسانية في المستقبل، وتبعه الباقون. اختار فسحة واسعة على سفح التل وانتظر. وتأثر الجميع، وخصوصاً يوحنا، بسعادة الناس عندما شاهدوه. لم يكن هؤلاء من الجليل فقط، فقد كان بالإمكان معرفة هوية الذين جاءوا من الجنوب والمناطق الساحلية والمناطق الموجودة عبر الأردن، من الاختلافات البسيطة في لباسهم ولهجاتهم. وازدحم الصغار والكبار والفقراء والأغنياء والنساء والأطفال حوله وكانوا في شوق إلى لمسه أو إخباره عن أمراضهم، أو إحضار أصدقائهم وأقربائهم الذين احتاجوا إلى العناية أو المساعدة. وكان المشهد مألوفاً: ازدحم المرضى والصُمّ. وكان عيسى المسيح يساعدهم بمحبة، بقوته غير المحدودة التي ظهرت عندما لمسوه. وكان الظرف مختلفاً في هذه المرة. فقد أمر الحواريين بعد أن قام بشفاء المرضى الذين أُحضروا إليه، أن يُجلسوهم جميعاً على العشب المواجه للتلة، وأن يكونوا في المقدِّمة.

جلس عيسى المسيح على التلّة وبدأ يعلّم كما جلس سابقاً في الكنيس، وحمل النسيم صوته واضحاً إلى الجماهير التي أحاطت به، وقال عظة الجبل المشهورة التي تردد صداها في جميع أرجاء العالم عبر الأجيال التالية. بدأ بقوله:

»طوبى لفقراء الروح لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للمحزونين فإنهم سيُعزَّون، طوبى للضعفاء فإنهم سيرثون الأرض«.

»طوبى للجياع والعطاشى للبر لأنهم سوف يُشبعون. طوبى للرحماء فإنهم سيُرحمون. طوبى لأنقياء القلوب فإنهم سيشاهدون الله. طوبى لصانعي السلام فإنهم بني الله يُدعون. طوبى للمضطهدين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السماوات«.

»طوبى لكم إذا شتموكم واضطهدوكم وافتروا عليكم بجميع أنواع الشرور لأجلي. افرحوا وابتهجوا لأن أجركم عظيم في السماوات، فهكذا اضطهدوا الأنبياء قبلكم«.

واستمر في تقديم العديد من النصائح العملية، وأنصتوا بانتباه شديد حافظين كلامه عن ظهر قلب. وستبقى العظة على الجبل، تُذكر على أنها جوهر كل الأشياء التي تكلم عنها في موضوع حياة الحواريين. ولما كان ورق البَرْدي والرقّ في تلك الأيام، لا يمتلكه إلا الأغنياء ودور العبادة والمدارس الدينية فقط، فقد تعلّم اليهودي منذ نعومة أظفاره بأن يحفظ النصوص عن ظهر قلب. وكان التلاميذ يشعرون بالفخر إذا حفظوا التعاليم دون تغيير. وكان المقرَّبون مثل الحواريين، يشعرون بشرف كبير إذا تمكّنوا من نقل التعاليم بنفس الكلمات والنغمة والحركات.

وكان يسهل الاستماع إلى عيسى المسيح لأنه كان يقدم الشرح بالإشارة إلى الأشياء المألوفة كالملح الذي أصبح فاسداً، أو المصابيح المضيئة، أو المدينة التي تقع على جبل مثل الناصرة. وتكلم عن العث والصدأ واللصوص الذين يسطون ويسرقون. وفي تعليمه حول راحة النفس، تكلم عن الأزهار البرية في الربيع التي لا تجهد ولا تغزل و«سليمان في كل مجده لم يلبس مثل واحدة منها»؟

وبينما استمر في كلامه، رأى المستمعون في بصيرتهم، صورة المتعبِّد الغاضب الذي جاء إلى الهيكل لرغبته في إجراء صلح مع أخيه الذي أساء إليه، أو المنافق الذي يتفاخر بنفسه وهو يتلو صلواته بصوت عال حتى يعجب به الجميع، أو يستأجر نافخ بوق ليعلن عن صدقاته. ورأوا جميعهم، وهم فرحون، نجاراً يحاول إزالة نثرة من غبار النجارة من عين رفيقه، وهو لا يرى الخشبة التي في عينه. وذكرهم بالغضب والتعب الناجمَين عن السير في وقت الحر، عندما يسخِّرهم جندي روماني لحمل حمله الثقيل. وكان من حق الجندي أن يُرغم رجلاً أن يمشي معه ميلاً. وأدهشهم بقوله: «امش معه ميلين«.

وقارن عيسى المسيح في القسم الأكبر من عظته بين الميول الطبيعية في الحياة، والحياة التي يسيطر عليها الحب والبر والإيمان. وظهرت عظته إلى مستمعيه في ذلك اليوم، والذين كانوا من اليهود أو الذين يتبعون العادات اليهودية، على أنها تأكيد بأنهم إذا فعلوا ما علّمهم إياه، فإنهم سوف يلتزمون بروح شريعة موسى. وتُعَدّ هذه التعاليم ثورة إذا قيلت بالقرب من المعابد الوثنية في المدن اليونانية والرومانية، أو في البلاد البعيدة، حيث اتبع الناس لمدة قرون عديدة بوذا أو كونفوشيوس أو عبدوا الآلهة الهندوسية.

ستظهر العديد من الكتب حول العظة على الجبل، تشرح وتحلل كل عبارة فيها، ولكن يوحنا وبطرس مع جميع الأصدقاء الذين استمعوا إليها باهتمام، لاحظوا أن صورة الرجل الكامل أمامهم هي صورة ذاتية. وأن عيسى المسيح الذي عرفوه، كان وديعاً ومتواضعاً ورحيماً وصانع سلام. أحب أعداءه وأعطى بدون مقابل. لم يقلق للمأكل والملبس أو لما سيحدث في اليوم التالي. كان يعلّمهم أن يكونوا مثله. وقد أدرك يوحنا بشكل جيد، بأنه لا يستطيع تقليد شخصية عيسى المسيح بمفرده، أو أن يعيش حسب المعايير التي وضعها، كما شك في أن يكون أحد من المستمعين قادراً على ذلك.

وكان أمله الوحيد في البقاء برفقته، والتمسك بمثله، وقد يصبح أكثر شبهاً به رويداً رويداً. وكان لا يزال شاباً والسنوات أمامه. ألم يقل عيسى المسيح «لا تقلقوا حول الغد؟».

قطع يوحنا أفكاره، لأن الموعظة كانت تقترب من نهايتها عندما روى لهم عيسى المسيح قصة مليئة بالحيوية، قال فيها: «يشبه الرجل الذي يسمع كلماتي ويعمل بها، رجلاً حكيماً بنى بيته على صخرة، فقد عمل بكد وحفر وعرق لأجل عمل الأساسات، حتى انتهى أخيراً من بناء بيته. وعندما سقطت الأمطار وسالت الأودية وعصفت الرياح وهبَّت على ذلك البيت، فلم يسقط، لأن أساسه على الصخر».

وشبّه عيسى المسيح الذين سمعوا تعاليمه ولم يعملوا بها، «برجل جاهل بنى بيته بيسر وسهولة واضعاً أسسه على التربة الرملية فوق النهر. ثم جاءت الأمطار وسالت الأودية وعصفت الرياح، فضربت ذلك البيت وسقط وكان سقوطه شديداً».

من الأعماق:

بينما كان يوحنا يستمع بحرارة إلى الموعظة على الجبل، كانت هناك مأساة تحدث في معسكر كفرناحوم. كان قائد المعسكر، قائد الحرس الوثني الذي بنى الكنيس اليهودي، في حالة يأس، لأن قيِّم بيته وهو العبد الذي كان موضع ثقته أكثر من أي عبد آخر، يموت من الألم من شلل كاد يمنعه من التنفس. وكان هذا العبد عزيزاً عليه، ليس لأنه ماهر في الحساب فقط، وإنما لأنه كان صديقاً عزيزاً: وقد عُرف مثل هذا النوع من العلاقات في الإمبراطورية الرومانية، إذ كان باستطاعة العبيد أن يتولوا مناصب هامة في بيوت أسيادهم.

فشل الأطباء في معالجته، ولم يبق مُتَّسَعٌ من الوقت، ثم تذكَّر قائد الحرس الليلة التي ذهب فيها مسرعاً وهو في مهمة رسمية إلى رصيف السفن، بعد سماعه تقارير عن وجود جماهير غفيرة تراقب عيسى المسيح وهو يشفي المرضى. وقد ترك هذا الحادث لديه انطباعاً بأن عيسى المسيح يختلف عن صانعي المعجزات المتجولين أو المشعوذين الذين قابلهم في حياته العسكرية. واعتقد من خلال معرفته للديانة اليهودية، بأنه كلما كان الرجل أكثر قداسة، كان أقل رغبة في تدنيس نفسه بدخوله بيت غير اليهودي، أو الاستجابة لطلب مباشر لغير اليهودي. لذلك أرسل رسالة إلى شيوخ الكنيس الذي بناه، طالباً منهم التوسط لدى عيسى المسيح لإنقاذ حياة عبده.

وضعهم هذا الأمر في حَيرة من أمرهم، فلقد منعوه من الدخول إلى الكنيس، ووصموه بأنه شخصية غير مرغوب فيها، ولكنهم لن يتجاسروا أن يرفضوا طلب ضابط كبير في خدمة هيرودس، خاصة وأنه كان محسناً إليهم .وكان الحواريون يشعرون بالحر بعد النزول من الجبل، ولكن

الأشياء التي سمعوها هناك بعد ظهر ذلك اليوم أثارت حماستهم. لقد كانت مفاجأة بالنسبة إليهم أن يجدوا وفداً من الشيوخ يرحب بعيسى المسيح في البلدة التي حاولوا فيها وصمه بالعار. وعندما بدأوا بتعداد فضائل قائد الحرس، لم تَفُتِ الحاضرين سخريةُ الموقف: «كان الشيوخ يتوسلون إلى الرجل الذي رفضوه، لكي يساعد رجلاً احتقروه لأنه غير يهودي مهما كان كرمه».

قطع عيسى المسيح قصتهم المثيرة للاشمئزاز وقال: «سوف أذهب». وبينما كانوا سائرين باتجاه المعسكر، أسرع أحد المراسلين لإخبار قائد الحرس بذلك. وفي الوقت عينه حمل صديقان أو ثلاثة من أصدقاء قائد الحرس إلى عيسى المسيح رسالة عاجلة نُقلت عنه حرفياً: «يا رب، لا تتعب نفسك، لأني لا أستحقُّ أن تكون تحت سقفي، ولذلك لا أستطيع الحضور إليك بنفسي. قل كلمة واحدة فقط وسيبرأ عبدي! لأنني أنا أيضاً لي سلطان، ولدي جنود تحت إمرتي. أقول لهذا «اذهب» فيذهب، وأقول لآخر «أتِ» فيأتي، وآمر عبداً «افعل هذا» فيفعله!».

تعجب عيسى المسيح، ورغم أنه استطاع النفاذ إلى الأفكار الخفية الغضبانة للكتبة والفريسيين، سمح لنفسه أن يبدو مندهشاً لإيمان رجل غير يهودي . التفت إلى الجمع القريب منه وقال بتأكيد وحبور في صوته: «لم أجد مثل هذا الإيمان العظيم حتى بين بني إسرائيل!» ثم أخبر المراسلين أن يرجعوا إلى قائد الحرس الوثني، الذي عرف بشكل غير مباشر، أن الاتصال الجسمي غير أساسي، لأن قوة الشفاء مستمَدَّة من الخالق. فأرسل له تطميناً مباشراً: «سيتم الشفاء لأنك آمنتَ بأنه سيتم»، ورجع باتجاه البلدة.

ضجَّت المنطقة في اليوم التالي بأخبار شفاء العبد. ورغم الامتنان الكبير الذي شعر به محسنهم، استمر شيوخ الكنيس في منع عيسى المسيح من دخول الكنيس. ولذلك أصبح شاطئ البحيرة منبراً له ، من الصباح الباكر البارد وحتى ساعات الحر في منتصف النهار. ولم يتوقف الناس عن القدوم لسماعه من بعيد أو قريب حتى وقت المساء. وأنصت الحواريون وغيرهم إلى كلامه، في حين كان المسافرون العابرون الذين يتوقفون للاستماع، ينقلون القصص والأقوال حيثما ذهبوا، بحيث انتشرت من بيت إلى بيت، بأخبار مثيرة: فقد كان يقطع تعاليمه من أجل شفاء المرضى. وكان هذا يحدث في الجليل، المكان الذي يحتقره الأرثوذكس وأتقياء اليهود، لأنه مكان معروف بالعادات السيئة، وينتشر فيها الجهل والفساد والظلام الروحي، وعاش فيه الكثير من غير اليهود.

تذكَّر متَّى آية مناسبة من سفر إشعيا حول «جليل غير اليهود»، واقتطف هذا القول: «الناس الذين يعيشون في الظلام قد أبصروا نوراً عظيماً، وبزغ النور على الذين يعيشون في ظلال الموت».

وبدأ أقرباء عيسى المسيح في الناصرة، يشكُّون بسلامة صحته، بعد أن سمعوا أنه قد أهمل تناول وجبات الطعام، بسبب كثرة الجموع التي تزاحمت حوله. وربما كانت سالومي نفسها قد أخبرت أختها، لأن مريم جاءت مع رفاقه ليأخذوه إلى البيت لكي يستريح، وقالوا: «لقد فقد صوابه». أرادت مريم أن توقف عمله، وكان ابن خالته يعقوب لم يؤمن به على الإطلاق. وقد وصلوا ذات مساء عندما كان في بيت بطرس، وكان لا يزال يعلّم الجموع في الساحة.

ولم تتمكن عائلته الناصرية من الدخول إلى الساحة بسبب كثرة الجموع، فقام أحد الأشخاص بمقاطعة عيسى المسيح وتسليمه رسالة، عرف منها لماذا جاءت أمه مع يعقوب والآخرين، ولكنه لم

يردّ المراسل أو يخرج من أجل لقاءهم. وسأل بدلاً من ذلك مباشرة: «مَنْ هي أمي في الحقيقة؟ مَنْ هم إخوتي الحقيقيون؟... إنهم هنا جالسون حولي! كل مَنْ يسمع كلمة الله ويعمل إرادته هو أخي وأختي وأمي؟» ثم استأنف تعليمه.

وصل هذا التوبيخ المبطن إلى العائلة، فكان ردُّ يعقوب قاسياً، واحتاج الأمر إلى جهد كبير قبل أن تتحول عداوته إلى محبة، وأن يصبح عيسى المسيح هو السيد المعترف به لجميع الذين قبلوا به في القدس. وقبلت مريم التوبيخ، وانتهت مهمَّتها بالفشل، ولكنها لم تندم على ذلك أبداً. لقد حان الوقت لتترك بيتها وتبدأ بالاهتمام به وبالحواريين عند أسفارهم، وأن تتأكد بأن لديه ما يكفي من الطعام والوقت الكافي لتناوله.

وأبرز هذا الحادث أهمية وقيمة إتباع عيسى المسيح، خصوصاً بالنسبة إلى يوحنا ويعقوب أولاد خالته. سمعوه يقول إنه إذا أحب إنسان عائلته «أكثر مني» فلن يكون جديراً بي، وإن أعداء الإنسان هم أهل بيته، وإن الخيار في بعض الأحيان يكون صعباً، بحيث يبدو الولاء له كعدم ولاء للأب والأم. ولم يشك يوحنا بالولاء الذي اختاره الآن، حتى لو حاولت أمه أن تعيقه. وحاول الفريسيون تشويه سمعة عيسى المسيح بالقول إنه متحالف مع أمير الشياطين، وحاول الزعماء الدينيون السخرية منه، لأنه صديق للعامة والخطاة.

قال في نفسه: «دعهم يقومون بالتشويه والسخرية»، فسيبقى عيسى المسيح معلّماً له، سيحاكيه ويدعمه في كل شيء يسعى إليه، من أجل رفع شأن الرجال والنساء في النفس والجسد. لقد جلب السعادة، وصقل مزاج يوحنا الحاد، وعزَّز فيه الحب والعطف، وأنار فكره، لكي يصبح هذا الصياد يوماً، المعلّم والكاتب الذي يفهم الحقائق العميقة، وينقلها بكلمات بسيطة. وكان يوحنا يشعر بالامتنان وبرغبة كبيرة طاغية لمرافقته.

وأظهرت الأحداث الجديدة، أن يوحنا لا يعرف إلا القليل في الواقع. لقد اقترح بطرس ذات ليلة، بعد أن ذهب عيسى المسيح لينام، أن يذهب الشركاء لصيد السمك. ورغم أن زبدي استمرَّ يعمل مع الأجيرين، رغم أن سالومي كانت كريمة، فإن المال الذي يمكن أن يتوفر من صيد وفير للسمك، ستكون له حاجته في كلٍّ من البيتين، إضافة إلى أن يهوذا الاسخريوطي المؤتمَنَ على كيس مال التلاميذ كان يشكو من قلّة الأموال.

ذهب الشركاء الأربعة إلى الشاطئ، وركبوا قاربَيْن صغيرَيْن. وجدَّف كل اثنين منهم في الظلام ورفعوا الشراع، وبدأوا بسحب شبكة الصيد. جذبوا شباكهم بعد فترة ولم يجدوا شيئاً. حاولوا الصيد في كل خليج صغير، وغامروا بالذهاب إلى المياه العميقة، واستبدلوا شبكة السحب بشبكة الإلقاء، ولم يصادفوا سوى الحظ السيِّئ طيلة تلك الليلة الصيفية القصيرة. ولم يتمكّنوا من الإمساك بسمكة واحدة يمكن بيعها لصالح أيٍّ من القاربَيْن. وفَقَدَ بطرس أخيراً الأمل في صيد السمك، وأصبح غضباناً، وأخذ يصرخ على يوحنا ويعقوب مما أغضبهما. وكانت الكنية التي أعطاهما إياها عيسى المسيح، وهي «ابنا الرعد»، تتناسب مع هذا الموقف.

رجع الشركاء الأربعة إلى الشاطئ عند الفجر، كان مزاجهم سيِّئاً، والقوارب تبدو ثقيلة عند سحبها من الماء، والشباك قد اختلط فيها الكثير من الأعشاب. وبدأت بعد ذلك أوائل الجموع في

الوصول إلى المكان، على أمل أن ترى عيسى المسيح. تظاهر بطرس بأنه لا يرى شيئاً، واستمرَّ في غسل الشباك بصمت: يستطيع عيسى المسيح أن ينظِّم الجموع بنفسه وأن يقوم بالوعظ.

وجاء عيسى المسيح عند شروق الشمس واستطاع بطرس أن يرى من طرف عينه بأنه كان متعباً. وازدحمت الجموع عليه، بينما وقف على الشاطئ وبدأ في الحديث عن الله. وانهمك بطرس بغسل الشباك، وازداد عدد الجماهير التي اندفعت إلى الأمام، ورجع عيسى المسيح إلى الوراء وكانت أقدامه في الماء. وفجأة التفت ومشى بضع خطوات وقفز بخفة إلى قارب سمعان بطرس.

نادى عيسى المسيح: «سمعان»، وعندما نظر بطرس إلى الأعلى عند سماعه اسمه القديم بدلاً من الجديد، رأى بريقاً يلمع في عينيه، كما لو أنه قد عرف ماذا كان يدور في ذهنه. «سمعان، ابتعد قليلاً عن الشاطئ، من فضلك». صعد بطرس إلى القارب، وأخذ المجذافين وجدّف بضع ضربات. جلس عيسى المسيح على مقعد المجذاف، واستأنف تعليمه وكان صوته مسموعاً بسبب وجود مسافة قصيرة بينه وبين المستمعين. وكانت لديه الموهبة لكي يجعل كل رجل وامرأة وطفل بين الجمع يشعر بأن الكلام موجَّه إليه بشكل خاص.

وعندما ارتفعت الشمس عالياً وراء تلال الشاطئ الشرقي، توقف عيسى المسيح: كان على المستمعين الكثير من الأعمال التي ينبغي أن يقوموا بها والعائلات التي يعملون لإعالتها، وبقي العديد منهم حتى أدركوا بأنه لن يتحدث أكثر في ذلك الصباح، ثم تفرقوا.

التفت عيسى المسيح إلى بطرس وأندراوس وقال: «اذهبا إلى المياه العميقة وأَلقِيا بالشباك للصيد». أجاب بطرس: «يا معلِّم، لقد تعبنا وعملنا الليل كله ولم نجد شيئاً». وكان في صوته شيء من الانزعاج من ذلك، وشيء من الخجل من سلوكه السابق. ثم أضاف: «ولكن بما أنك أنت تقول ذلك، سأفعل».

سحب بطرس الشِّباك إلى القارب. وسار يوحنا ويعقوب في المياه إلى قاربهما، ودفعاه إلى العوم. وجدّف كلٌّ منهم بقاربه في البحيرة، وساروا مسافة ربع ميل عن القارب الأول. وعندما وصلوا المياه العميقة ألقى بطرس شِباكه. وقبل أن يلقي يوحنا شِباكه سمع صرخة. كان قارب بطرس يتأرجح بعنف، وكان يسحب شِباكه التي مسكت صيداً ضخماً مزَّق الشِباك هنا وهناك. وكانت الأسماك تسقط في المياه. توجه بطرس بالصراخ وطلب المساعدة إلى القارب الآخر، فتوجهوا إليه لمساعدته في الحمل. وامتلأ القاربان بالسمك، حتى وصلت المياه تقريباً إلى الجانب العلوي من طرف القارب. لم ير يوحنا ويعقوب مثل هذا الصيد قط. وكان بطرس وأندراوس، والعرق يتصبب منهما، مندهشين أيضاً بينما جلس عيسى المسيح على مقعد المجذاف، لأنه لا صياد يريد من رجل البر أن يتدخل.

أسقط بطرس السمك الذي بين يديه فجأة، وألقى بنفسه على أقدام عيسى المسيح في إشارة للخضوع التام. كان جسمه الضخم يرتجف، وصرخ: «ابتعد عني يا رب، فأنا إنسان خاطئ». فأجابه: «لا تخف.. ستكون من الآن فصاعداً صياداً للناس». سمع يوحنا ما جرى، وشعر بأحاسيس بطرس، وكان يمكن أن تكون صرخته هو: «ابق قريباً مني دائماً يا رب، لا تتركني أبداً». لقد كفَّر عيسى المسيح عن توبتهم بهذا الصيد الوفير، الذي سيكون حديث جميع الساكنين حول البحيرة لسنوات عديدة. وأثارت ألفته مع الطبيعة دهشتهم، فقد تجاوزت كثيراً حدود مهارتهم المهنية.

وصلوا اليابسة ورفعوا قواربهم على الشاطئ، وسلّموا الصيد إلى زبدي ورجاله، وأقسموا ألا يتركوا عيسى المسيح أبداً.

مَنْ يكون هذا؟:

كان عيسى المسيح يعلّم من القارب عندما ازدحمت الجموع عليه في الصباح الباكر. وقد روى لهم هذه المرة قصة المزارع. كانت الحقول خلفهم قد تمَّ حصادها، وكانت الأرض يابسة، ولكنه انتقل بمستمعيه إلى المشهد المألوف الذي تجعل فيه أمطار الخريف الأرض طرية، وينطلق كل مزارع ومالك أرض صغيرة بكيس من الحبوب لينثرها في الحقل حفنة حفنة، وهو يسير بانتباه في الحقل من طرف إلى طرفه الآخر. وعندما ينتهي من نثر البذور في الحقل، بما في ذلك الطريق التي يمشي القرويون عليها بعد الحصاد، والمناطق الصخرية التي تخفي بذور الأعشاب البرية، يضع النير على ثيرانه ويبدأ بحرث أرضه. كانت هذه هي الطريقة التقليدية المتَّبعة في فلسطين، وهي نثر البذور قبل الحراثة. وتحدث عن الحراثة كأمر معروف لدى مستمعيه.

قال عيسى المسيح: «أصغوا جيداً»، انطلق مزارع ليزرع بذوره. وسقطت بعض البذور أثناء ذلك على الطريق، فأتت الطيور والتقطتها. وسقط البعض الآخر على المناطق الصخرية، وهنا لم تكن التربة عميقة، فنما الزرع بسرعة، وعندما سطعت الشمس احترقت النباتات الصغيرة وذبلت لأنها بدون جذور. وسقطت بذور أخرى بين الأشواك فنمت، ولكن الأشواك خنقتها، فلم تحمل حبوباً.وسقطت حبوب أخرى في التربة الجيدة فنمت وأعطت محصولاً جيداً، فقد تضاعفت كل بذرة إلى 30 و60 وحتى 100 ضعف. وأثار محصول كهذا علامات الدهشة من المستمعين. ثم انهى قصته طالباً من المستمعين تفسير معناها: «مَنْ له أذنان فلْيسمع!».

تحيَّر من هذا المثل كلُّ مَنْ سمعه، سواء أكان من الجالسين أم الواقفين على الشاطئ أو بجانبه في القارب. وعندما تفرقت الجموع إلى أعمالها اليومية، توسل بطرس ويوحنا وبعض الذين بقوا على الشاطئ إلى عيسى المسيح، أن يخبرهم بمعنى القصة. وسألوه عن السبب الذي دفعه إلى الحديث باستعمال الأمثال.

فقال لهم إنه قد علَّم جموع المستمعين عن طريق القصص، ولم يفهم القسم الأكبر منهم مغزاها، وسيبقى هذا المعنى مخفياً عن كل مَنْ لا يريد أن يعرف، بسبب خوفه من ترك الطرق القديمة. ولكن سوف يسمح للمقربين إليه بمعرفة أسرار ملكوت الله: «إن عيونكم وآذانكم سعيدة ومباركة، لأن عيونكم في الحقيقة ترى وآذانكم تسمع. الحق أقول لكم: تمنى العديد من الأنبياء والأخيار أن يروا ما ترون، ولكنهم لم يروه، وأن يسمعوا ما تسمعون ولم يسمعوه».

وأشار عيسى المسيح بصورة غير مباشرة، إلى أن الحواريين يجب أن يعرفوا معنى هذا المثل، ثم أعطاهم التفسير الذي أصبح مشهوراً في ما بعد، فقال لهم: عندما يبذر المزارع الحبوب... تشبه البذرة التي سقطت على الطريق، هؤلاء الذين يسمعون الكلمة ولا يفهمونها، ويخطفها إبليس منهم في الحال. وتشبه البذرة التي تسقط على الأرض الصخرية الإنسان الذي يسمع الكلمة، ويستقبلها بفرح، ولكنه يستسلم، عندما تحل عليه المشاكل أو يُضطهد بسببها. وتمثل البذرة التي سقطت بين الأشواك هؤلاء الذين يسمعون، ولكن هموم الحياة ومتَعَها وفتنة الغنى تبعدهم عنها. وتمثّل البذرة في

التربة الطيبة هؤلاء الذين يسمعون ويقبلون ويفهمون الكلمة ويثمرون محصولاً جيداً: ثلاثين أو ستِّين أو مئة ضعفٍ أكثر مما بذره المزارع».

ألقى عيسى المسيح تعاليمه كلها على الجموع التي كانت تأتي وتذهب في ذلك اليوم عن طريق الأمثال، وكلما كان وحيداً مع الحواريين كان يشرح لهم معانيها. وعندما حل المساء كان منهكاً، وبدلاً من أن يذهب إلى البيت، أخبرهم بأنهم سيعبرون إلى الجانب الآخر من البحيرة على بُعدِ ستَّة أميال. جهَّز بطرس ويوحنا سفينة كبيرة، وعندما صعدوا إليها، وضع يوحنا المجذاف ووقف جاهزاً للإبحار. وذهب عيسى المسيح إلى مكان النوم تحت مجذاف الدفة واستغرق في نوم عميق. واختفت التجاعيد عن وجهه في الحال، كما لاحظ يوحنا على ضوء المصباح الموجود في الجزء الخلفي من السفينة، وكان نائماً بوداعة!

أخذ الصيادون من بين الحواريين المجاذيف وجذفوا أول نصف ميل، ثم رفع بطرس الشراع ليمسك بنسيم البحر اللطيف. وخيَّم الليل واستطاعوا الإبحار باتجاه الأنوار الخافتة على الشاطئ الشرقي من البحيرة. انقضت الساعة الأولى بهدوء، ووصلوا إلى منتصف البحيرة. وفجأة وبدون إنذار، هبَّت رياح جنوبية شديدة ماطرة من وادي الأردن، فسحب بطرس الشراع من أجل الخروج من العاصفة، وبذل يوحنا كل جهده على ذراع الدفة، وقد أضحكته مظاهر الذعر التي أبداها سكان البر، أمثال الإسخريوطي وسمعان الغيور السابق أو المناضل من أجل الحرية. وكانت الرياح الشديدة المفاجئة سمة لبحر الجليل المحصور في أسفل الجبال المحيطة به.

وبعد مرور بضع دقائق، شعر يوحنا نفسه بالخوف. فلم يعرف من قبلُ مثل هذه العاصفة. فقد صخب البحر وانهمر المطر كالشلال، وتقلبت السفينة مثل قطعة من الفلين، وتكسَّرت عليهم الموجة تلو الموجة، وأصاب البلل أجسامهم، وامتلأ داخل السفينة بالماء. وثبت يوحنا ذراع الدفة الذي لم يعد صالحاً وانضم إلى الآخرين. وكانت تتبع العاصفة دائماً أمواج كبيرة تستمر لعدة ساعات، قد تمنعهم من الوصول إلى البر، ولذلك فقد حذر يوحنا من وقوع كارثة. ومن المحتمل أن يغرقوا، وهو المصير الغالب للسفن في الأزمنة القديمة. ولن يتطلب الأمر سوى بضع ضربات من الأمواج الضخمة وتتكسر أخشاب السفينة، وتكون كل محاولاتهم لنضح المياه بلا فائدة. ولم تظهر العاصفة أية علامة على خفة حدتها، وهبت رياح شديدة عاتية، ظهرت لملاّح مثل يوحنا أنها شريرة وعنيفة، وكأن قوة غير طبيعية قد خططت لتدميرهم.

وفي خضم هذا الرعب الذي أصابهم، لم يتذكر أحد عيسى المسيح. وحاول عدد منهم الوصول إلى مؤخرة السفينة، وأصابتهم الدهشة عندما شاهدوه مستلقياً مبللاً ومستغرقاً في النوم، كما لو كان في سرير على الشاطئ في ليلة صيفية هادئة. هزوه وأيقظوه قائلين: يا معلم، يا معلم، سوف نغرق!

وصرخ واحد منهم: «سنهلك لا محالة!».

وقف عيسى المسيح وواجه الريح، ولم يثبت نفسه بإمساك حبل أو لوح خشب. تكلم بحدة إلى الطبيعة، بصوت يشبه الصوت الذي استعمله مع الشيطان في الكنيس: «اهدأ!» قال للريح. «اسكن!» قال للموج.

وفي اللحظات التالية لم يصدِّق الحواريون حواسَّهم، فلقد سكنت الريح والأمواج في الحال ، ولم يسمع سوى صوت الماء المتدفق بلطف من على ظهر السفينة. ودهش البحارة الذين كانوا بينهم، لأن الأمواج قد اختفت تماماً من العاصفة، وأصبحوا يبحرون في بحر هادئ.

التفت عيسى المسيح إلى الحواريين وقد اتسخت ثيابهم وتبللت أجسامهم، وسألهم: «لماذا أنتم خائفون؟ هل لا تزالون بدون إيمان؟».

ورجع إلى النوم، وفكوا الدفة، وابتدأوا بنضح المياه وهم يشعرون بالخوف من سلطته على الطبيعة. وسأل بعضهم بعضاً: «مَنْ يكون هذا حتى يأمر الريح والأمواج فتطيعه؟».

كان لديهم متسع من الوقت للتفكير. وجعل الهدوء العظيم بعد العاصفة الشراع بلا فائدة، وكان عليهم أن يعملوا بالمجذافين، كما ولو كان ذلك كعمل توبة بسبب عدم إيمانهم، بينما أنهى عيسى المسيح نومه. وبعد أن جذفوا لمدة نصف ساعة تقريباً، سلَّم بطرس مجذافه إلى أحد سكان البر، وألقى بشبكة لاصطياد السمك للإفطار. وعند بزوغ الفجر كانت الريح قد أبعدتهم عن مسارهم. استيقظ عيسى المسيح وطلب منهم أن يتجهوا إلى الشاطئ، حيث يستطيعون إشعال النار وشيّ السمك الذي اصطاده بطرس.

وكانت التلال المليئة بالكهوف قريبة جداً من شاطئ البحيرة. وبينما كان القارب يقترب من اليابسة، أدركوا أن القرية الموجودة في أعلى التل، يقطنها سكان من غير اليهود، لأنهم رأوا قطيعاً كبيراً من الخنازير على سفح التل، وكان يحرم على اليهود تربية الخنازير. وكان رعاة الخنازير قد أشعلوا ناراً لطهي الطعام. قاد يوحنا القارب إلى خليج صغير له شاطئ ضيق، ووضع بطرس القارب إلى جانب الشاطئ، وصعدوا جميعاً عبر المياه الضحلة التي كانت تصل إلى كواحلهم فقط. وبدأ يوحنا يفكر بما سيفعله عيسى المسيح بعد تناول الطعام. وقبل أن يسأله عن ذلك، مزَّقت سكونَ الصباح الباكر صرخةٌ مخيفة، وظهر رجل ضخم عارٍ من أحد الكهوف القريبة، التي يحتمل أنها كانت تحتوي على قبر، وركض الرجل باتجاههم إلى أسفل السفح، وكان يصرخ ويقفز فوق الصخور. وكان شعره طويلاً وكثاً، والجراح تملأ ذراعيه وساقيه وصدره،ويمسك بحجر حاد من الصوان في يده. ولم يعرفوا إذا كان قد استخدم هذا الحجر لجرح نفسه، أم أنه سيستخدمه لمهاجمتهم.

بقي عيسى المسيح في مكانه، وصرخ قائلاً بصوت صارم وقوي: اخرجي من هذا الرجل أيها الروح الشريرة». وركض الرجل مباشرة إليه، ثم توقف بلا حراك، ورمى بنفسه عند قدميه، وصرخ بصوت غريب يستطيع إيقاظ الموتى: «ما لي ولك يا عيسى المسيح، ابن الله العلي؟».

أمسك بطرس بذراع يوحنا، فقد عرف هذا المخلوق اسم عيسى المسيح وخاطبه بطريقة لم يجرؤ أيٌّ منهما على القيام بها، مهما كانت معتقداته واتجاهاته الشخصية. وكان عارياً وقوياً مثل شمشون، ويظهر منظره أكثر إثارة للرعب عن قرب، لأن قيوداً حديدية تتدلى منها سلسلة حديدية مكسورة، كانت تقبض على رسغيه. وكانت كاحلاه مجروحتين وداميتين كما لو أنه حطم الحديد أو نزعه عنهما. وانتشرت الجروح وبقع الدم على صدره القوي، وتجعَّد شعر جسمه وحملقت عيناه بصورة مرعبة.

صرخ ثانية: «ما لي ولك؟».

أجاب عيسى بصوت ثابت وصارم: «ما اسمك؟» وصرخ الرجل الممسوس مجيباً رغم أن عيسى المسيح كان يقف على بعد قدم واحد فقط منه: «اسمي فيلق لأنه يوجد الكثير منا».

الفا شيطان كانت تسكن هذا الرجل وتتحدى عيسى المسيح. قفزة واحدة يمكن أن تسحقه تحت جذع قوي، بينما يستطيع الحجر والقيود الحديدية تكسير رأسه وإخراج دماغه. لقد هزم الريح والأمواج،وهو الآن تحت رحمة رجل ممسوس. وارتد الحواريون إلى الخلف عندما فكروا بالشر والمواجهة.

تقدم بطرس خطوة إلى الأمام، وكان يكثرهم قوة. فأشار إليه عيسى المسيح أن يقف بدون حراك، ونظر مباشرة إلى الرجل وتكلم بنبرة لا تُنسى، مزجت بين القوة والشفقة قائلاً: «أيتها الشياطين ! اخرجي من هذا الرجل!».

وكانت النتيجة مذهلة. تكلمت الشياطين مرة ثانية، وكانت أهدأ قليلاً، ولكن بصوت عال: «احلف بالله بأنك لن تعذبنا! لا تنفينا!» ومرة تلو المرة توسلت الشياطين بأن لا تُطرد. وأخيراً قالت: «أرسِلْنا إلى الخنازير، ودَعْنا ندخل الخنازير». وكان لصوت الرجل النبرة المميزة لرجل مسكون.

وكان قطيع الخنازير الكبير يرعى على الأرض العشبية الطرية التي تقع أعلى الخليج قليلاً، بينما كان رعاة الخنازير ينظرون إلى عيسى المسيح وهو في الأسفل، ولم يغامروا بالاقتراب من الرجل الممسوس الذي كان يكسر سلاسله دائماً عندما كانوا يأسرونه.

صرخ الفيلق: «دَعْنا ندخل في الخنازير».

قال عيسى المسيح شيئاً ما، فبدأ القطيع يتحرك، وركض ألفان من الخنازير باتجاه البحر، وأسرع القطيع إلى مكان فوق صخرة منخفضة على ارتفاع عشرين قدماً وقفز في البحر، فغرق في المياه العميقة التي امتدت أسفل سفح التل. وهرب رعاة الخنازير.

وقف الحواريون فزعين. لم يروا في حياتهم أبداً مشهداً أكثر عبرة حول قيمة حياة الإنسان. وتذكروا عندما قال لهم: إنهم أكثر قيمة من عصافير كثيرة، وإنه لا يسقط عصفور واحد على الأرض دون إرادة الآب السماوي. عرف عيسى المسيح ماذا كان يفعل. فإذا كان قد سبَّب الدمار لأصحاب الخنازير وحطَّم مصدر عيش الرعاة، فإنه قد أنقذ صواب رجل.

استطاع يوحنا أن يرى الفيلق (مهما كان اسمه الحقيقي) قد أصبح مختلفاً تماماً. فقد كان ينظر إلى عيسى المسيح بابتسام. ثم أدرك فجأة أنه عارٍ وقد أبدى حرجاً كبيراً. فركض بطرس إلى القارب وأحضر رداء احتياطياً كان لا يزال رطباً، ولكنه سيجف في أشعة الشمس. ولبس الفيلق الرداء بامتنان، وساعدهم في جمع عيدان لإشعال النار. وأسرع القرويون إلى أسفل التل بعد أن عرفوا بقصة رعاة الخنازير المؤثرة، وركضوا باتجاه البلدة التي كانت بعيدة عن الأنظار بين التلال العالية. وقبل أن ينتهي عيسى المسيح والحواريون والفيلق معهم من أكل السمك، رأوا سحابة من الغبار على الطريق المؤدية إلى البلدة، فقد كانت مجموعة كبيرة من راكبي الحمير تسير نحو الخليج، ووصل في الحال صاحب الخنازير وجيرانه والمسئولون المحليون في البلدة.

صرخوا على يسوع: «اذهب من هنا، اذهب بعيداً من فضلك».

لم يظهر عليهم الغضب أو الحسرة على خسارتهم لخنازيرهم، ولكنهم أصيبوا بالرعب عند مشاهدة الرجل، الذي كان في الماضي عرياناً، ولا يمكن أن يكون أليفاً، مرتدياً الملابس بحشمة، ويجلس على الأرض إلى جانب عيسى المسيح. توسلوا إليه قائلين: «اذهب! اذهب! بعيداً!». لم يحاول عيسى المسيح إقناعهم. وكان يبدو أنه لا يرغب في فرض نفسه عليهم، إذا لم تكن هناك حاجة إلى وجوده. وقف وأشار إلى الحواريين واتجهوا إلى القارب.

أصيب الفيلق بذهول، وركض وراء عيسى المسيح: «أريد أن أذهب أنا أيضاً. أرجوك أن تدعني أبقى معك دائماً». كان يمكن أن يصبح وفياً بصورة غير عادية، تلميذاً من غير اليهود قبل الأوان، وبحاجة إلى فَهْمٍ صبور عندما يعيد بناء حياته في الجهة الأخرى من البحيرة بعيداً عن بيته.

نظر عيسى المسيح إليه بلطف وقال: «لا، لا تستطيع أن تأتي معي. عُدْ إلى بيتك. فَتِّشْ عن عائلتك وَأَخبِرْهم كم صنع الربُّ لك، ومقدار رحمته عليك». وكانت نبرات صوته في هذه المرة تختلف عن النبرات الصارمة القوية التي استعملها عندما ظهر الفيلق لأول مرة.

رد الفيلق عليه بالابتسام، وأخذ يفكر ببيته وعائلته، وبالقصة التي سيرويها لهم وتثير دهشتهم. وجلس عيسى المسيح في مؤخرة السفينة. وكان الحواريون يبحرون بعيداً عن الشاطئ، بينما وقف الفيلق مرتدياً ثياب بطرس الإضافية، يلوح لهم بيديه، وقد وقف الجيران خلفه، إلى أن أصبح هيكله الضخم صغيراً، ولم يعد بالإمكان مشاهدة تلويحه لهم.

مفارقة في الشفقة:

قرر عيسى المسيح اصطحاب الحواريين في الأسابيع الأخيرة من فصل الصيف إلى تلال منطقة الجليل. وسيكون الطقس هناك لطيفاً والجموع قليلة، ويستطيع أن يقوم هناك بإعدادهم للمستقبل أثناء تنقُّلهم بين القرى، قبل أن يذهبوا جميعاً إلى القدس. وكان مواطنو كفرناحوم والبلدات المجاورة لبحر الجليل يتصرَّفون كما لو أنه لم يأت إليهم قط. احضروا إليه مرضاهم واستمعوا إلى كلامه، ولكن القسم الأكبر منهم لم يشعر بالتوبة.

وقبل أن ينطلق عيسى المسيح إلى هذا المكان، دُعي إلى تناول الغداء في بيت فريسيٍّ اسمه سمعان، أحد الذين طلبوا بشكل علني أن يُمنع من التعليم في الكنيس. وبدت مثل هذه الدعوة غريبة، حتى وصل إلى فناء البيت مع بطرس ويوحنا، وهناك شعر بعدم الاحترام، عندما رفض سمعان تقبيله عند الترحيب به، ولم يحضر الخدم وعاء الماء الذي يقدم عادة لغسل الأقدام من غبار الطريق، ولم توضع على رأسه نقطة من الزيت العطري عندما كشف عنه.

تظاهر عيسى المسيح بأنه لم يلحظ ذلك، رغم أن يوحنا قد شاهد بريقاً في عينيه عندما انضم إلى الضيوف الجالسين إلى المائدة. وقادوه إلى الأريكة بجانب مضيفه الذي لم يجلسه على الأقل في أسفل موضع. وأكل الطعام الذي أحضر له وأنصت إلى سمعان الذي أخبره بأنه يصوم مرتين في الأسبوع ويؤدي العشر عن جميع ممتلكاته وأنه رجل فاضل.

وعند ذلك، دخلت امرأة من ساحة البيت وهي تحمل قارورة صغيرة، ووقفت خلف عيسى المسيح وهو على الأريكة وحدقت به. كانت المرأة جميلة وترتدي ملابس داكنة، وبينما كانت تنظر إلى عيسى المسيح بدأت تبكي. ثم ركعت وغسلت بدموعها قدميه العاريتين، ثم حلَّت شعرها وجفَّفت قدميه بخصل شعرها، وقبَّلتهما بشكل متكرر. لا شك أن لهذه المرأة تجربة طويلة مع الرجال، وكانت أعمالها غير مثيرة للعواطف رغم مفاتنها، لدرجة أن يوحنا أخذ يتذكَّر تحذير عيسى المسيح بأن النظرة الشهوانية تعادل فعل الزنا. ولكن المرأة لم تقم بحركات إغرائية، ومن الواضح أنها قد طوت صفحة ماضيها.

كسرت فجأة عنق القارورة الصغيرة، وسكبت محتوياتها على قدمَيْ عيسى المسيح، فامتلأت الغرفة بشذا العطر. وسواء أكان العطر مقدَّماً لها من عشيق أو اشترته لاستخدامه لفنونها، فإنها قد سكبته باحترام.

لم يتحرك عيسى المسيح، ولكنه كان ينظر إليها بشفقة وعطف دون انفعال، ولم يشجبها أو يتراجع. واعترى سمعان امتعاضٌ شديد من ذلك. وكشفت نظرته الساخرة عما يفكر به: إن هذا الرجل ليس نبياً وإلا لكان قد اكتشف في الحال بأن هذه المرأة عاهرة.

التفت عيسى المسيح إليه وقال: «يا سمعان. أريد أن أقول لك شيئاً». «ما هو، يا معلم؟».

»كان لدائن مدينان، واحد مدين له بخمسمائة والآخر بخمسين. ولم يكن معهما ما يسدِّدان به الدَّين. فألغى ديونهما. فأيهما سيحبه أكثر؟» أجاب سمعان بلهجة حاقدة تقريباً: «افترض أن الذي ألغى دَينه الأكبر».

»لقد أجبت بالصواب، والآن اسمع». ثم قارن عيسى المسيح أمام الجمع زلات سمعان في الضيافة مع ما عملته المرأة: إنها غسلت قدميه، وقبّلتهما ودهنتهما بالطيب «لذلك أقول لك إن خطاياها قد غفرت لها، لأنها أحبت كثيراً، والشخص الذي يغفر له قليلاً يحب قليلاً».

والتفت إلى المرأة وقال: «غفرت لك خطاياك».

وتمتم الضيوف بغضب قائلين: «من يفكر بأنه هو حتى يغفر الخطايا؟» فتجاهلهم وقال للمرأة: «إيمانك قد خلصك، اذهبي بسلام».

وفي اليوم التالي سار يوحنا في التلال مع عيسى المسيح والحواريين. وخلال تنقُّلهم من قرية إلى أخرى، أظهر عيسى المسيح موهبته المدهشة في الكلام، حتى تمكن الفقراء والأغنياء والبسطاء والحكماء من فَهْمه. وكانت لديه كما ظهر من الأمثال التي ذكرها، قوة ملاحظة كبيرة. لقد استطاع توضيح كلامه بقصص عن الخراف وزراعة القمح والكروم وأشجار التين. وكانت لديه فكرة صائبة عن التجارة، بحيث استطاع أن يتحدَّث عن أمانة الوكلاء وخيانتهم، والدائنين والعشَّارين. وقارن بين تصرفات الأغنياء والفقراء. واستطاع أن يصف الكتبة بأرديتهم الواسعة والقضاة والملوك، واللصوص الذين يسرقون في الليل وقطاع الطرق. واستعان بصور كلامية وتعليقات عميقة، واستطاع أن يظهر الحق بوضوح، وأن يسبر الأغوار، وأن يحضر السماء إلى بصيرة مستمعيه. وأظهر شفقة وحزناً عميقَيْن، عند رؤية الرجال والنساء يائسين وهائمين ومضطهدين، ودعته فطرته إلى تقديم التعزية والغوث لهم.

وظهرت هذه الأمور بشكل ينبض بالحياة من خلال حادثة غير متوقعة قرب بلدة تدعى نائين. إذ كان هنالك جمهور يتبعه من القرى التي زارها مؤخراً. وقد اقترب عيسى المسيح والحواريون من بوابة البلدة، وفي الوقت الذي كان فيها جمهور كبير مثل الذي يتبعه يخرج منها. وكان بينهم أربعة رجال يحملون ميتاً. كانوا يبكون، وإلى جانبهم امرأة تبكي أكثر منهم. والتقى الجمعان. وعندما رأى عيسى المسيح المرأة، ظهرت على وجهه رعشة ألم، وقال لها: «لا تبكي!» التفتت إليه ثم سار معها.

وشرح له أهل البلدة بأنها أرملة، وأن الميت المحمول هو ابنها وسندها الوحيد، وكانت تحبه وتعتمد عليه، وقد توفي في ذلك الصباح. وكانت مراسم الدفن تجري دائماً في اليوم نفسه، ولكنها لم تتحمل أن تراه يذهب، ورفضت السماح لهم بتغطية وجهه قبل أن يصلوا إلى القبر. خرجت معها البلدة كلها تقريباً شفقة عليها.

واقترب عيسى المسيح من النعش، فتوقف حاملوه، ثم قال: «أيها الشاب أقول لك قُمْ!».

استوى الشاب في الحال وبدأ يتكلم. والتفت عيسى المسيح إلى الأم وسلم الشاب إليها بطريقة أوحت وكأنه قد عاد من الأسر أو العبودية.

نظر يوحنا ويعقوب وبطرس مندهشين. كان قد أقام من الموت قبل بضعة أسابيع ابنة يايروس رئيس كنيس كفرناحوم. كانت تلك الحادثة سرِّية وفي غرفة مظلمة. ولكن هذه الحادثة جرت علناً، فأصيب الناس بالخوف. لم يصرخوا أو يضحكوا من الفرح، وإنما وقفوا وأنشدوا التسبيح. وعبّر كبير البلدة عن مشاعرهم، وقال: «لقد قام فينا نبي عظيم». وردد شاب الرجعة قائلاً: «وتفقد الله شعبه».

وردد يوحنا وبطرس والحواريون الآخرون هذه الكلمات أيضاً. ورغم أن عيسى المسيح قد تحدث كثيراً عن الملكوت، إلا أنه لم يشرح لهم بعد ما إذا كان سيقيم هذا الملكوت قريباً بطرد الرومان، بمساعدة حشد من أتباعه الكثيرين أو بمعونة فائقة الطبيعة، أو أن هذا الملكوت سيكون في المستقبل البعيد. تكلم مع الحواريين كما لو أن تاريخهم سيصل قمته في شخصه هو. وبدا في بعض الأحيان أنه حقيقة هو المسيح الذي أخبرت عنه نبوءات العصور القديمة، سوف يدين ويطهّر. وكان في أحيان أخرى يبدو مختلفاً لدرجة محيرة، ووديعاً جداً ومستعداً لتحمل العذاب والألم.

لم يستطع يوحنا معرفة الإجابة. ولكن العديد من الأحداث في الأشهر التالية التي امتدت من الخريف إلى الربيع ستلقي الكثير من الضوء، كما سيظهر في الأشهر الاثني عشر القادمة. وستكون الحقيقة أكثر هولاً ومجداً من أي شيء كان يوحنا يفكر فيه.

لا عودة:

كانت الجموع تتزاحم حول عيسى المسيح وهو يكرز خارج بلدة فوق التلال في الجليل. احضروا له المرضى والمقعدين والمتألمين، وقام الحواريون بالاهتمام والعناية بهم.

لاحظ يوحنا وجود رجلين وسط الجمع، وقد اتّسخت ثيابهما الخشنة من السفر، وظهر من خلالها وملامح النسك البادية على وجهيهما أنهما من تلاميذ النبي يحيى. توقف عيسى المسيح عمّا كان يفعله في الحال، وسأل عن أخبار معلّمه القديم الذي كان يتألم في زنزانة في حصن هيرودس المظلم في «مكاروس» في البرية وراء البحر الميت. فأجاب المراسلان بأن هيرودس يستجوب يوحنا وينصت إليه عندما يكون في الحصن، وهو يشعر بالخوف منه، إلا أنه لم يطلق سراحه ولم يُحِلْه إلى المحاكمة.

لم يظهر الرجلان رغبة في الحديث. قالا إنهما يجب أن يتحدثا حالاً إلى عيسى المسيح على انفراد، لأن معلّمهما قد سمع عن أعماله، ويريد أن يسأل سؤالاً واحداً. وسارا مع يوحنا عبر الجمع المتزاحم حتى وصلا إليه.

قالا له: «يا سيد، لقد أرسلنا النبي يحيى لكي نسألك. هل أنت الآتي أم ننتظر آخر؟».

وشعر عيسى المسيح بوخزة أسف لشكوك النبي يحيى، إلا أنه لم يُظهر ذلك. ولم يُجِبْ أيضاً عن سؤالهما. كما سألاه: لماذا لم يَقُمْ بالصيام ويرفض شرب الخمر والمسكر؟ فأجابهما بصورة رمزية: لا أحد يبكي أو يصوم عندما يكون العريس حاضراً، رغم أنهم سيفعلون ذلك بعد ذهابه.

ورجع هذه المرة إلى عمله بهدوء، وتحت نظر تلميذي النبي يحيى، تفتحت أعين العميان ومشى المقعدون، ورجع الذين كانوا في قبضة الجنون أو الصرع أو الأرواح الشريرة إلى حالتهم الطبيعية، وتم شفاء البرص الذين لم يقدروا أن يختلطوا بالجموع. وقد شفى المئات من المرضى الذين لم تدوَّن قصصهم ،ولكان فعل أكثر لو طلب منه ذلك.

لقد ترك المجال لرسولي النبي يحيى لجمع الأدلة بأنفسهما، والاستماع إلى شهادات عن حوادث أخرى، ثم قال لهما أن يرجعا ويخبرا النبي يحيى، ويستشهدا بنبوءة إشعياء عما سيحدث عندما يأتي المسيح: «العميان يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصم يسمعون،والموتى يقومون، ويبشَّر الفقراء بالأخبار السارة». وأضاف: «طوبى لمن لا يشكُّ بي».

وعندما غادر رسولا النبي يحيى، أشاد عيسى المسيح به كنبي فهو الذي أعلن عن مجيء الذي سيجعل الناس على استعداد للملكوت. وقال لهما: «لم يولد أحد أعظم من يحيى، ولكن الأصغر في ملكوت السموات هو أعظم منه». ولم يساور الجمهور الذي جلس صاغياً مسروراً على الأرض تحت حرارة الشمس، بأن عهداً جديداً قد بدأ.

وعبّر عيسى المسيح أثناء عظته الطويلة بعد ظهر ذلك اليوم عن أسفه، لأن سكان كفرناحوم والمدن الموجودة عند البحيرة، والفريسيين والكتبة والمتديّنين، لم يرجعوا عن خطاياهم. ولو كانت معجزاته قد حدثت في مدن غير يهودية، أو حتى في سدوم القديمة التي دمرت لأنها كانت مثالاً للشر، لنَدِمَ مواطنو تلك المدن وخلصوا من الدينونة. ونظر عيسى المسيح أثناء خطبته إلى جمهور المستمعين المتواضعين من سكان الريف البسطاء، ورفع يديه مصلياً: «أحمدك يا أبي، رب السماوات والأرض، لأنك أخفيت هذه الأشياء عن الحكماء والبلغاء وكشفتها للأطفال الصغار».

أمّا قمة عظته التي سوف يتم ترديدها والتفكير فيها والإعجاب بها من قبل الإنسانية جمعاء عبر الأجيال القادمة، فهي القصة التالية: رأى عيسى المسيح عربة يجرها ثوران مقيَّدان بنير، وتوقف السائق وجلس ليسمع. كان أحد الثورين صغيراً والآخر قوياً ومجرَّباً. كان الحمل ثقيلاً ولكنهما كانا يعرفان بأنه عندما تتحرك العربة، سيجد الثور الصغير بأن الثور الأكبر قد بذل الجهد الأكبر في الطريق.

صرخ يسوع: «تعالوا إليَّ أيها المتعبون وثقيلي الأحمال، فأنا أريحكم. خذوا نيري وتعلّموا مني، فأنا الوديع المتواضع القلب وسوف تجدون الراحة لنفوسكم لدي، لأن نيري سهل وحملي خفيف». ولقد عبّرت هذه الكلمات ليوحنا والمقربين إليه عن صميم قلبه.

وبعد ذلك مباشرة، أخذ الحواريين إلى القدس لحضور أحد الاحتفالات العظيمة. وذهب يوم السبت إلى بركة بيت حسدا، وهي حوض أو بركة قديمة ذات خمسة أروقة معمّدة خارج أسوار المدينة، بالقرب من بوابة الخراف، حيث كانت تدخل القطعان التي تقدم للتضحية لتساق من أعلى المنحدر إلى منطقة بنايات الهيكل العظيم، الذي كان يرتفع عن البركة. وكما كانت عادته، فتش عن المتألمين. وقد جذبت بركة بيت حسدا المقعدين والعميان والمرضى الذين اعتقدوا بأن أول مَنْ يدخل البركة بعد تحريك الماء فيها سوف يناله الشفاء، وكانت مياه البركة تتحرك على فترات. وكان يرافق معظم المرضى أصدقاؤهم أو أقاربهم ليكونوا على استعداد لمدِّ يد العون لهم.

لم يكن عيسى المسيح معروفاً من خلال مظهره الخارجي. سار في الأروقة ولم يطلب أحد مساعدته. وفجأة تحركت المياه في البركة، فحدث ضجيج وتقاتل المرافقون لإدخال مرضاهم إليها. راقب عيسى المسيح رجلاً هزيلاً في منتصف عمره وهو يحاول بيأس الوصول زاحفاً إلى الماء، كما يحاول القفز بمجهوده الشخصي بدون مساعدة. وكان بعد كل محاولة يعود ويجر نفسه بحزن راجعاً إلى فراشه. اقترب عيسى المسيح منه. كان الرجل مقعداً منذ 38 عاماً، رغم أن يوحنا في سرده للحادثة لم يذكر كم انتظر الرجل على البركة.

سأله عيسى المسيح: «هل تريد الشفاء؟».

أجاب الرجل بيأس: «لا أحد يساعدني للوصول إلى البركة عندما تتحرك المياه. وعندما أحاول فإن شخصاً آخر يصل قبلي».

قال عيسى: «قم! احمل سريرك! وامش!».

لم يطلب الرجل مساعدة ،ولم يُظهر إيماناً، ولكنه استجاب حالاً لأمر الرجل الغريب. وعند أول حركة له، اختفى الضعف والشلل، واسترجع قوته وأخذ سريره ومشى بعيداً عن البركة دون كلمة شكر.

لم يلحظ ذلك أي من المرضى أو المرافقين المشغولين بانتظار حركة الماء التالية في البركة. وابتعد عيسى المسيح، وتبعه يوحنا وبطرس. وعندما كانوا سائرين في الشارع، لمح يوحنا بطرف عينه الرجل مع فراشه. لقد أوقفه الفريسيون الذين كانوا يشيرون إلى الفراش الذي يحمله في يوم سبت.

والتقوا به مرة ثانية بعد ساعة في بنايات الهيكل. وربما كان هذا الرجل قد جاء لتقديم الشكر لشفائه. عرف عيسى المسيح أن مرض الـ 38 عاماً كان نتيجة الخطيئة، وربما الزنى، فحذّره وأمره أن يترك الخطيئة وإلا فسيحدث له الأسوأ. ولم يتقبل الرجل التحذير عن طيبة خاطر بل أسرع ذاهباً. وبعد وقت قصير قدمت إلى عيسى المسيح جماعة من الفريسيين، يتهمونه بتحريض الناس على عدم احترام يوم السبت. لقد أوقفوا واحداً وهو يحمل فراشاً، وقالوا له إن هذا الرجل قد أشار إلى الشخص الذي جعله يحمل فراشه. وكان بينهم عدد من الرجال الذين تحرّوا عن عيسى المسيح في الجليل، ورأوه يشفي اليد الضامرة في الكنيس يوم السبت.

وجرت في الحال محاكمة غير رسمية في بنايات الهيكل، تحت أحد الأروقة حيث كانت تعقد المناقشات. وكان يمكن أن تؤدي هذه المحاكمة إلى اتهام رسمي: وهكذا تعرض عيسى المسيح مرة ثانية لخطر الموت، بواسطة محاكمة قضائية، نتيجة لشفاء هذا الرجل.

وقف يوحنا بجانبه مندهشاً لشجاعته في قبول التحدي. وطالب الذين اتهموه أن يعرفوا لماذا عمل يوم السبت. فأجابهم بكلمات جعلتهم يتأكدون بأنه قد قال إنه قد أصبح مساوياً لله الذي سماه «أبي». وهي عبارة لا يجرؤ يهودي على استعمالها. ودون أن ينكر تفسيرهم أكد علاقته بالله، حتى لم يبق أحد من الحضور يشك في قوله بأن حياته وأعماله أظهرت حياة الله وأعماله. قال بأن له السلطان لكي يعطي الحياة للناس، وأنه المسيح الذي سيكون القاضي الذي يدينهم. وأكد بأنه يجب عليهم إكرامه تماماً مثلما يكرمون الآب. وقال بتأكيد وحزم: «مَنْ يسمع كلامي، ويؤمن بالذي أرسلني، له الحياة الأبدية ولن يدان، وسيعبر من الموت إلى الحياة».

كانت ادعاءاته قوية ولا تقبل حلول الوسط أو التراجع، وهي حقيقة إن لم تكن انحرافاً وتجديفاً أو خداعاً. وبما أن شهادة الإنسان عن نفسه لم تكن صالحة، فقد ذكر كدليل على ذلك أقوال النبي يحيى عنه، إضافة إلى شهادات الذين رأوا معجزات الشفاء، والحياة التي لم يحققها أحد من قبل. كما تكلم الله الآب بنفسه شاهداً عنه، رغم أن الذين يتهمونه، لم يسمعوا صوته أو يروا شكله.

وتابع حديثه قائلاً: «إنكم تبحثون في الكتب المقدسة، لأنكم تعتقدون أن الحياة الأبدية فيها لكم. ثم صرخ قائلاً: «إنها تشهد لي». وفجأة امتلأت عيناه بالشفقة على الذين يتهمونه لجهلهم وعماهم: «إنهم يشهدون علي، لكنهم يرفضون أن يأتوا إليَّ لتكون لهم الحياة».

قال: «أنا لا أقبل مديح الناس، ولكني أعرفكم. ليس في قلوبكم محبة لله، لقد أتيت باسم أبي وأنتم ترفضونني، ولكن إذا أتى أحد باسمه فإنكم سوف تقبلونه. أنتم تقبلون المديح من بعضكم بعضاً، ولكنكم لا تحاولون الحصول على المديح الذي يأتي من الله الواحد».

وفي هذه المرحلة كان قد رد عليهم اتهاماتهم: «لا تظنوا أني سوف أتهمكم إلى الآب! إن الذي سيتهمكم هو موسى الذي علّقتم عليه الآمال. إذا كنتم تؤمنون بموسى، يجب أن تؤمنوا بي، لأنه كتب عني. ولما أنكم لا تؤمنون بما كُتب، فكيف ستؤمنون بما أقوله؟».

لم يستطيعوا الإجابة، وتركوه يمضي. ولكنه وقع بهذا على الحكم عليه بالموت مهما طال أمر تنفيذه.

لكي يصبح ملكاً:

رجع عيسى المسيح مع الحواريين إلى الجليل عبر الطريق الساحلي، وليس عن طريق السامرة التي تجنبها اليهود عند سفرهم في أوقات الاحتفالات. وتوجهوا من ثم إلى الشمال، وساروا في الطريق الجنوبية الكبرى التي أنشأها الرومان، وداروا فيها عبر التلال. كان عيسى المسيح يتجه نحو الناصرة التي لم يزرها منذ فترة، بعد أن رُفض فيها ونجا من محاولة قتله، وذلك قبل أن يدعو يوحنا والآخرين إلى إتباعه.

مشى يوحنا طوال الرحلة وهو معجب برد عيسى المسيح على قادة اليهود الذين قدموه للمحاكمة، وبالخطبة التي عبّر فيها عن امتلاكه السلطة دون تواضع أو مبالغة. ولم يستطع يوحنا وبطرس ولا الآخرون أن يزعموا ويقرّوا علناً أن هذا الرجل الذي يسير إلى جانبهم ويشبههم كثيراً رغم اختلافه عنهم، هو ابن الله.

في يوم من أيام الخريف الضبابية الماطرة، تركوا الطريق الكبرى بالقرب من صفورية، وساروا بضعة أميال إلى الناصرة، حيث رحبت بهم مريم ترحيباً حاراً. وكان يعقوب ابن خالته حذراً جداً، لأن الأحداث غير العادية، والقصص التي أحاطت به خلال العشرين شهراً الماضية، لم تكن واضحة ومعروفة لدى بقية أفراد العائلة. وذهب الجميع إلى الكنيس في يوم السبت. وكان قرار المنع الذي أصدره زعماء كفرناحوم، لم ينفذ في مكان آخر، فدُعي عيسى المسيح من أجل أن يعلّم.

كان أهل المدينة أقل استجابة عن السابق، فقد قالوا باستهزاء: «أليس هذا ابن النجار؟» لم يكن لديهم أي شيء ضده، ونظروا إليه كما عرفوه في الماضي، شاباً محلياً تربطهم به علاقة الجوار. تذكروا أيام شبابه بعطف ومحبة وإعجاب، لأنه كان عفيفاً، ولم يذهبوا إلى أبعد من ذلك. ولهذا فلم يكن هناك أي أمل في أن يساعده أهل الناصرة في نقل رسالته إلى المناطق الريفية المجاورة أو إلى الجهة الأخرى من البحيرة. وتحدث مع الحواريين على انفراد في بيت مريم، وعبّر عن دهشته لرفض الناصرة الإيمان به. وقد آلمه ذلك، لأن عدم إيمانهم يحبط رغبته في مساعدتهم. بحث عنه رجل أعمى أو اثنان وقليل من المرضى، ونالوا الشفاء. ولكن مدينة الناصرة أدارت ظهرها للرجل الذي سيعطيها مكانة فريدة في تاريخ العالم. ولخص يوحنا ذلك في مقدمة إنجيله التي لا مثيل لها وذلك بمفهوم أوسع عندما قال: «أتى إلى خاصته ولكن خاصته لم تقبله».

لقد رُفض عيسى المسيح في كفرناحوم والقدس والناصرة، ولكن حوارييه لا يزالون معه. لعلهم لم يفهموا تماماً كل شيء، ولكنهم وثقوا به ووثق هو بهم. وعندما أخذهم بعيداً عن بيته لزيارة القرى المجاورة، أخبرهم بأنهم سوف يذهبون قريباً إلى الأماكن المختلفة بمفردهم. ولما كان فصل الشتاء قد اقترب، لن تتمكن الجماهير من الاجتماع في المطر والبرد أو الثلج، ولهذا سيخصص هذا الفصل للاجتماعات الصغيرة.

علّمهم عيسى المسيح ودرّبهم على ما سيقومون به ويتوقعونه في المدى القصير، وخلال السنوات الطويلة الآتية، عندما يذهبون إلى الملوك والحكام، ويتعرضون للضرب في المجامع، ويُرغَمون على الهرب من مدينة إلى أخرى من أجله. وقال لهم المرة تلو المرة: «لا تخافوا فأنا أرسلكم كخراف بين ذئاب. كونوا فطناء كالحيات وودعاء كالحمام». وعليهم الآن الإعلان عن رسالته بعد أن كان قد أخبرهم عنها سراً.

ذهبوا اثنين اثنين، يوحنا مع يعقوب، وبطرس مع أندراوس، وشكّل الآخرون أزواجاً حسب ما رأوه مناسباً. ولم يحملوا معهم ثياباً أو نقوداً أو أي شيء آخر تنفيذاً لتعليماته. وكانوا عندما يصلون إلى بلدة أو قرية يسألون عن الذي يستقبلهم، ويمكثون في بيته، ويقبلون الضيافة مقابل مشاركتهم في العمل. ورفضوا قبول أية مكافأة. تجنبوا المدن غير اليهودية، ولم يدخلوا السامرة، وإنما تجوّلوا في قرى شعبهم، ووعظوا برسالة المسيح: لقد اقترب ملكوت السماوات. وقال لهم إذا تعرضوا للرفض: انفضوا غبار أرجلكم واخلعوا أحذيتكم في طرف البلدة.

قال لهم: «اشفوا المرضى، وأقيموا الأموات، وطهَّروا البرص واطردوا الشياطين». لم يفعل أي من الحواريين مثل هذه الأشياء، رغم أنهم شاهدوه يفعل ذلك غالباً. وشعر يوحنا بأنه لا شيء، إذا كان بعيداً عن عيسى المسيح، وإنما صياد سمك ترك شباكه، ذهب ليقوم بهذه الأعمال وهو يشعر بالقلق. ولدهشته العظيمة فإنه عندما وضع يديه على أول شخص مريض، شعر في الحال بقوة غير طبيعية، كما لو أن عيسى المسيح نفسه كان حاضراً.

ثم أخبر عيسى المسيح الحواريين عن المكان الذي سيلتقون فيه عندما ينتهي الشتاء. وعندما حل يوم اللقاء، كان يوحنا ويعقوب آخر مَن انضمَّ إلى الركب. واستطاعا أن يلمحا بطرس وأندراوس يسيران أعلى التل على مسافة نصف ميل أمامهم. وكان سكان المناطق الريفية في حالة هيجان بسبب الأخبار التي وردت من الأردن والتي تقول بأن هيرودس قد قطع رأس النبي يحيى.

وعرف عيسى المسيح تفاصيل الأحداث الشنيعة لحفلة عيد ميلاد هيرودس التي أدت إلى الإعدام. ورغم أن هيرودس كان يهودياً، إلا أنه احتفل بعيد ميلاده في حصن مكاروس بطريقة وثنية، وأقام مأدبة كبيرة لقادة جيشه والحكام المحليين، وجميع أصحاب السلطة والمناصب العالية في إمارة الربع. وكانت هيروديا زوجته تعلم بأن النبي يحيى مقيَّد بالسلاسل في زنزانة أسفل قاعة الاحتفال. وكانت تكرهه لشجاعته في توبيخها، عندما أغراها هيرودس بالزواج منه وترك زوجها فيليبس الأخ غير الشقيق لهيرودس، فكانت تتحين الفرص لقتله. فأرسلت ابنتها من زوجها فيليبّس لترقص أمام زوج أمها الثمل وضيوفه. ورقصت سالومي بطريقة أعجبت الملك، بحيث أقسم أن يعطيها أي شيء تطلبه. وكانت أمها قد أخبرتها من قبلُ ماذا تطلب. فقالت سالومي: «أريد رأس النبي يحيى على طبق». أصيب هيرودس بالرعب، وكان شعوره الغريب بأن شرف قَسَمه أقدس من العدالة الطبيعية أو من إعجابه بيحيى. ولهذا فقد أسكت سيف قصير وثقيل لأحد الحراس، ذلك الصوت العظيم، وأنهى ذلك التأثير الأخلاقي الكبير والنور المشتعل اللامع.

أصيب أهالي اليهودية والجليل بالصدمة والغضب: لأن النبي يحيى كان صوت الاحياء الوطني. وكان موته بالنسبة إلى عيسى المسيح ويوحنا وبطرس مصدر أسى شخصي عميق.

لم يكن هناك وقت للبكاء أو الذكرى: إن الهزة التي حدثت في الأمة حدثت في الوقت نفسه الذي أحدثت فيه رسالته هزة في الجليل. وقبل أن يُطلع الحواريون عيسى المسيح على أخبارهم، ساروا معاً باتجاه كفرناحوم، وكانت الجموع هناك تطلبه مرة ثانية، وتعتقد بأنه أفضل من جميع الحواريين مجتمعين. وكانت الأيام التالية مكتظة من الصباح إلى الليل، وكانوا يأكلون وجباتهم بسرعة كبيرة وقد لا يتوافر لديهم الوقت أحياناً لتناولها.

قرر عيسى المسيح أن يعطي الحواريين استراحة قصيرة لكي يتحدثوا عن تجاربهم ودروسهم بحرية وارتياح. وفي الصباح الباكر لأحد الأيام قبل أن تصحو البلدة زحفوا جميعاً إلى الشاطئ، سعداء بالطريقة التي هربوا فيها من الجموع، ثم صعدوا في قارب بطرس.

جاءت أمطار الربيع المتقطعة، وتساقط المطر معظم الليل، وكانت تفصلهم عن عيد الفصح عشرة أيام. كان النهار رائعاً رغم أن الضباب قد تصاعد من ماء البحيرة. جلس عيسى المسيح في مؤخرة السفينة على ذراع الدفة. ولما خفّت حدة الريح، بدأ الحواريون بالتجذيف. اقترح عيسى المسيح أن يذهبوا إلى الجزء الشمالي من البحيرة، إلى ما وراء بيت صيدا جوليوس، إلى منطقة شبه مقفرة، حيث ترتفع التلال الخضراء شامخة فوق الشاطئ. ولن يراهم الناس بين هذه القرى، خاصة وأن العديد من سكانها هم من غير اليهود الذين لم يهتموا بهم.

لم يرغب عيسى المسيح بالذهاب مباشرة. فإذا أمضوا قسماً من الصباح على شاطئ البحيرة، فسيحصلون على قسط من الراحة قبل الوصول إلى الأرض. وهكذا أبحروا بالقرب من الرصيف في كفرناحوم. ولم يلحظ ركاب السفينة رجلاً كان يراقبهم، ولم يدركوا أنه تعرف على ملامح عيسى المسيح قبل أن يختفي القارب في الضباب. ولم يعرفوا ماذا خطر بباله، ولماذا انطلق مسرعاً إلى البلدة؟

كان الصباح الباكر في البحيرة منعشاً، فقد أشرقت الشمس من خلال الضباب. وكانت سفن الصيد راسية على الشاطئ بعد عمل الليل الطويل، وما زالت البضائع موجودة على الشاطئ، وكأن بحر الجليل ملك لهم فقط. وأكثر من مرة، تركوا المجاذيف وانساب بهم القارب، في حين كان الحواريون يطرحون الأسئلة الواحد تلو الآخر على عيسى المسيح، ويخبرونه عن الحوادث المشجعة أو المحبطة. وكانت تعلو أصوات الضحك من حين إلى آخر، عندما يتذكرون شيئاً مسلياً. وكان من السهل عليهم أن يكونوا سعداء مع عيسى المسيح. ثم تذكر أحدهم النبي يحيى، فانتابهم حزن عميق. ولم تكن الدموع ولا الضحكات في غير محلها وهم في رفقته.

أصبحت الشمس ساطعة. وحان الوقت للاستراحة وقضاء بقية اليوم في ظل سفح التل، وجدَّفوا ثانية من أجل الوصول إلى الشاطئ. وعندما وصلوا المياه الضحلة سمعوا هتافاً عظيماً خلفهم، وشاهد الحواريون ما كان قد رآه عيسى المسيح وهو في مؤخرة السفينة: جمهور كبير ينتظره في المكان المهجور الذي أرادوا الاستراحة فيه. فجلس الحواريون على مقاعد المجذاف مستائين. لم يكن الشاطئ مزدحماً فحسب، وإنما رأوا مئات الرجال راكضين باتجاهه من ناحية بيت صيدا. ولو كانوا فوق التل وليس فوق المياه، لشاهدوا ازدحام الرجال وهم يركضون في الطريق المؤدية إلى المكان عبر نهر الأردن من كفرناحوم والمجدل وطبريا.

شعر يوحنا بوخزة غضب، لأن عيسى المسيح الذي كان قد رأى الجموع، لم يأخذهم إلى شاطئ آخر. وسرعان ما تلاشى ذلك الشعور عندما التفت ورأى الشفقة تملأ وجهه. وعندما وضعوا المجاذيف، وقفزوا في المياه الضحلة لسحب السفينة إلى الشاطئ، أدرك السبب. كان ذلك الجمع غير عادي، يتألف القسم الأكبر منه من الرجال، ويتبعهم عدد من النساء والأطفال والمرضى. وكان عدد من الذين ركضوا حول البحيرة من أجل لقاء عيسى المسيح رجالاً يحملون السلاح. كان الموقف مثيراً، وكانت الجماهير تبحث عمن يقودها مثل قطيع الخراف، إذا لم يكن الراعي هنالك للسيطرة

عليه. وكان انعكاس أشعة الشمس على الأسلحة الفولاذية، يوحي برغبة بعض الرجال في أن يقودهم عيسى المسيح حالاً للانتقام من مقتل النبي يحيى.

وقف عيسى المسيح لحظات قليلة وهو يستشرف المنظر، ثم مشى بخطوات ثابتة داخل البر، والرجال يفسحون له الطريق. وصعد إلى منطقة مرتفعة قليلاً، تمثّل منبراً مناسباً للمدرج الطبيعي المنحدر إلى الشاطئ،حيث كان الجمهور الكبير بضجيجه في الأسفل.

طلب في بداية الأمر أن يحضر المرضى إليه وشفاهم، فأدهش هذا الجمهور وساد الهدوء. ثم أشار بيده إلى الجميع وحدث صمت تام، وبدأ يعظ. وكان نسيم البر يحمل صوته إلى الجميع. واستمع الجمهور دون تعب لساعات طويلة، حتى هدأت ثورة الغضب في نفوسهم وأصبحوا يطلبون ملكوت الله وبرَّه.

وعندما مالت الشمس نحو الغروب، توقف عن الوعظ. وكان الجمهور المكوّن من آلاف عدة في هذه الأثناء جائعاً، فاقترح بعض الحواريين الذهاب إلى القرى المجاورة لابتياع الطعام. ولكنهم كانوا في بقعة مقفرة، وكانت القرى الموجودة فوق التلال قليلة، ولا يمكنها تزويدهم إلا بالقليل من الطعام. ولما كان الظلام سيحل قبل أن يصل أي واحد منهم إلى المدن الكبرى، فقد كانت هذه الفكرة تفتقر إلى التقدير السليم.

رفض عيسى المسيح الفكرة وقال: «أعطوهم شيئاً ليأكلوا. ولاحظ يوحنا مرة ثانية ومضة في عين عيسى المسيح وكان متأكداً من أنه أراد أن يختبرهم. سقط فيليبس في الشرك وقال: «إن 200 دينار، وهي أجور 8 أشهر، لن تكفي لشراء الخبز الكافي لكل واحد منهم. هل يجب علينا أن نصرف ذلك المبلغ من المال؟»

أجاب عيسى المسيح: «كم رغيفاً معكم هنا؟ اذهبوا وتحرّوا الأمر». تفرق الحواريون لكي يجدوا المؤن بين العدد الكبير من الناس الحاضرين الذين قُدِّر عددهم بخمسة آلاف. ولكن الذين أحضروا معهم أكياس الطعام عند اندفاعهم المفاجئ، كانوا قد أكلوا ما حملوه. ولم يجد يوحنا وبطرس وفيليبس والثمانية الآخرون، شيئاً يؤكل. ولكن أندراوس وجد فتى صغيراً أتى من بيت صيدا، وربما عرف أنه من موطنه بالنظر إليه، وكان من الواضح أن الفتى كان في طريقه لإحضار طعام العشاء لأبيه وأخيه اللذين كانا يحرسان الخراف على سفح التل، ووجد نفسه بين الجموع وبقي معها ليستمع.

أسرع أندراوس إلى عيسى المسيح: «ههنا فتى معه خمسة أرغفة صغيرة من الشعير، وسمكتان صغيرتان جافتان. ولكن ماذا نعمل بها في هذه الجموع الكبيرة؟».

أخذ عيسى المسيح الأرغفة والسمكتين من الفتى بابتسامة شكر. كان خبز الشعير الخشن طعام الفقراء. ومثل هذه الأرغفة يتم ابتلاعها مع قطع السمك المجفف كوجبة شخص كبير. ولكن كان عليه إطعام خمسة آلاف. وقبل أن يحتار الحواريون فيما سيعمله عيسى المسيح، أمرهم أن يُجلِسوا الجموع المتململة التي بدأت تتحرك هنا وهناك. وشكّل الناس مجموعات من خمسين أو مائة لكل مجموعة، كما لو كانوا يعملون على تنفيذ أوامر عسكرية.

انتظروا جميعاً بأمل، وأمسك عيسى المسيح بيديه الخمسة أرغفة والسمكتين الصغيرتين ورفع عينيه إلى السماء. وبارك كما لو أنه رب بيت يترأس وليمة. ثم كسر الخمسة أرغفة وناول كل واحد من الحواريين كسر الخبز. وقطع من السمكتين الصغيرتين المجففتين، وأمرهم أن يوزعوا قطع الخبز على الخمسة آلاف رجل وامرأة وطفل.

أحس يوحنا بأنه أحمق، ولكنه أطاع عيسى المسيح بدون سؤال، وسار إلى مجموعة مكونة من خمسين أو مائة شخص، وهو يمسك بأقل من نصف رغيف وسدس سمكة صغيرة. وبإشارة إيمان كسر قطعة كبيرة من نصف رغيفه، وقطعة سمك، وسلّمها إلى أول رجل في أول صف. وعندما نظر يوحنا ليرى كيف يقسم باقي الخبز، رأى نصف رغيف لا يزال في يده، وقطعة السمك ظاهرياً غير ناقصة. رأى الشيء نفسه عندما أطعم الرجل الثاني، وبانفعال متزايد سار إلى أسفل الصف وهو يقسم قطعاً أكبر. وتواردت الأفكار في ذهنه، فتذكر الخمر في قانا الجليل، وطحين وزيت إيليا الذي لم ينقص في زمن المجاعة منذ زمن بعيد، كما سمعوا عن ذلك كثيراً في الكنيس. ولكن إيليا أطعم نفسه وعائلة صغيرة فقط. وزوَّد عيسى المسيح في قانا عرس قرية صغيرة فقط، بينما كان عيسى المسيح في مساء هذا اليوم الربيعي يطعم خمسة آلاف نسمة فوق شاطئ البحيرة.

لم يبق أحد جائعاً، بل أخذ الكثيرون أكثر مما يستطيعون أكله، ولذلك كانت كسر الخبز ملقاة على الأرض. ولم يشعر يوحنا أبداً أنه كان أقرب إلى عيسى المسيح كما هو الآن، رغم أن العديد من صفوف الجليليين المندهشين كانت تفصله عنه.

وجمع الحواريون كل ما بقي على الأرض بأمر عيسى المسيح، وملأوا 12 قفة أمامه. كان الوقت مساء تقريباً، وكان من الصعب السيطرة على انفعال الجموع. كان البعض قد استلوا سيوفهم مطالبين عيسى المسيح بقبول العرش الذي اغتصبه هيرودس، وأن يقودهم حالاً في هذه الليلة في مسيرة انتقام، تقذف بهيرودس وأسياده الرومانيين إلى البحر.

وأحس عيسى المسيح بأنه قد بدأ بالانجرار مع الجماهير. وعندما نظر إلى يهوذا الاسخريوطي وسمعان الغيور السابق، رأى بريق المعركة في عيونهم. ثم قام عيسى المسيح بحركة غير متوقعة تماماً، حيث أمر الحواريين بالعودة إلى القارب، لكي يرفعوا الشراع ويجدِّفوا راجعين إلى كفرناحوم، وسيقوم هو بنفسه بصرف الجموع.

كانت سلطته كبيرة، ولهذا أطاعوه. وزال خوفهم على سلامته، كما زال الخوف من عدم ثقته بهم. وبينما كانت الجموع تراقبهم سار الحواريون بتواضع إلى الشاطئ. وسمعوا في ما بعدُ أن عيسى المسيح قد أمر قادة هذه الثورة الناشئة أن يصرفوا أتباعهم، ورجع معظمهم إلى بيوتهم على محاذاة الشاطئ، على نور قمر مكتمل تقريباً، فيما استقرَّ بعضهم في مكانهم. وتوارى عيسى المسيح عنهم، وشوهد وهو يصعد التلال، ولم يجرؤ أحد أن يتبعه أو أن يعارض رفضه أن يصبح ملكاً.

عبر الحواريون في هذه الأثناء البحيرة، وتوقعوا أن يشير إليهم عيسى المسيح بأنه يريد الصعود في المركب. ولكنهم فقدوا هذا الأمل في منتصف الليل تقريباً، وانطلقوا إلى الشاطئ المقابل. وانحرف النسيم الذي هب من الغرب طيلة الوقت بعد الظهر حتى ساعات المساء، فكان عليهم أن يجدِّفوا بدون مساعدة الشراع. وكلما تقدموا نحو وسط البحيرة، كانت الريح تشتد والأمواج تهاجم القارب. لقد استنفذ هذا اليوم الطويل بأحداثه والوقت المتأخر طاقتهم، وكان أقوى البحارة بينهم يشعر

بالضيق والتعب وهو منهمك على مجذافه. لقد أزال العمل الشاقُّ على ظهر السفينة ذكرى المعجزة، بالرغم من أنهم كانوا يواجهون الشاطئ البعيد الواضح في ضوء النهار، حيث وزعوا الأرغفة وقطع السمك.

وفجأة أطلق أحدهم صيحة، ثم صرخوا جميعاً بذعر كبير. لقد رأوا بينهم وبين الشاطئ رجلاً يسير على المياه باتجاههم، وهو يتحرك بسرعة على مسار مواز رغم الأمواج، وكان الشبح يشبه عيسى المسيح. وكانوا رغم خوفهم متأكدين من أن هذا هو شبحه. لا بد أن الرعاع قد قتلوه. كان عليهم البقاء معه للدفاع عنه.

اقترب الخيال من القارب وصرخوا ثانية.

وفجأة سمعوا صوت عيسى المسيح الحقيقي فوق الريح والأمواج. «صرخ: تشجعوا. إني هو! لا تخافوا!».

وفكر بطرس بصورة عابرة أن عيسى المسيح سوف يعبر عنهم. وصرخ وهو يتصرف باندفاع كعادته: «يا رب، إذا كنت إياه، فقل لي أن آتي إليك على المياه!»

فقال له: «تعال« !

وقفز بطرس الصياد الخبير بالمياه من السفينة ومشى على الماء، وكان يعرف أن بحيرة المياه العذبة تفتقر إلى قوة الطفو الجزئية الموجودة في البحر الميت، وبدهشة كبيرة رآه يوحنا يسير فوق الأمواج، ويمشي خطوات قصيرة قليلة وعيناه مثبتتان على عيسى المسيح. هبت الريح بشكل أشد، واتت موجة قوية وسريعة، فَفَقَدَ بطرس رباطة جأشه وبدأ يغرق. وسمعوا صرخة يأس: يا رب، أنقِذْني. مدَّ عيسى المسيح يده وأمسك ببطرس. وسمعوه يقول له: «يا قليل الإيمان، لماذا شككت؟». وكان الاثنان قريبين من السفينة، وساعدتهما الأيدي بالصعود، وهدأت الريح بعد أن تسلقا إلى ظهر السفينة.

كان يوحنا وبطرس والآخرون مندهشين تماماً لأن عيسى المسيح قد وصل إليهم. ولم يفهموا كيف سار على المياه، كما لم يفهموا كيف كثّر الأرغفة والسمكتين وحدّقوا فيه. ثم تعثّر الواحد بعد الآخر فوق المجاذيف، وخرّوا على قدميه وهم يصرخون: «أنت ابن الله حقاً. الحق أنت ابن الله!». وكانوا لا يعرفون ماذا يقولون.

الجزء الثاني

الموت في القدس

الجبل:

سارت قوافل الجمال والحمير في الطريق الكبير (أو طريق البحر) في اتجاهين، وسارت الفرق العسكرية في الطريق وسط الغبار، وكانت صفوف من العبيد والسجناء والخيول تُقتاد للبيع. وكانت هذه هي الطريق التي سار فيها الرسول بولس من طرسوس بعد بضعة أعوام في طريقه إلى دمشق، وهو يتوعد بالموت تلاميذ عيسى المسيح.

وفي منتصف صيف عام 29 بعد الميلاد، سار عيسى المسيح والحواريون وعدد آخر من أتباعه شمالاً على هذه الطريق نفسها. وكان باستطاعتهم رؤية مرتفعات الجولان عن يمينهم وجبل الشيخ بعيداً أمامهم، وقد كان الثلج يتراكم أسفل قمته، رغم شمس فصل الصيف. وكأن برودته قد جذبتهم إليه من الجو الحار المنتشر في بحر الجليل.

وعند مخاضة بنات يعقوب، حيث يقطع طريق البر نهر الأردن، خرج عيسى المسيح عن طريق دمشق إلى طريق أكثر هدوءاً في الجليل الأعلى. وسار ميلا بعد ميل سيرا ثابتاً عبر مدنه، وحول الشواطئ الغربية للبحيرة الصغيرة التي يصب فيها نهر الأردن، بعد أن يمر عبر المستنقعات.

وكانوا يسيرون فوق التلال الداخلية، فقد ترك عيسى المسيح الطريق الرئيس، وصعد معهم إلى الأعلى، وإذا تعب أحد منهم في حر ذلك اليوم، كان يصر على حمل متاعه، رغم أن بطرس كان يوقفه ويحمل المتاع بنفسه. أصبح الممر مرتفعاً، واستمر عيسى المسيح بالصعود حتى وصلوا بحلول الظلام إلى بقعة صخرية ينبع منها أحد مصادر نهر الأردن. وسمَّى اليونان هذه الينابيع باسم إله الرعاة «بان».

ناموا في ذلك المكان، وكان ليل الصيف دافئاً حتى على ذلك الارتفاع. واستيقظوا في الفجر، عندما جاء أحد الرعاة الوثنيين إلى ينابيع «بان» لتقديم نذوره. وعندما أشرقت الشمس، رأوا من بعيد منظراً جميلاً لمدينة قيصرية فيلبي التي بناها هيرودس الكبير، ووسعها فيليب أمير الربع ليجعلها عاصمة له. وكانت مدينة حديثة وجميلة، ويرتفع فوقها جبل الشيخ. وشاهدوا في مكان قريب على صخرة بارزة إلى اليسار، الهيكل الرخامي الأبيض الذي شيَّده هيرودس الكبير، لتكريم أغسطس قيصر.

بدت الأساطير الوثنية والقوة الرومانية وأمجاد إسرائيل الزائفة في هذا المكان هزيلة بالنسبة إلى عظمة جبل الشيخ. وعلّم عيسى المسيح الحواريين في هذا المكان المنعزل. وشعر يوحنا الذي كان يصغي خلال الساعات التي كانت تمضي سريعة، أن عيسى المسيح قد جاء بهم إلى هذا المكان ليدركوا المعنى الحقيقي للتلمذة. وقبل أن يكمل يوحنا التفكير في هذه الأمور، تنحّى عيسى المسيح جانباً ليصلي، وشعر يوحنا بأن أعظم امتياز له هو أن يكون موجوداً عندما يصلّي بتلك الطريقة الحميمة الصادقة التي عرفوها جميعاً بشكل جيد. وعندما انتهت الصلاة، عمّ قلوب الحواريين وعقولهم سلام عظيم. ولكن عيسى المسيح لم يستأنف تعليمه، وسألهم عوضاً عن ذلك السؤال التالي: «مَنْ يقول الناس إني هو؟»

كان يوحنا يعرف بشكل مؤكد التخمينات المثيرة والمحيرة للجموع التي كانت على شاطئ البحيرة، ولكنَّ عدداً من الحواريين أعادوا ذكرها.

»يقول بعضهم بأنك النبي يحيى!» وقد أفادت إشاعة أطلقها هيرودس أنتيباس، الذي أقلقه ضميره المذنب عندما سمع عن معجزات عيسى المسيح، بأن النبي يحيى قد عاد من بين الأموات بدون شك.

»ويقول آخرون إنك إيليا!»، «أو النبي إرميا!».

أما عامة الناس فقد كانوا ينتظرون عودة بطل مثالي إلى الأرض.

سألهم عيسى المسيح: «وأنتم ماذا تقولون عني؟«

لقد قالوا عنه في قارب الصيد بعد أن سار على المياه بأنه ابن الله. ودعاه بطرس في كفرناحوم عندما تخلى عنه الكثيرون «قدوس الله». ولكن هذه الاستجابات العاطفية كانت في أوقات عصيبة. ويريد عيسى المسيح الآن تأكيداً واضحاً لا رجعة عنه. وبما أنه كان من المستحيل الإدلاء بالكذب أو نصف الحقيقة في حضوره، كان عليهم أن يقولوا ما يؤمنون به، مهما بدا ذلك سخيفاً في عالم عامة الناس وصيادي السمك.

كان يوحنا لا يزال يحاول صياغة كلمات تعبّر عن يقينه الشخصي، عندما قفز بطرس فجأة باتجاه عيسى المسيح، وكأن رؤيا قد أنارت الحقيقة في ذهنه في تلك اللحظة، وصرخ: «أنت المسيح! ابن الله الحي« !

نظر عيسى المسيح إلى بطرس نظرة تعبر عن قوته وجبروته وقال له: «طوبى لك يا سمعان بن يونا! لأنه لم يكشف لك إنسان ذلك، وإنما أبي الذي في السماوات. وأنت بطرس، الصخرة، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.»

وكانت الصخرة الأخرى عبر الوادي، وعليها هيكل قيصر الجميل. تبدو وكأنها تسخر من هذه النبوءة، ولكن عيسى المسيح استمرَّ في وعده بكل جدية، وقال إنه سيعطيه مفاتيح ملكوت السماوات. وعرف الحواريون أن أكثر الخدم مسؤولية في قصر الملك، هو الذي يحمل المفاتيح إشارة إلى سلطته. وبما أن بطرس ستكون لديه سلطة الحل والربط، فإن الناس سيدخلون الملكوت أو يُمنعون من دخوله بواسطته. ثم التفت عيسى المسيح إلى الحواريين، وقد أصابتهم الدهشة عندما حذَّرهم بأن لا يعلنوا عن ذلك للناس.

قادهم بعيدا عن ينابيع «بان» وصخرة أغسطوس، وأمضوا الأيام، بعد اعتراف بطرس، يتجولون في سفوح جبل الشيخ وقرب قرى قيصرية فيلبي. وأكد لهم بأن المستقبل القريب لا يمتّ بصلة إلى الحلم الموجود لديهم، بأنه المسيح الذي كان ينتظره كل يهودي. ولكنه سوف يعود بسرعة بالمجد والقوة والبهاء مع مختاريه إلى جانبيه. أخبرهم أنهم سيذهبون إلى القدس، وأنه سيتعرض للإهانة والشتم والإساءة على يد الكبار ورؤساء الكهنة والأحبار، وأنه سيموت ويقوم في اليوم الثالث من بين الأموات.

لم يأخذوا أقواله بجدية. فكرَّر ذلك، حتى تيقّنوا أنه كان لا يتحدَّث إليهم برموز وأمثال، وإنما كان يتحدَّث عن الذي سيحدث.

أصاب بطرس الهلع، فلو أنهم لم يكتشفوا أنه المسيح لتقبّلوا ذلك؛ ولكن، لديه القدرة غير المحدودة لمنع موته. كما أن استقامته الأخلاقية وجمال شخصيته لا يستحقان الموت. ثم أخذ بطرس عيسى المسيح إلى مكان مجاور، لأنهم كانوا بالقرب من قرية، وكانت الجماهير قد تجمعت، لأن صيته كان يسبقه دائماً، ولم يرغب بطرس أن تسمع الآذان الفضولية أي تلميح بأنه يتوقع أن يُقتل أو يُهان.

وقال بطرس عندما كان بعيداً عن الناس: «أبداً! أبداً! يا رب، هذه الأشياء لن تحدث لك أبداً!».

استمر عيسى المسيح في السير وكأنه لم يسمع،وركض بطرس وراءه، وقال ثانية: «أبدا، أبدا، أبدا،». فالتفت إليه عيسى المسيح، وتجمدت كلمات بطرس عندما نظر إلى وجهه. فقد وبَّخه بقوة حتى ارتجف بطرس: «اذهب عني يا شيطان! أنت حجر عثرة لي. عليك رائحة الناس وليس عطر الله».

دعا عيسى المسيح بقية الحواريين لكي يتجمعوا في دائرة، وأشار إلى الجميع لكي يسمعوا، وهكذا أحبط قصد بطرس أن يتحدث معه على انفراد.

»إذا أراد أحد منكم أن يتبعني عليه أن يقول لنفسه «لا» وأن يحمل صليبه ويتبعني!». تجمد قلب يوحنا عندما تذكّر المشهد المألوف لمجرم يحكم عليه حسب القانون الروماني، ويمشي مترنحاً تحت الصليب إلى مكان الإعدام. ورأى يوحنا رجلاً عارياً قد دُقت في رسغَيه مسامير حديدية فوق الصليب الذي كان يحمله، ورُفع بخشونة فوق عمود الخشب، وهو يصرخ ويموت ببطء وألم مخيف.

كان يتحدَّث بتأكيد لا مجال فيه لسوء الفهم: «مَنْ أراد أن يخلِّص حياته يفقدها، ومَنْ يفقد حياته لأجلي سيجدها؟». و«ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه». «مَن خجل مني ومن كلامي في هذا الجيل الفاسق الخاطئ، سيخجل منه ابن الإنسان عندما يأتي بمجد أبيه مع الملائكة القديسين».

وصرف الجموع، وقاد الحواريين ثانية إلى سفوح التلال، حيث خيَّموا ليالي الصيف القصيرة تحت أشجار الأرز، وأمضوا النهار في عزلة بينما كان يعلّمهم.

وعندما كانوا يستريحون في الظلال بعد ظهر اليوم السادس، سمع يوحنا عيسى المسيح يناديه باسمه، ونادى يعقوب وبطرس أيضاً. وأخبر الآخرين أن ينتظروا حتى عودتهم. وسار بالثلاثة عبر ممر وعر بين الكروم إلى المراعي العليا، وصعدوا سلسلة الجبال التي تمتد إلى الشمال الغربي باتجاه قمة جبل الشيخ. وخرجوا من بين أشجار الأرز إلى منطقة تقلُّ فيها الأشجار، ثم ساروا عبر الأودية الرطبة بعد ظهر ذلك اليوم.

توقّفوا لكي يستريحوا. وكان الصمت والعزلة يخيِّمان على البرية، لأن ضباب حرارة الصيف الذي حجب منظر السهل الساحلي ووادي الأردن، قد جعل المكان مناسباً لكي يُطلع فيه عيسى المسيح أصدقاءه الثلاثة الأقرب إليه على ذكريات ماضية لم يدركوها قبل اعتراف بطرس.

أخبرهم عن صوت السماء الذي سمعه عندما خرج من مياه الأردن بعد عماده:«أنت ابني الحبيب الذي به سررت!» وزاد ذلك من إيمانهم به.

استمروا في صعودهم. وكانت أشعة الشمس التي انعكست فوق الصخور وطبقات الثلج أكثر حرارة بعد الظهر، ووقفوا ثانية بالقرب من جدول كان يجري من المرتفعات إلى الأسفل . هنا استطاع عيسى المسيح أن يخبرهم عن برية يهوذا القاحلة التي ذهب إليها بعد عماده، حيث خاض تجربة ذهنية وروحية لمدة أربعين يوماً. وتحدث عن التجربة التي كان يصعب على يوحنا أن يفهمها، لأن جميع الشرور التي تهاجم وتخدع الإنسان قد اجتمعت فيها: «القسوة والشهوة واليأس». كل ما كان يتعارض وشخصيته، وكان مألوفاً بالنسبة إلى الإنسان.

وبلغت تجربة الشيطان ذروتها في نهاية محاولاته الثلاث المتوالية، وفي نهاية صومه الطويل، قال لهم بأنه كان في التجربة الأولى جائعاً، وكانت بعض الحجارة في ذلك الجزء من الجبال تشبه الأرغفة، احتاجت فقط إلى لمسة من الله لتتحول إلى خبز. فقال له الشيطان: «إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة أن تصبح خبزاً». والذي استطاع أن يفعله في عزلته لغوث نفسه يستطيع فعله للآخرين: أن يلبي بسرعة الحاجات الجسدية للبشرية ويشتري عبادتهم له.

لم تكن تلك طريقته، فقد انتصر على التجربة باقتباس من التوراة: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله».

وفي التجربة الثانية، أخذه إبليس إلى جبل عالٍ. وبينما كان عيسى المسيح يروي لهم هذه الحادثة على جبل الشيخ، كان الضباب ينقشع. واستطاع يوحنا أن يرى لمعان سطح بحيرة طبريا على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب، والبحر الأبيض المتوسط إلى الغرب. وكان يتكلم بالأمثال. وكان أكثر الأمور غرابة عندما حدَّثهم عن اللحظة التي عرض عليه الشيطان فيها، جميع ممالك العالم ومجدها، ووعده قائلاً: «سأعطيك كل سلطان ومجد على هذه الممالك لأنها دُفعت إليّ، وأنا أستطيع تقديمها إلى أي أحد أريد. فإذا خررتَ ساجداً لي فستكون كلُّها لك».

دحضه عيسى المسيح مرة ثانية بعبارة من الكتاب المقدس: «مكتوب للرب وحده تسجد وإياه تعبد؟» رفض أن يكسب العالم كتائب للشيطان، لكي لا ينتصر الشيطان إلى الأبد.

أنصت يوحنا وهو غائب الذهن في عالم آخر. وأدرك فَهْمَ عيسى المسيح للرجال والنساء الذين عانوا من هجوم الشيطان، ولكنه لم يفكر أبداً بأنه قد مر بهذه التجارب هو بنفسه.

وحدثت التجربة الثالثة على قمة الهيكل، على الزاوية الجنوبية الشرقية فوق رواقه الملكي المعمّد. ومن هذه القمة كان يُلقى بالمجدِّف إلى الوادي عندما يُحكم عليه بالموت. قال له الشيطان: «إذا كنت ابن الله، فارم بنفسك إلى الأسفل، لأنه مكتوب: «سيوصي ملائكته ليحفظوك ويرفعوك بأياديهم لئلا تصطدم بحجر رجلك». وأثبت له عيسى المسيح أنه ليس مجدفاً، وأن الناس ستجتمع حوله. وفوق ذلك سيكون قد جرب محبة الآب وعنايته.

انتصر عيسى المسيح على التجربة مرة أخرى باقتباس آخر من كتاب تثنية الاشتراع، وقال: «لا تجرِّبِ الربَّ إلهك». لم يكن بحاجة إلى تجريب محبة أبيه: كان يشعر به دائماً ويتمسك به.

قال عيسى المسيح: هرب الشيطان من الميدان لمدة من الزمن، ولكنه سيعود عندما يحين الوقت. وخيَّب هذا الاحتمال آمال الحواريين السامعين له على جبل الشيخ. ولكنهم آمنوا بأن معلّمهم أقوى من جميع قوى الجحيم، وشعروا بالتعزية عندما كشف لهم بأنه عرف معنى التجربة.

ولما أوشك المساء أن يحل عليهم . صعد عيسى المسيح إلى أعلى، إلى إحدى القمم التي ترتفع 9000 قدم فوق سطح البحر و11000 قدم فوق مستوى نهر الأردن. جلسوا على أسفل حافة عريضة بالقرب من معبد قديم متردم للإله بعل، بعيدين عن النسيم، في حين كانت الشمس تغيب خلف البحر الأبيض المتوسط بعد أن لوَّحتهم بتوهُّجها. ثم حلَّ الظلام فجأة وظهرت النجوم والقمر. وكانت الأرض والسماء في سكون وسلام تبدوان كشيء واحد.

ذهب عيسى المسيح إلى الوراء بضع خطوات وبدأ يصلي. مرت ساعة وكأنها لحظات. وكان يصلي بصمت أحياناً، وبكلمات مسموعة أحيانا أخرى. لف يوحنا نفسه بردائه وصمم أن يبقى معه بذهنه وقلبه طيلة الليل إذا أراد، وشعر يعقوب وبطرس بالشعور نفسه. استغرق الصعود إلى جبل الشيخ فترة طويلة، ولم يأكلوا شيئاً، ورغماً عن أنفسهم، شعروا بالنعاس ثم ناموا.

أيقظ الضوء يوحنا. وعندما نظر إلى أعلى، لم يكن الفجر قد طلع بعد. كان النور آتياً من عيسى المسيح عندما كان يصلي. حجب يوحنا عينيه بدهشة، لأن وجه عيسى المسيح كان يشع مثل الشمس،وثيابه لامعة وناصعة البياض كالثلج، لم يستطع أحد من الثلاثة أن يجد الكلمات الكافية لوصف ما حدث في ما بعدُ: «لقد رأينا مجده، وكنا شهود عيان لعظمته».

ولدهشتهم، لم يكن عيسى المسيح وحده، شاهد الحواريون وهم مستيقظون تماماً، شخصين متألقين يتحدثان معه في أعلى الجبل. أنصت يوحنا إلى الحديث، وعرف بدون شك أن الفاصل بين هذه الحياة والأبدية قد زال، وأن أحدهما كان موسى الذي أعطي الشريعة، ومات منذ وقت بعيد، والآخر هو إيليا النبي الذي مات منذ زمن بعيد أيضاً. وعرف ذلك من الكلام الذي تكلموا به، لأنه لم يشاهد قط صورهم أو تماثيلهم، لأن الصور كانت محرمة عند اليهود.

وكان واضحاً أن موسى وإيليا يعتبران عيسى المسيح أعلى منزلة منهما، ولكنه كان يستمد القوة منهما. وكانوا يتحدثون عن الطريقة التي سوف يغادر بها العالم. وسمع يوحنا ويعقوب وبطرس الكلمات وفهموها، ولكنهم لم يقبلوا الفكرة التي قبلوها من عيسى المسيح نفسه: سيوصم بالعار ويُقتل في القدس مثل مجرم عادي وهو لا يزال في شبابه، فيما ذهب موسى وإيليا إلى السماء بالمجد بعد عمل حياة طويلة.

قاطعهم بطرس فجأة، وقال: «يا رب، دعنا نعمل ثلاث مظال: واحدة لك، وواحدة لموسى، وواحدة لإيليا!» لم يكن بطرس يدرك ما يقول، ولم يكن يحاول الحفاظ على تلك اللحظة، أو النزول بعيسى المسيح إلى مستوى الآباء. كان بطرس في أكثر حالات اندفاعه.

ورأوا عندما كان يتكلم سحابة سريعة آتية، لم تكن من ضباب الجبل الذي يظهر قبل الفجر، وإنما كانت سحابة مضيئة بقوة، وسقط الحواريون الثلاثة على وجوههم من الخوف. وعرفوا

بالغريزة سحابة المجد التي كانت تحجب قداسة الله عن الإنسان الخاطئ في أوقات خاصة من الوحي الإلهي.

ونفذ صوت لا يقاوم داخل نفوسهم: «هذا هو ابني الحبيب الذي اخترته، فله اسمعوا».

لم يجرؤ يوحنا أن ينظر إلى الأعلى. استلقى وقد فارقته القوة والكبرياء. ثم شعر بلمسة على كتفه. وبنبرة مألوفة ومعزية قال له عيسى المسيح: «انهض، لا تخف».

بزغ الفجر. كان عيسى المسيح وحده. وقد بدا كما عرفوه دائماً.

على الطريق

لم يشاطر الحواريون أفكار بعضهم بعضا أثناء نزولهم من الجبل، واعتقد يوحنا بما عبّر عنه بطرس بعد فترة، أن عيسى المسيح موجود بينهم، وقد تم تكريمه من الله الآب بالصوت والمجد. كان ما حدث بالنسبة إليهم قصة ستجعل كل إنسان يؤمن بصديقهم.

عندما توقفوا لاستراحة قصيرة، أمرهم عيسى المسيح أن لا يبوحوا بأي تلميح عما سمعوا وشاهدوا، «حتى يقوم ابن الإنسان من بين الأموات!» أصابتهم الحيرة من مقصده، ولكنهم أطاعوه، وأخفوا ذكرى هذا الحدث في الأشهر التالية بشكل تامّ، حتى إنهم تصرفوا أحياناً كما لو أنهم لم يكونوا موجودين عند تجلّيه.

استمروا في النزول، وخرجوا من غابة أشجار الأرز. وشاهدوا جمهوراً في المكان الذي تركوا فيه التسعة الآخرين. وعندما اقتربوا من المكان، وأصبح بالإمكان مشاهدتهم بوضوح، توجَّه رجل من الجمهور، يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره، راكضاً نحو عيسى المسيح، وألقى بنفسه على أقدامه، وكان وجهه متجهِّماً.

صرخ الرجل: «يا معلم، لقد أحضرتُ لك ابني. إنه يصرخ فجأة وينتابه الصرع، ويسقط في أكثر الأحيان في النار أو الماء، ويُحرم من الكلام والسمع أحياناً أخرى. إنه ابني الوحيد ويحاول الشيطان تدميره. لقد أحضرته إلى تلاميذك، ولكنهم لم يتمكنوا من شفائه».

تنهَّد عيسى المسيح وقال: «يا لهذا الجيل غير المؤمن والشرير!» «كم سأبقى معكم وأساعدكم؟ أحْضِرِ الغلامَ لي».

مشى الولد بشكل طبيعي حتى وصل إلى عيسى المسيح، ثم سقط على الأرض ولم يثبت على حال، والزبد يخرج من فمه.

سألهم عيسى المسيح: كم مضى عليه وهو في هذه الحالة؟ أجابه والده: «منذ طفولته». ووصف كيف أنه كاد يموت حرقاً أو غرقاً، ثم قال:

»لكنْ، إنِ استطعتَ أشْفِقْ علينا وساعدنا».

أجاب عيسى المسيح: «إذا قدرتُ؟» «أن كل شيء ممكن لهؤلاء الذين يؤمنون!»

صرخ الولد: «أنا أومن! ساعِدْني على الإيمان».

وكان الجمهور يركض إلى المكان الذي ارتمى فيه الولد الذي انتابه الصرع. قال عيسى المسيح بقوة: «أخرج، أنا آمرك، ولا تدخل فيه مرة ثانية أبداً».

صرخ الولد وارتجف ثم استلقى بلا حراك. بدأ الناس يهمسون بأنه مات. انحنى عيسى المسيح بعد لحظات ورفعه برقة على قدميه. فتح الولد عينيه وتطلَّع حوله وابتسم. ثم سلَّمه إلى أبيه وهو في حالة طبيعية، واستولت الدهشة على الجمهور.

وفي الحال قاد عيسى المسيح الحواريين بعيداً، وتذمَّر التسعة قائلين: «لماذا لم نقدر أن نشفيه؟» أجابهم عيسى المسيح، إن مثل هذه الحالة تُشفى فقط بالصوم والصلاة. وترك هذا الموضوع، وبدأ يؤكد لهم مرة ثانية كيف سيسلَّم إلى أيدي الرجال ليُقتل، ويقوم بعد ثلاثة أيام. وكان في الطريق أثناء العودة إلى الجليل، عبر الممرات الهادئة التي اجتازها، يعلمهم بهذا الأمر. ولكنهم لم يفهموا المعنى الذي قصده، وكانوا خائفين من توجيه الأسئلة إليه.

كان هادئاً وواجماً كما لو أنه كان يسير نحو العذاب، وبدا الحواريون كأنهم لا يدركون ما يشعر به، وكان يملأهم الشعور بأنه ابن الله، وأنهم مساعدوه المختارون. حافظ يوحنا وبطرس على وعدهما بأن لا يخبرا أحداً عن التجربة الأخيرة، ولكنهما لم يخفيا اعتقادهما بأنهما سيكونان نائبيه عند صعوده إلى العرش. حتى لو ظهر جدال حول مَنْ سيكون الأعظم.

وصلوا إلى كفرناحوم، ودخلوا بيت بطرس، فقامت زوجاتهم وعائلاتهم بالترحيب بهم. وفجأة سألهم عيسى المسيح: «ماذا كنتم تتجادلون فيه وأنتم في الطريق؟» شعر الحواريون بالارتباك. جلس عيسى المسيح وطلب منهم أن يجتمعوا حوله، وقال: «إذا أراد أحد أن يكون الأول، فعليه أن يكون الأخير وخادم الجميع».

ثم نادى واحداً من الأطفال الصغار، ربما أصغر ابن لبطرس ،وأجلسه على ركبتيه. وضع عيسى المسيح ذراعه حول الطفل بلطف، وقال يعلّمهم: «مَن قَبِلَ الطفل الصغير باسمي فقد قَبِلَني، ومن يَقبَلَني، يَقبَلُ الذي أرسلني، لأن الأصغر بينكم جميعاً هو الأكبر».

حاول يوحنا أن يخفي خجلهم بالتأكيد على حماستهم، فقال بفخر: «يا معلم، لقد رأينا رجلاً يطرد الشياطين باسمك ومنعناه، لأنه لم يكن منا». فوبخه عيسى المسيح مرة ثانية، وقال: «لا تمنعوه لأن الذي ليس ضدي هو معكم».

سار عيسى المسيح بعد ذلك في الطريق إلى القدس. انطلق بعزم وتصميم، وأظهر للجميع بأنه يتَّجه إلى قمَّة حياته. دار بعيداً عن بحيرة الجليل كأنه يودِّعها، وقاد الحواريين مع جمع كبير من الرجال والنساء الذين رغبوا أن يرافقوه في التلال الجليلية باتجاه الطريق المباشر عبر السامرة. وكانت قافلة كبيرة تسير على الأقدام. وكان في كل مساء، قبل أن يصلوا إلى قرية يمكن أن يناموا فيها أو يدخلوا بيوتها، يرسل رسلاً لترتيب إقامتهم. ورجع الرسل من إحدى القرى الواقعة على

الحدود مع رفض لاستقبالهم، لأن سكان القرية سامريون، ويرفضون استقبال الحجاج المتوجهين إلى القدس.

كان يوحنا ويعقوب واقفَيْن مع عيسى المسيح عندما رجع الرسل. وكان يوحنا غضباناً من إهانة معلّمه. وكان لا يزال يشعر مع يعقوب بالفخر من تجربتهما على جبل الشيخ، وأرادا الدفاع عنه. تساءل يوحنا: «هل نستدعي ناراً من السماء لتحرقهم؟» وكان يتذكّر بصمت كيف أنقذ إيليا نفسه عندما أرسل الملك الشرير الجنود ليقبضوا عليه.

التفت عيسى المسيح نحو الأخوين ووبخهما. لقد جرحت نظرته كبرياءهما، وانتزعت منهما العنف. لكنه أعرب عن تقديره لمحبتهما له. وقادهم جميعاً إلى قرية أخرى. كان يبدو كأنه ليس في عجلة من أمره للوصول إلى القدس، مع أن الرحلة كانت طويلة. وفي السنوات التي تلت، كانت هذه الرحلة وغيرها، مجموعة من الذكريات التي استرجعها يوحنا.

في أحد الأيام، عندما كانوا يقتربون من قرية على حدود السامرة، سمع يوحنا والرجال نداءً جماعياً من مسافة بعيدة: «يا عيسى المسيح، يا معلم! ارحمنا».

توقف عيسى المسيح ورأى يوحنا مجموعة من عشرة من المنبوذين ذوي الثياب الرثة، وقد كشفت ثيابهم الرثة والشعر الطويل الذي كان يغطي أجسادهم، وترددهم في الاقتراب منه، أنهم من البرص.

ناداهم عيسى المسيح بصوت قويٍّ واضح: «اذهبوا وأروا أنفسكم للكهنة!» ركضوا باتجاه قريتهم بينما استمر عيسى المسيح في السير. وبعد فترة سمع يوحنا صوت رجل يسبِّح الله بصوت مؤثِّر، وشقَّ أحد المنبوذين ذوي الشعر الطويل طريقه عبر الجموع، وألقى بنفسه على قدمي عيسى المسيح وشكره. قال إنهم كانوا في طريقهم إلى الكهنة عندما شعروا بالشفاء، ولقد رجع هو في الحال.

لاحظ عيسى المسيح أن هذا الرجل كان سامرياً، والتفت حوله وقال: «ألم يكونوا عشرة؟ أين الآخرون؟ ألم يرجع أحد منهم ليسبِّح الله، إلا هذا الأجنبي؟ انهض واذهب: إيمانك قد أبرأك».

وفي يوم آخر، سار رجل ذرب اللسان متمهلاً إلى عيسى المسيح، فيما كانوا سائرين معه، وأعلن بشكل مؤثِّر: «سأتبعُك حيث تمضي!» لم يتأثر عيسى المسيح، وأجابه: «إن للثعالب أوجرةً وللطيور أعشاشاً، وليس لابن الإنسان مكانٌ يسند عليه رأسه». ولم يسمع شيئاً أكثر من ذلك الرجل.

نهض عيسى المسيح مبكراً في يوم آخر، وذهب مسافة قصيرة في الحقول، وتبعه يوحنا والحواريون المقرَّبون لحمايته، والمشاركة بصورة خاصة في الراحة والهدوء أثناء صلاته. وكانت صلواته الحميمة الصادقة تظهر مدى ما يجب أن يبذلوه من جهد للوصول إلى الله. وعندما انتهى عيسى المسيح من صلاته، تذكر أحدهم كيف قدَّم النبي يحيى إلى الحواريين درساً في الصلاة، وقال: «يا رب، علّمنا أن نصلي»؟

رجع بهم إلى الجمهور، ثم لبى طلبهم وقال: «عندما تصلّون، صلّوا هكذا:

»أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في المساء كذلك على الأرض. أعطنا خبزنا كفاف يومنا، واغفر لنا خطايانا، كما نحن نغفر لمن أخطأ إلينا. ولا تدخلنا في التجارب، لكن نجنا من الشرير».

ثم أعادوها عبارة تلو العبارة من بعد عيسى المسيح، بينما كانوا جالسين حوله على جانب الطريق، يتعلّمون الصلاة التي سوف تدعوها الأجيال القادمة: «الصلاة الربانية». وهي الأكثر اقتباساً من بين جميع أقوال عيسى المسيح، وكانت كلماتها، عندما انتشر الإيمان المسيحي في جميع أنحاء العالم، تتلى كل يوم، وعاماً بعد عام عبر القرون.

علّمهم العبارات، وأكّد لهم بأن الله يريد معرفة حاجاتهم بصورة مفصلة. وبقصص تنبض بالحياة حثّهم قائلاً: إن تطلبوا تُعطوا، اسألوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم. مَنْ منكم إذا سأله ابنه خبزاً، يعطيه حجرا؟ أو سأله سمكة، يعطيه حية؟ إذا كنتم انتم الأشرار تحسنون العطايا، فذلك أحرى بأبيكم الذي في السماوات، يعطي الروح القدس إلى الذين يطلبونه!

ووجد في أحد الأيام بين مستمعيه العديد من العشّارين الذين أصبحوا أغنياء بالابتزاز القانوني، نيابة عن السلطة المحتلة، مثل متّى قبل دعوته. وأظهر عيسى المسيح حالاً، أنه لم يتجاهلهم لأنهم لم يكونوا فقراء أو مساكين، بل رحَّب بهم وقَبِلَ ضيافتهم. وعند ذلك بدأ الفريسيون المحليون وعلماء الشريعة بالتذمر، فخاطبهم عيسى المسيح أولاً، عارضاً الموضوع بشكل أمثال وقصص.

قال: «لنفرض أن لأحدكم مئة خروف وضاع واحد منها. ألا يترك التسعة والتسعين في المرعى ويذهب في طلب الخروف الضال حتى يجده؟ ومن ثم يضعه على منكبيه ويرجع به فَرحاً. ثم يدعو أصدقاءه وجيرانه إليه، ويقول: «افرحوا معي.. لقد وجدت الخروف الضال». ثم أضاف مثلاً مشابهاً عن امرأة فقدت قطعة نقود فضية، وكنست البيت حتى وجدتها، ثم نادت الجيران ليفرحوا معها. وشرح لهم المعنى بعد كل قصة: «أقول لكم سيكون فرحٌ أعظمُ في السماء عندما يتوب خاطئ واحد، أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى التوبة».

ثم رجع إلى العشارين، وبدأ يروي قصة الابن الشاطر الخالدة، قصة الشاب الذي طلب من والده أن يعطيه نصيبه في الميراث وذهب إلى بلدة بعيدة، وأضاع ثروته في حانة المجون. وبعد أن صرف كل ماله، حل الجوع به واشتغل بإطعام الخنازير.

وعندما رجع إلى نفسه قال: «كم أجيرٍ عند أبي لديهم ما يأكلون ويفيض عنهم، وأنا هنا أموت من الجوع! سأقوم وأمضي إلى أبي وأقول له، يا أبت أخطأت إلى السماء وإليك، ولستُ مستحقاً أن أُدعى ابنك: اجعلني أحد أُجَرَائك».

ونهض وأتى إلى أبيه. وعندما كان لا يزال بعيداً، رآه أبوه فحنَّ عليه وركض إليه وعانقه وقبَّله.

فقال الابن لأبيه: «يا آبت أخطأت إلى السماء وإليك، وأنا لست أهلا أن أُدعى ابنك. ولكن أباه قال لخدامه: أحضِروا أفخر ثوب وألبسوه إياه، وضَعُوا خاتماً في إصبعه وحذاء في رجليه. أحضِروا العجل المسمّن واذبحوه، ودعونا نأكل ونفرح «لأن ابني كان ميتاً فعاش وضالاً فوُجد». ثم

بدأوا يحتفلون. وأنهى عيسى المسيح القصة بتصوير الأخ الأكبر المكفهر والغاضب، لأن الجميع اهتم بالابن الشاطر، بينما رفض هو الانضمام إليهم في مرحهم واحتفالهم. وكانت شخصية الابن الأكبر أقرب إلى الفريسيين وعلماء الشريعة الذين كانوا يستمعون بدهشة كبيرة، كيف أن عيسى المسيح يتكلم عن الشفقة بدلاً من الغضب، ويتحدث عن الندامة والعودة والفرح.

وجعلت هذه القصة، وغيرها من القصص، الساعات تمرُّ بصورة سريعة، وجذبت جماهير كثيرة حتى إنهم داسوا على بعضهم بعضا. وروى عيسى المسيح الأمثال بصورة مباشرة موجهاً كلامه إلى الحواريين. شجب النفاق ولم يتردد في توبيخ رجال الدين الأقوياء، وحذر من الدينونة القادمة، وأعطى دروساً واضحة لجميع الظروف والأحوال في هذا العالم القاسي. وأعطى صورة للمستقبل عندما تختفي الخطيئة والجريمة والطمع من الأرض.

وكان هذا بالنسبة إلى يوحنا كالحلم الذي تتوق إليه نفسه، لو لم تكن هذه الكلمات لعيسى المسيح الذي لا يعرف الأحلام الفارغة وإنما العمل والقصد. ولم يتصور يوحنا كيف سيحدث كل هذا، لأن حديثه عن موته وقيامته بعد ثلاثة أيام يفوق كل تفكيره. وقال عيسى المسيح في إحدى المرات وبعاطفة قوية وكلمات غريبة: «لقد أتيت لأشعل ناراً على الأرض، وبودِّي لو أنها مشتعلة! ولكن لديَّ معمودية لاجتيازها، وكم أنا حزين حتى تكتمل! هل تظنون أني أتيت لأجلب السلام على الأرض؟ كلا أقول لكم، وإنما الانقسام».

ولم يعرف يوحنا وغيره من الحواريين الآخرين والناس ماذا كان يقصد بذلك، كانوا يعرفون فقط أنه كان متجهاً إلى القدس.

واقتربوا أخيراً من الصعود الأخير في طريق أريحا، وهي طريق برية ينتشر فيها قطاع الطرق. وفي هذا المكان ذكر عيسى المسيح قصة السامري الرحيم.

قال لهم هذا المثل لأن محامياً وقف وسأله ليجربه: «ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟».

رد عيسى المسيح السؤال، وسأل المحامي ماذا قرأ في شريعة موسى. أصغى الناس بانتباه عندما قص المحامي جزءاً من الإعلان العظيم الذي يُسمع في كل صلاة في الكنيس. «أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل ذهنك وكل قوتك وكل عقلك». ولكي يستعيد المبادرة أضاف المحامي من كتاب آخر لموسى: «وقريبك كنفسك».

أجابه عيسى المسيح: «بالصواب أجبت. افعل هذا تنل الحياة». ضحك الناس ضحكة خافته، لأن المحامي كان ينتظر إجابة واضحة. ولكنه لم يقر بالهزيمة وقال بسخرية: «ومَنْ هو قريبي؟».

وبدلاً من البدء بجدال من النوع الذي يستمتع به المحامون والكتبة، بدأ عيسى المسيح بقصة. أخبرهم عن رجل انحدر من القدس إلى أريحا ووقع في أيدي لصوص عرّوه وضربوه وتركوه على الطريق بين حيّ وميت. ومرَّ به مسافرون عدّة: منهم كاهن أسرع إلى الجانب المقابل من الطريق (لئلا يتنجس بلمس ما يمكن أن يكون جثة)، وآخر لاويٌّ وهو أحد المنشدين والخدم في الهيكل، وقد اعتقد أنه من الحكمة أن يجتاز إلى الجانب الآخر من الطريق. وكان المسافر الثالث سامرياً. وكان المستمعون إلى عيسى المسيح يحتقرون السامري لأنه لا فائدة منه. واستمرَّ عيسى المسيح في قصته:

أتى السامري حيث كان الرجل، وعندما رآه تحنَّن عليه، فذهب إليه وضمَّد جراحه وسكب عليها الزيت والخمر». وحمله على حماره وأخذه إلى أقرب خان واعتنى به. وعندما غادر السامري في اليوم التالي، دفع الأجرة المطلوبة إلى صاحب الخان لكي يعتني به حتى يشفى.

قال عيسى المسيح وهو يراجع سؤال المحامي: «أيٌّ من هؤلاء الثلاثة هو قريب الرجل الذي وقع بين اللصوص؟«

أجاب المحامي: «الذي كان رحيماً معه».

فقال له عيسى المسيح: «اذهب إذن وافعل كذلك».

فلم يُجِب المحامي.

هذا الرجل وُلد أعمى

تقع قرية بيت عنيا في أول الطريق، ويحجبها عن القدس جانب من جبل الزيتون. وعندما توقف عيسى المسيح والحواريون ليستريحوا بعد وصولهم إلى هذا المكان، دُعي ليكون ضيفاً في بيت امرأة تدعى مرتا، وهي من سكان القرية المعروفين. ولم يعد يتبعه جمهور كبير، فقد ذهب العديد من الجليليين إلى المدينة لبدء احتفال عيد العرش، وهو يوم مخصَّص لتقديم صلاة الشكر على الحصاد في جميع أنحاء البلاد وذلك قبل أن تسقط أمطار الخريف.

سارت مرتا وأختها مريم مع عيسى المسيح إلى بيتهما الكبير، وسار الحواريون خلفهم على بعد مسافة قصيرة. وكانت مرتا ومريم قد نصبتا عريشة من سعف النخيل مثل بقيَّة أصحاب البيوت من اليهود في منطقة القدس، الذين كان يتوفَّر لديهم مكان مناسب. وقامتا بالاحتفال هذا الأسبوع حسب العادة القديمة. وكانت العريشة مجاورة للبيت ومشرفة على الحديقة. وأجلست مرتا عيسى المسيح على أريكة، وأسرعت لكي تشرف على إعداد الطعام. وكانت مريم على وشك أن تتبع أختها عندما لاحظت أن الحواريين يتجمعون كما لو أنهم يتوقَّعون أن يُكمل عيسى المسيح تعليمه. انتظرت قليلاً ثم بدأ يعلّم، فاقتربت مريم، وأفسح الآخرون لها الطريق، وجلست على الأرض عند قدميه وهي تصغي بانتباه.

وانشغلت مريم وفقدت الشعور بالوقت، واندفعت مرتا فجأة من البيت إلى داخل العريشة، وقاطعت عيسى المسيح قائلة: «يا رب، ألا تبالي أن تتركني أعمل وحدي؟ مُرْها أن تساعدني!».

نظر عيسى المسيح إلى مرتا وكانت مقطبة الحاجبين، وقد احمرَّ وجهها بسبب الجهد الذي بذلته، وأكمامها مرفوعة حتى الكوع. ثم نظر إلى مريم وهي منهمكة في الإصغاء بسلام، ثم التفت إلى مرتا ثانية وابتسم. وأزالت هذه الابتسامة والطريقة التي تكلم بها النغمة التوبيخية: «مرتا، مرتا أنت تتشغلين وتهتمين بأمور كثيرة، ولكنّ شيئاً واحداً هو الأهم، ولقد اختارت مريم النصيب الأحسن، ولن يؤخذ منها».

ابتسمت مرتا وكذلك أختها مريم ،ورجعت داخل البيت دون صخب. كان واضحاً أنها قد انتهت من إعداد الطعام دون انتظار، ثم أحضرته إلى العريش دون تذمُّر. وخدمت الأختان معاً بسرور. ووصل أخوهما أليعازر من القدس، ومن أول لقاء له مع عيسى المسيح، بدأت بينهما صداقة حميمة.

لم يمكث عيسى المسيح الليل عندهم. فضَّل أن يتبع تقليد الحجاج القادمين للاحتفال من جميع أنحاء فلسطين والبلدان القريبة والبعيدة، وأن يمكث في أحد الأكشاك العديدة المصنوعة من سعف النخيل على جبل الزيتون. ولم يذهب إلى المدينة في اليوم التالي، وقال إن ساعته لم تأت بعدُ، عندما عايره أولاد خالته، والذين لم يصدقوه، وحثوه على حضور الاحتفال بغية إظهار أنفسهم.

ذهب يوحنا ليعرف ماذا يقول الناس. وعندما اجتاز الأسوار، وصعد إلى ساحات الهيكل، رأى دخان الذبائح يصعد من المذبح. كان الكهنة في أيام الاحتفالات، وعلى مدار السنة بصورة أقل، يذبحون الثيران والماعز والحملان التي يقدِّمها المتعبِّدون. وكان يتمُّ سَفْكُ هذه الدماء لتطهير الناس من خطاياهم فقط. كانت الذبائح البريئة تموت من أجل أن يحيا الخطأة.

عرف يوحنا من خلال حديثه إلى الكهنة والأشراف المعروفين لعائلته، بأن القرار غير الرسمي لقتل عيسى المسيح ،والذي اتُّخذ عندما قام بشفاء الرجل المشلول عند بركة بيت حسدا لم يرفع. وكان الحكام يبحثون عنه، إذ كان المفروض أن يظهر كل الذكور في هذا الاحتفال. وسمع يوحنا الكثير من الثرثرة بين الجمهور. قال بعضهم إن عيسى المسيح كان رجلاً طيباً، وقال آخرون إنه ضلَّل الناس. ولم يجرؤ أحد أن يشير إليه علانية، لئلا يُتهَّم بأنه من الحواريين.

أخبر يوحنا عيسى المسيح بما شاهد وسمع، وكان لا يزال على جبل الزيتون. وفي اليوم الرابع للاحتفال، دخل المدينة بهدوء، وذهب إلى المعبد، وجلس ليعلّم تحت أحد الأروقة المعمّدة في الساحة الكبيرة المخصَّصة لغير اليهود. كان الضجيج يملأ الساحة، فالتجار يشترون ويبيعون، ويعلو فيها ثغاء الخراف التي سيتمُّ شراؤها للتضحية. وكانت هذه الساحة هي المكان التقليدي للخطباء الذين يبحثون عمَّن يستمع إليهم.

وتجمَّع في الحال حوله عدد من المستمعين، ودهش الذين لم يسمعوه من قبلُ، لأنه كان واضحاً لهم. وكان لكل مدرسة دينية أسلوبها الخاص، ولكنه أظهر علماً فاق به أسلوب المدارس الأخرى ببساطته وعمقه وقوته. وعرف بعض الذين كانوا بين الجموع أن الفريسيين أرادوا قتله، ولهذا أصيبوا بالدهشة لأنه تكلَّم بحرية. وسألوا: هل استنتجوا بأنه المسيح؟ وسخر آخرون من هذه الفكرة، لأنهم عرفوا أنه قادِم من الجليل، وقالوا بأن أصل المسيح أو «المسيا» سيكون سراً.

وأطلق عيسى المسيح خلال تعليمه تصريحات أثارت الغضب، فقد قال: «لست هنا بمشيئتي، بل الذي أرسلني هو حق، أنتم لا تعرفونه، لكني أعرفه، لأنني آتٍ من عنده، وهو أرسلني». وشاهد يوحنا عدداً من الفريسيين يجلسون في المقدمة، كما لو أنهم سيقبضون عليه. وقفوا كما لو أن قوة غير منظورة قد منعتهم. ووصلت احتفالات العيد ذروتها في اليوم الأخير، عندما خرجت مواكب المتعبدين البهيجة، وهم يلوِّحون بالأغصان، وينفخون الأبواق. وسكب الكهنة الخمر والماء من أباريق ذهبية رمزاً إلى صلاة المطر، ورتَّل الشعب مزامير التسبيح.

وبعد أن خفَّ صوت الترتيل، نادى عيسى المسيح بصوت سُمع وسط الجمهور، وفي قدس الأقداس المجلّل، والذي كان يدخله رئيس الكهنة مرة واحدة فقط في السنة، وقال: «مَنْ كان عطشاناً فليأت إليَّ ويشرب.. مَنْ يؤمن بي.. تنساب له أنهار الماء الحي كما يقول الكتاب المقدس».

لم يفهم يوحنا ما قَصَدَهُ تماماً في تلك اللحظة، ولا خلال الشهور السبعة التالية، ولكنه تحقق أن عيسى المسيح قد ذكر بلا خوف أنه مصدر الحياة الروحية الحقة. وأظهر من خلال تعابير وجهه ونغمة صوته، أنه يريد في الحقيقة أن يجذب جميع سكان القدس والعالم كله إليه.

كانت ردود الفعل مختلفة، ووقف حراس الهيكل الذين أُرسلوا للقبض عليه فاغري الأفواه من شدة الإعجاب، وشاهدهم يوحنا يعودون أدراجهم، وسُمع في ما بعدُ أنهم التمسوا العذر لعصيانهم بقولهم: «لم يتكلم أحد مثل هذا الرجل».

ولم يذهب عيسى المسيح مع معظم الحجاج إلى الريف بعد عيد المظلة. ووفرت له صداقته القوية مع أليعازر ومرتا ومريم، ضيافة كريمة ومحبة يواجه بها الأعداء.

اشتد الصراع بينه وبين السلطات عندما أطلق تصريحات لم يكن بالإمكان تجاهلها. فكان عليهم إما القبول بها والاعتراف به، أو إسكاته بالحجة أو القوة. ولم يدَّع أيُّ نبي آخر مثل هذه الأقوال لنفسه. وقد أثارت إحدى هذه المواجهات إعجاب يوحنا بصورة خاصة. ذهب عيسى المسيح مرة ثانية إلى الهيكل، وقاد الحواريين إلى ساحة النساء، وأخذ مقعده تحت رواق معمّد بالقرب من صناديق التقدمة، حيث كان سيل لا ينقطع من المتعبدين يقدمون تقدماتهم في الهيكل، وقد مكثوا للاستماع إليه. وكان الفريسيون هناك يتبعونه في الظل.

علّمهم عيسى المسيح قائلاً: «أنا نور العالم، مَنْ يتبعني، لا يمشي في الظلام، بل يكون له نور الحياة».

بدأ الفريسيون يجادلونه، وكلما حاولوا دحضه أو إهانته تمسك برأيه بصورة أكبر، وأكد لمستمعيه بأنهم عندما يقتلونه، سوف يعرفون «بأني أنا هو. لا أعمل شيئاً بسلطاني، إن الذي أرسلني هو معي، لن يتركني وحدي لأني دائماً أفعل ما يسرُّه».

قال ذلك ببساطة وقوة، ليس من أجل التفاخر، وإنما ليعبّر عن الحقيقة، حتى إن الكثيرين آمنوا به، ولكنهم لم يسيروا معه حتى النهاية. وعندما قال لهم إنهم إذا اتبعوا تعاليمه: «سوف تعرفون الحق، وسيقوم الحق بتحريركم»، فأجابوه بغضب، إنهم أحفاد إبراهيم، ولن يكونوا عبيداً أبداً. وبدأ الزعماء الدينيون يتجادلون مرة أخرى. ولم يتراجع عيسى المسيح، وقال: إنهم أبناء غير حقيقيين، ولهذا لم يؤمنوا عندما قال لهم الحقيقة. وقال لهم عبارة قوية أخرى: «مَنْ منكم يُثبت عليّ خطيئةً».

فأمطروه بالإهانات، وقالوا بأنه كان سامريا ومسكوناً بالشيطان. فأجابهم بهدوء: «لست مسكوناً بالشياطين». ثم أعلن بعد لحظات بقوة: «مَنْ حفظ كلامي لن يرى الموت أبداً».

انفجر زعماء اليهود بالغضب والازدراء قائلين: «نحن ندرك الآن بأنك مسكون بالشياطين! لقد مات إبراهيم ومات الأنبياء، وما زلت تقول هذا! أأنت أعظم من أبينا إبراهيم؟ مَنْ تفكر أن تكون؟»

تجنب السؤال: فإذا رفع نفسه، فلا يعني هذا شيئاً، وأجاب: «إن أبي الذي تدعونه إلهكم، هو الذي يمجدني. أنتم لا تعرفونه، أنا أعرفه. إذا أنكرت ذلك سأكون كاذباً مثلكم. لكني أعرفه وأحفظ كلامه. لقد ابتهج أبوكم إبراهيم ليرى هذا اليوم. وقد أدركه وكان مسروراً».

فصرخوا «ماذا! أنت لم تبلغ الخمسين من العمر بعد، وتقول بأنك رأيت إبراهيم؟».

فأجابهم: «إنه الحق، قبل أن يولد إبراهيم كنت موجوداً». ويستعمل الله وحده هذه العبارة في التوراة. لقد ادعى بأنه الله. ولم يطيقوا سماع أكثر من ذلك. وأسرعوا نحو كومة حجارة بناء ليرجموا المجدِّف حتى الموت بدون محاكمة. فانسلَّ عيسى المسيح خارجاً من الهيكل.

وكان عيسى المسيح بعد يوم أو يومين في المدينة مع يوحنا وبطرس وبعض الآخرين، وكان يوم سبت، وشاهدوا رجلاً أعمى يستعطي وهو يجلس إلى جانب الطريق، في مكان يراه فيه المحسنون وهم في طريقهم إلى الهيكل. وكان الرجل في الثلاثين من عمره، وكانت ملابسه ممزقة، وكان يصرخ: «وُلدت أعمى، وُلدت أعمى».

قال أحد الحواريين معبِّراً عن الرأي التقليدي، ودون إحساس أو اعتبار لكرامة الرجل، بأن العمى عقاب. سألوا عيسى المسيح: «مَن الذي أخطأ الرجل أم والداه؟». فأجابهم: «لا الرجل ولا والداه. لقد وُلد الرجل أعمى حتى تظهر مشيئة الله». ثم رفع الرجل رأسه يسأل عندما سمع عيسى المسيح يقول: «يجب علينا أن نقوم بعمل الله في النهار، إن الليل آتٍ، وعندها لا يستطيع أن يعمل أحد. وطالما أنا موجود على الأرض فأنا نور العالم».

تَفَل عيسى المسيح على الأرض التي يغطيها التراب، وعمل طيناً بلعابه، ووضعه على عيني الرجل. وخرق اثنان من هذه الأفعال ممنوعات السبت. أمر عيسى المسيح الرجل قائلاً: «اذهب واغتسل في بركة سلوان». امسك الرجل بعصاه دون تردد، وترك وعاء الصدقة، ومشى وهو يدق بها الأرض أسفل الشارع، في المسيرة الطويلة إلى البركة، في الجانب السفلي من المدينة.

وفي اليوم التالي انتشرت القصة في جميع أنحاء القدس. لقد رجع المتسوِّل إلى بيته في ذلك السبت من بركة سلوان، ودهش جيرانه لأنه يبصر مثلهم. وازدادت دهشتهم عندما سمعوا قصته. وأخذوه إلى الفريسيين ليستجوبوه.

ظفر هؤلاء بغايتهم، لأنهم لم يكونوا معنيين بالمعجزة بقدر اهتمامهم بالحصول على برهان بأن عيسى المسيح قد خالف السبت. وأصبح المتسوِّل الذي كان ضريراً أكثر شجاعة وقوة في إجاباته. وبعد الاستفسار من والديه اللذين خشيا أن يقولا الشيء الكثير، أرغموه أن يقول الحق، لأنهم «يعرفون أن هذا الرجل خاطئ».

رفض المتسوّل الإهانة. «أنا لا أعلم إذا كان الرجل خاطئاً أم لا. إن الذي أعرفه هو أني كنتُ أعمى وأصبحتُ الآن بصيراً».

وسألوه مرة ثانية عن حقيقة شفائه، فأجابهم بغضب: «لقد أخبرتكم مرة ولم تسمعوا. لماذا تريدون أن تسمعوا القصة ثانية؟ هل تريدون أن تصبحوا من تلاميذه أنتم أيضاً؟».

شتموه. ثم كانت لديه الشجاعة أن يخاطبهم وأن يقول: «إذا لم يكن هذا الرجل من الله، فإنه لن يقدر أن يعمل شيئاً».

غضبوا من صراحته وقالوا: «لقد وُلدتَ في الخطيئة». ثم ألقوه خارجاً بحيث لا يُسمح له بالدخول إلى الكنيس. لقد خاطر بالتعرُّض للحرمان الرسمي، وكل ما ينجم عن ذلك من خسارة اجتماعية ومادية.

سمع عيسى المسيح بما جرى، فأخذ يوحنا والآخرين وذهبوا للتفتيش عنه. فأخبرهم المتسوِّلون أن يبحثوا عنه في مكانه السابق. وعندما التقى عيسى المسيح به، سأله: «هل تؤمن بابن الإنسان؟».

لم ير المتسوِّل عيسى المسيح من قبلُ، ولكنه أجاب باحترام فطري: «مَنْ هو يا سيدي حتى أومن؟».

فأجابه: «لقد رأيته.. إنه يتكلم معك الآن».

أجاب الرجل وقد خرَّ على قدميه: «يا ربّ.. أومن».

لقد كان لشفاء هذا الرجل الأعمى الأثر الكبير في القدس، ولكنه زاد من تصميم السلطات اليهودية على التخلُّص من عيسى المسيح.

وخلال عظة ستبقى من بين أعظم عظاته، تكلم بصراحة عن موته، فقال: «أنا الراعي الصالح الذي يبذل نفسه من أجل الخراف». وقد أبدى لاحقاً في العظة نفسها إشارة أقوى، رغم أن يوحنا والحواريين لم يفهموها ويتقبلوها جيداً. لقد أخبر مستمعيه أن هناك خرافاً من حظائر أخرى سيحضرها إلى قطيعه. و «يجب أن تسمع هي أيضاً صوتي، وأن تكون هناك رعية واحدة وراع واحد». واستمر في حديثه قائلاً: «أبي يحبني لأني أبذل حياتي كي استرجعها ثانية. لا أحد يأخذ حياتي مني. أنا أبذلها بإرادتي. لي السلطان على أن أبذلها أو أن استرجعها. لقد تلقيت هذا الأمر من الآب».

وظن عدد من السامعين أنه أحمق، وليس جديراً بهم الاستماع إليه. وتذكر آخرون قصة الرجل الذي وُلد أعمى.

وفي منتصف فصل الشتاء، عندما كانت القدس كلها تشع بالأنوار، في احتفالات استعادة الهيكل من التدنيس الوثني، طالبه شيوخ اليهود قائلين: «قل لنا بوضوح، هل أنت المسيح؟».

فأجابهم عيسى المسيح: «لقد قلت لكم ولكنكم لم تؤمنوا. لأنكم لستم من خرافي، خرافي تسمع صوتي، وأنا أعطيها الحياة الأبدية، ولن تهلك أبداً، ولا يستطيع أحد أن يأخذها مني». وكان الذين يسألونه يسمعون هذه الأقوال بغضب وشراسة، غير مصدقين، لأنه كان يتحدث إليهم بصورة مباشرة كرجل مستقيم لا ينحرف عن الحق.

وعندما قال: «أنا والآب واحد»، لم يستطيعوا احتواء غضبهم أكثر، والتقطوا حجارة ليقذفوه بها.
وقف بلا حراك وسألهم: «لأية معجزة ترجمونني؟».

صرخوا قائلين: «ليس بسبب معجزة، ولكن بسبب التجديف! لأنك إنسان، وتجعل نفسك مكان الله!».

أليعازر:

غادر عيسى المسيح بحزن عميق، وأخذ الحواريون الطريق التي تؤدي إلى أريحا عبر نهر الأردن، إلى «بيريا» التي كان يحكمها هيرودس مثل الجليل.

خرج الكثيرون من أريحا وقرى نهر الأردن. وتذكروا بصورة حية تعاليم النبي يحيى في ذلك المكان نفسه، وقالوا بأن كل ما ذكره عن عيسى المسيح كان صحيحاً. وأتى آخرون من القدس. وآمن عدد كبير من المستمعين بعيسى المسيح وانضموا إليه. وحافظ يوحنا على اتصالاته بالقدس، ووصلته تحذيرات من رجال في السلطة العليا، بأن رؤساء الكهنة ما زالوا يكيلون العداء الشديد لمعلمهم، وقد أثارت حفيظتهم وغيظهم التقارير الآتية من الأردن. ولهذا حرصوا على أن يتجنب القدوم إلى «اليهودية».

وذات مرة وهم مجتمعون في منتصف فصل الشتاء، اندفع رجل من وسط الجمهور، بعد أن وصل مسرعاً، وقد هبط من الطريق الجبلي وهو يحمل رسالة عاجلة من مرتا ومريم حول أليعازر تقولان له فيها: «يا رب، صديقك العزيز مريض». قرأ عيسى المسيح الرسالة واستجاب في الحال لنداء طلب المساعدة، الذي مضى عليه عدة ساعات بسبب طول الرحلة. وأدرك يوحنا أن عيسى المسيح كان يعرف أكثر من أي شخص آخر عندما قال: «إن مرضه لن يؤدي إلى الموت، إنه سيمجد الله بتمجيد ابنه». لم يتمكن أحد من الحواريين أن يفهم المعنى، ولكن عيسى المسيح لم يتحرك. وبما أنه أحب مريم ومرتا وأليعازر، فقد تساءل يوحنا إذا كان أليعازر قد شفي. وقال بعض الحواريين إنه قد شفاه عن بُعْد دون أن يلمسه، كما كان يفعل في السابق.

أمضى عيسى المسيح وقتاً طويلاً وهو يصلي بمفرده، ومرَّ يومان ثم أعلن بأنهم سوف يعودون إلى أرض اليهودية.

واعترض الحواريون الاثنا عشر قائلين: «لقد حاول اليهود أن يرجموك! وهل سترجع في الحال؟».

أجابهم بلغة رمزية أنهم يستطيعون السير بأمان، لأن الوقت ما زال نهاراً، ولم يأت الليل بعدُ». وقال: «لقد نام صديقنا أليعازر، وسأذهب لإيقاظه».

وعندما افترضوا أنه يعني النوم الطبيعي، شعروا أنه قد تخلَّى عن لغته الرمزية وقال: «لقد مات أليعازر! وأنا مسرور أنني لم أكن هناك من أجلكم، لأن هذا سوف يعزِّز إيمانكم. تعالوا يجب أن نبدأ بالانطلاق». قال توما يوُجُوم: «دَعْنا ننطلق نحن أيضاً حتى نموت معه».

وصل عيسى المسيح والحواريون، والقلق يساورهم على مصير أليعازر، إلى أطراف بيت عنيا. لقد ساروا في الطريق مدة يوم وهم غير مسرعين، واكتشفوا في الحال بأن أليعازر قد مات منذ أربعة أيام، أي قبل أن يصلهم المراسل، وقد دُفِن في القبر عند مغيب الشمس.

جلس عيسى المسيح على الحائط منخفضاً، لم يدخل إلى بيت عنيا، وإنما أرسل رسالة إلى الأختين يُعلمُهما بقدومه، وتقدم يوحنا ليبلغ الرسالة، فسمع النواح التقليدي عندما وصل إلى البيت. وكانت أيام الحزن الكبير الثلاثة التي تبدأ شهر الحداد قد انتهت، ولكنه رأى الأثاث مقلوباً والنائحين المستأجرين ينوحون بصوت عال على الأرض. وكان الجيران والأصدقاء لا يزالون يأتون إلى البيت لتقديم التعازي، ومن بينهم عدد من اليهود البارزين من القدس التي تقع على مسافة قريبة. وعندما وصل يوحنا كانت مرتا تجهز الطعام، فغادرت المنزل في الحال دون أن تخبر مريم التي كانت وسط النائحين. وركض يوحنا معها. وعندما وصلت إلى عيسى المسيح، لم تتوان عن الترحيب به وشُكره على الحضور، وعبَّرت عن حزنها قائلة: «يا رب، لو كنت هنا لما مات أخي». وكانت هذه الفكرة قد سيطرت عليها وعلى مريم خلال الأيام الأربعة الماضية. ثم تابعت قائلة: «ولكني أعرف أن الله سوف يستجيب لك مهما سألته».

فقال لها: «سيقوم أخوك ثانية».

لم تفهم قوله، وأجابت: «نعم، أنا أعرف أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير».

نظر إليها بحدة، وأمسك برسغها كما لو أراد أن يعدّها لشيء يختبر به إيمانها إلى أقصى درجة، وقال لها: «مرتا، أنا القيامة والحياة، مَنْ آمن بي وإن مات فسيحيا».

أدرك يوحنا أن هذه الكلمات قد ترسخت في ذهن مرتا، وأنه سيتم ترديدها في القرون الآتية في جميع أنحاء العالم، كلما انتظر جثمان مسيحي للدفن. وسُمعت هذه الكلمات لأول مرة، على مدخل بيت عنيا تحت جبل الزيتون، وذلك في نهاية يوم من أيام الشتاء: «أنا هو القيامة والحياة».

بقيت مرتا محدِّقة إليه بينما استمر قائلاً: «مَنْ عاش وآمن بي لن يموت إلى الأبد، أتؤمنين بهذا!».

قالت: «نعم، يا رب، أنا أومن». وسمعها يوحنا تقول بلطف ما قاله بطرس» : أنت المسيح ابن الله الموعود الآتي إلى العالم».

قال عيسى المسيح: «أحضِرُوا مريم».

وأطاعت مرتا بدون أن تقول كلمة أخرى، ونسيت احتجاجها لتأخُّره، وطلبها غير المباشر من أجل عمل شيء. ولم يفهم يوحنا قصده أكثر من مرتا، ورأى مريم بعد لحظة وهي تسرع نحوهم، وكان وجهها مبللاً بالدموع. ثم وقفت مرتا إلى جانبها، في حين وقفت خلفهما مجموعة من النائحات اللواتي ظنن أن مريم تريد أن تنوح على القبر.

خرّت مريم على قدمي عيسى المسيح، وقالت وهي تبكي: «يا رب لو كنت هنا لما مات أخي».

وانسكبت الدموع حارة على قدميه، وتراجع النائحون بعويلهم المصطنع، يبكون بصمت وحزن مع الأختين.

نظر يوحنا إلى عيسى المسيح، ورأى أن جسمه قد اهتز وتأثر كثيراً، وتنهد بعمق، وأظهر شفقة لا يمكن التعبير عنها بالكلمات.

سألهم: «أين وضعتموه؟».

أجابت الأختان: «تعالَ وانظرْ، يا رب»، وقادتاه باتّجاه البستان على سفح الجبل. وعندما ساروا في الطريق إلى القبر، بكى عيسى المسيح، وأمسكت الأختان به وهما تستمدان القوة من دموعه.

وتبعهم النائحون والحواريون. وسمع يوحنا أحد النائحين يقول: «انظروا كم كان يحبُّه». وتذكر الآخرون الرجل الأعمى في القدس، وتساءلوا لماذا لم ينقذ عيسى المسيح أليعازر.

وصلوا إلى البستان، وكان هناك حجر عظيم على مدخل القبر في سفح الجبل. وتنهَّد عيسى المسيح ثانية، وكان جسمه يرتعش بسبب التوتر والإجهاد الروحي والجسمي.

قال: «أزيلوا الحجر!».

صرخت مرتا: «يا رب لقد انتن، ومضى عليه هنا أربعة أيام». ولو أراد أن يدخل القبر لإلقاء نظرة أخيرة، فإن الرائحة الكريهة ستكون أقوى من الحنوط، لأنهم لم يحنطوا الميت مثل المصريين القدماء. ولم تفكر بأي شيء آخر، ولم يكن بالإمكان مساعدة أليعازر، إذ إن التقليد اليهودي يقول، إن الروح تحوم قرب الجثة مدة ثلاثة أيام ثم تغادرها. كان أليعازر ميتاً في الحقيقة.

قال عيسى المسيح: «ألم أقل لكم إذا آمنتم ستعاينون مجد الله؟».

سحب النائحون الشبان الحجر ورفعوه، وطلب عيسى المسيح منهم أن يضعوا الحجر بعيداً، مشيراً أنه لن تكون له ضرورة ثانية. وكان الكهف واسعاً ومرتفعاً في الصخر: إذ لم يكن حاملو النعش عند الدفن بحاجة إلى انحناء.

رفع عيسى المسيح عينيه إلى السماء، وقال: «يا ابتاه». وخيَّم السكون على الجمع الصغير، وتوقف العويل والنواح. «يا ابتاه، أشكرك لأنك استجبت لي. وأنا أعلم دائماً أنك تستجيب لي، ولكني الآن أشكرك لأجل هؤلاء الواقفين هنا، حتى يؤمنوا من الآن فصاعداً بأنك أرسلتني».

ثم صرخ بثقة: «يا أليعازر! اخرج».

انتظر قليلاً.. وأحس الجميع بالصمت، ثم سمع صوت حركة من داخل الكهف، وخيَّم التوتر على المشاهدين. وشعر يوحنا بخوف بارد يزحف إلى أسفل ظهره. وارتفع الصوت من الكهف، واختفى الخوف من نفس يوحنا بشعور متزايد، بأن الله الخالق أكبر من الموت، وأن كل شيء ممكن مع عيسى المسيح.

ولم يشعر الشبان بالخوف، بل فرحوا عندما شاهدوا شخصاً يتحرك في الظلام، وقد خرج ببطء إلى أشعة الشمس، وهو ملفوف بالأكفان الكتانية المبيضة، ورأسه مربوط بالمنديل التقليدي. وكانت هناك قوة حياة داخل الأكفان، وحركة للعضلات والأطراف، جعلت يوحنا يشعر بالدهشة، كيف تحيط بقايا الموت بأليعازر الذي كان حيًّا بوضوح.

وقف الحواريون والأختان والنائحون بدون حراك. وانتظر أليعازر، ولم يتمكَّن رغم قوته من تحرير ذراعه وفكِّ أكفانه. ثم قطع صوت عيسى المسيح السكون وقال: «فكوا أكفانه، ودعوه يذهب إلى بيته». وعندئذ شعر يوحنا بأنه لا يحلم، وعانق أليعازر ومرتا ومريم بعضهم بعضاً بفرح.

الدخول الأخير

رجعوا إلى بيت عنيا، وعندما قدمت الأختان الطعام الذي جهَّزته مرتا على الأثر، أظهرت حيوية أليعازر قوة الحياة الجديدة التي تنساب في عروقه. لم يشكَّ أحد في أن عيسى المسيح الذي دعي إلى مقعد الشرف، لديه القدرة على إحياء الموتى. وقف زعماء اليهود في أماكنهم، واعترفوا بأنه كان كما قال عن نفسه وعن عجائبه، وتبعوه حيث ذهب. ولاحظ يوحنا أن عدة مواطنين معروفين تجنبوا الوليمة وأسرجوا حميرهم وذهبوا. وعرف في ما بعد أنهم قد نزلوا المنحدر مسرعين نحو وادي قدرون، وصعدوا إلى المدينة. ولم ينزلوا عن حميرهم حتى وصلوا قصر قيافا عظيم الكهنة، الذي شعر بالدهشة عند سماع شهود العيان. واستدعى كل أعضاء المجلس اليهودي الأعلى القريبين، ومن ضمنهم نيقوديموس الذي كان تلميذاً بالسر لعيسى المسيح. وقد وصف نيقوديموس ذلك كله ليوحنا في ما بعدُ.

كانت المداولات عاجلة وخاصة، لأنه لا يجوز عقد اجتماعات رسمية في قاعة «الحجارة الملساء»، إلا في أيام معينة من الأسبوع. وقد كان عيسى المسيح يمثّل تهديداً لقيادتهم، وذلك منذ أن فتح عيني الرجل الذي وُلد أعمى. كانت إعادته البَصَرَ إلى الأعمى عملاً خطيراً بما فيه الكفاية، ولكن إحياء الموتى أخطر وسيؤدي إلى ارتفاع الدعم الشعبي له. سمع نيقوديموس زملاءه الأعضاء وهم يقيّمون دوافع عيسى المسيح، ويقارنون أعماله المحتملة بأعمالهم، ثم اقنعوا أنفسهم بأنه سيحاول السيطرة على الوضع من خلال ثورة شعبية ضد قوات الاحتلال الروماني. وعرفوا بسبب سياستهم

الواقعية، أن هذه الثورة سوف تفشل. سيدمر الرومان الغضبانون الهيكل، ويزيلون آخر رموز الحكم الذاتي، ويصلبون آلاف اليهود.

ناقش المجلس الأعلى لليهود ما يجب عمله. واستمر النقاش طويلاً، وفجأة سمعوا صوت مطرقة الرئيس.

تكلم قيافاً بحدة وتصميم وقال: «أنتم لا تعلمون شيئاً على الاطلاق! أنتم لا تفهمون أنه يجب أن يموت إنسان بدلاً عن الشعب، حتى لا تفنى الأمة كلُّها». وأورد سابقة نموذجية في قضية أحد الثوار ضد الملك داود، ويدعى شيبا، فقال: كان جنود الملك على وشك الهجوم على البلدة التي تحميه وقتْل سكانها بالسيوف، عندما رمى كبار المدينة رأس شيبا من فوق الأسوار. فرفع قائد الملك الحصار عن المدينة ولم يقتل سكانها. وتلقائيا تبنى المجلس اليهودي الأعلى وجهة نظر قيافا، وبدأوا مناقشة الطريقة التي سيقتلون فيها عيسى المسيح. وأرسل نيقوديموس في الحال تحذيراً سرياً إلى بيت عنيا.

انسحب عيسى المسيح إلى قرية منعزلة في الريف القاحل الممتد على بُعد خمسة أميال شمال شرقي القدس، وذهب الحواريون معه. ثم ذهب عبر الأردن إلى أراضي هيرودس ، حيث لا تسري قرارات المجلس اليهودي الأعلى بشكل فعال.

واستأنف في بداية فصل الربيع تعليم الجموع هناك، ولكن أحاسيسه وقلبه كانت في القدس. وعندما أخبره بعض الفريسيين بأن هيرودس ينوي القضاء عليه، رفض عيسى المسيح الهرب، وأرسل رسالة إلى «ذلك الثعلب» تقول: «إنه سيستمر في تعليمه، لأنه يعلم بشكل أكيد، أن لا نبي يموت خارج القدس». وقال بنغمة حزن لامتناهية: «يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين إليكِ! كم مرة وددت أن أجمع بنيكِ كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحَيْها، ولكنكِ لم ترغبي! هوذا بيتكِ يُترك خراباً، لن تريني ثانية حتى تقولي: مباركٌ الآتي باسم الرب».

وبينما كان يعلّم، كان يجري الإعداد للمشهد الأخير. كان اليهود في طريقهم إلى القدس عن طريق البحر أو القوافل للاحتفال بعيد الفصح، وقد جاءوا من بارثيا والخليج، وجاء قسم منهم من الهند والجزيرة العربية وأثيوبيا وإسبانيا واليونان وأرمينيا والسواحل الشمالية البعيدة لشمال إفريقيا. وساعد السلام الذي استتبَّ في عهد الرومان، والسفر الآمن في البحار، جماعات عديدة من كل أطراف المعمورة، على القدوم إلى المدينة المقدسة. وعندما اقترب العيد، سافرت جموع أكبر براً من الجليل وجميع أنحاء فلسطين وسوريا، وانضم إلى سكان المدينة وضواحيها الذين يبلغ عددهم 25000 نسمة، ما يقرب من 100000 حاجّ على الأقل. وينبغي أن ننوّه أنه مهما يمكن أن يحدث لعيسى المسيح في القدس، فستنتقل الأخبار إلى جميع أنحاء فلسطين ونواح كثيرة في العالم.

وبدأ أقاربه وأصدقاؤه من الجليل بالسير على طريق الحجاج، والتقى بأمه، وقابل يوحنا ويعقوب أمهما في مخيم في الطريق الكبير على الهضبة وراء الأردن. وأحضرت مريم وسالومي نساء أخريات، كن يخدمن عيسى المسيح والحواريين أثناء أسفارهم، ومن ضمنهم حنة امرأة كوزا وكيل هيرودس، ومريم المجدلية التي ذكر التقليد المسيحي أنها المرأة التي سكبت الطيب على رأس عيسى المسيح ومسحت قدميه بشعرها.

كانت قافلة الجليليين كبيرة، ومن ضمنها عائلات كاملة من الجيران والغرباء. وانتشر الخبر سريعاً بأن عيسى المسيح الناصري قد انضم إليهم. وبينما كانوا يضربون خيامهم في الصباح الباكر، رأى يوحنا أباً يُحضر ابنه الصغير بخجل، وطلب من عيسى المسيح أن يلمسه ويباركه لتكون ذكرى مدى الحياة. فوضع يده على الطفل، ثم أحضر العديد من الآباء والأمهات أطفالهم النائمين، حتى أصبح عيسى المسيح وسط مجموعة كبيرة منهم.

كان رد فعل يوحنا وبطرس والعديد من الحواريين شديداً. فقد كان على معلمهم أن يسير يوماً كاملاً، وأن يعلّم الحواريين وكل الذين تجمعوا في منتصف النهار ومكان الاستراحة القادم. ويجب أن لا يزاحمه الأطفال، ولذا بدأوا في إبعادهم وتوبيخ والديهم.

غضب عيسى المسيح، وأمرهم قائلاً: «دعوهم يأتون إلي! لا تمنعوهم!» وأشار إلى الأطفال أن يقتربوا، وقال للحواريين: «إن لمثل هؤلاء ملكوت السموات». وكانت هذه فكرة رائدة بالنسبة إلى بطرس ويوحنا اللذين أحبا الأطفال: «أقول لكم، مَنْ لا يقبل ملكوت الله مثل طفل صغير فلن يدخله». وأخذ اثنين من أصغر الأطفال كلٌّ في ذراعه وباركهما.

خجل الحواريون من هذا التوبيخ، إلا أن يوحنا لم يشعر بأية إهانة. وكان عيسى المسيح قد غضب بسبب محبته لهم وللأطفال.

بدأ قادة القافلة بالسير في هذه الأثناء، وتفرقت العائلات التي اجتمعت حول عيسى المسيح والسرور يملأ القلوب. ثم جهَّز له يوحنا حقيبته وعصاه. وكان عيسى المسيح يساعد الجميع، إذ إنه لا يجهز أشياءه فحسب، وإنما يساعد الحواريين في إعداد أنفسهم. وغالباً ما كان يوقظهم جميعاً في الصباح بابتسامة لطيفة، أو يحضر الماء قبل أن يستيقظوا! ولكن الأطفال استحوذوا على اهتمامه في هذا الصباح.

وكان عيسى المسيح جاهزاً لبدء الرحلة، وعلى وشك الانطلاق، عندما ظهر شاب يلبس عباءة من أجود الصوف، وثوباً من الكتان الفاخر. وكانت ملابسه نظيفة رغم مرور عدة أيام على الرحلة. وكانت أصابعه تتلألأ بالخواتم، ويوحي كل شيء حوله بالثروة المكتسبة حديثاً، والعظمة والسلطة.

خرَّ على ركبتيه، ونظر إلى الأعلى بقلق وقال: «أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟».

رفض عيسى المسيح التملُّق فقال: «لماذا تدعوني صالحاً، إن الله وحده هو الصالح؟» فلم يجب الشاب.

ثم قال: «أنت تعرف الوصايا، وعدَّد خمساً منها: «لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تغشَّ». ثم أضاف واحدة أخرى، تناسب بصورة خاصة الذي يكسب الثروة بصورة سريعة، وقال: «أكرم أباك وأمك».

وأجاب الرجل الغني وهو لا يزال راكعاً، وقال إنه قد حفظ جميع هذه الوصايا منذ صغره، وقال مستفسراً: «ماذا ينقصني؟ وماذا يجب أن أفعل؟».

وهمس أحد الأشخاص الواقفين في أذن يوحنا، وكان من نفس المنطقة التي ينتمي إليها الشاب الغني، وقال له: إن هذا الشاب قد بنى كنيساً، ولهذا فقد انتُخب حاكماً رغم صغر سنه. كان عيسى المسيح ينظر إليه متلهّفاً لعمل شيء عظيم لمستقبله، ولكن الشاب لم يتبصَّر، ولم يعرف المكان الصحيح الذي يكمن فيه مستقبله. إنحنى عيسى المسيح فجأة للإمام، وعانقه ورفعه من ركبتيه كما لو أنه يدعوه إلى جانبه، كما دعا متى وبطرس ويوحنا من قبلُ.

قال له: «ينقصك شيء واحد إذا أردت أن تكون كاملاً. امض وبع كل ما لك وأعطه للفقراء ـ وسيكون لك كنز في السماء ـ ثم تعال واتبعني».

ارتسمت الكآبة على وجه الرجل، وحكَّ رأسه. وعرف يوحنا ما يدور في خَلَدِهِ، فقد كان عليه أن يتخلى عن الذهب والأراضي التي تعطيه القوة والشهرة، ووسائل عمل الخير كما يشاء. عليه أن يتخلى عن كل شيء ثمين.

سار بعيداً وهو حزين.

راقبه عيسى المسيح، ثم التفت إلى الحواريين وقال: «ما أعسر دخول ملكوت الله على الرجل الغني».

أصيب يوحنا بالدهشة، ولم يصدِّق أذنيه، لأنه نشأ على احترام الغنى كعلامة لبركة الله. وكان من الأشياء الغريبة بالنسبة إليه أن يقال إنه من الأسهل على طفل صغير دخول ملكوت السموات. والأغرب من ذلك أن الرجل الغني لا يكاد يجد طريقه إلى ملكوت السموات. قال عيسى المسيح: «كم هو صعب يا أبنائي!» واستعمل مثلاً معروفاً لتوضيح هذه الفكرة: «إن دخول جمل من ثقب الإبرة أسهل من دخول الأغنياء إلى ملكوت الله».

فقال بطرس ليوحنا هامساً: «مَنْ يخلص إذن؟».

وجَّه عيسى المسيح نظرة قاسية إليهما، ثم تركزت كل الأنظار عليه، فقال: «إذا كان هذا يستحيل على الإنسان، فإن كل شيء ممكن بالنسبة إلى الله».

بدأوا السير في الطريق ثانية، واستمروا بخطى ثابتة ميلاً بعد ميل. ولم ينس بطرس الموضوع، فقال بعد فترة لعيسى المسيح: «انظر لقد تركنا كل شيء وتبعناك. ما هو نصيبنا؟».

وكان يوحنا يشعر بالأمر نفسه. ظلّلت مسحة من الحزن وجه عيسى المسيح لانشغالهم بالمكافآت المادية. فتوقف، وتوقع يوحنا أن يوبخهم، ولكنه عوضاً عن ذلك أعطاهم وعداً جديداً: «عندما يتجدد كل شيء، ويجلس ابن الإنسان على عرش مجده، ستجلسون على اثني عشر عرشاً، وتدينون الأسباط الاثني عشر. ومن ترك بيتاً أو أخاً أو أختاً أو والدَيْن أو أصدقاء من أجل البشارة، سيعطى الكثير الكثير في هذه الدنيا: بيوتاً وإخوة وأخوات وأمهات وأولاداً وأراضي واضطهادات!

ويعطى في الدهر الآتي الحياة الأبدية». ثم أضاف: «وكثير من الأولين يصيرون آخرين، والآخرون يصيرون أولين».

استمرَّ في سيره، واقترب الحواريون منه، لأنه بدأ قصة جديدة يشرح لهم فيها كيف يكون الملكوت. وبينما كان يتحدث إليهم، كانت الأزهار تملأ الحقول المحيطة بهم، ورأوا حقلاً أو حقلين مزروعين بالشعير. فانتقل بهم إلى أيام الصيف الحارة وحصاد العنب، وأخبرهم عن صاحب الكرم الذي استأجر عمالاً في الصباح الباكر، لكي يعملوا طيلة النهار في كرمه. واتفق معهم أن يدفع لكل واحد منهم ديناراً، وهي الأجرة العادلة ليوم كامل. وبعد ساعة أو ساعتين، رجع إلى السوق واستأجر عمالاً آخرين، وقال لهم: «سأدفع لكم أجرة عادلة».

وخلال اليوم، وبينما كان صاحب الكرم يقدّر محصول كرمه ، استأجر عمالاً آخرين. ثم رأى قبل المغيب بساعة عاملَين واقفين، لم يعملا طيلة النهار. فقال لهما: اذهبا أنتما أيضاً إلى كرمي». وعند الغروب توقف العمل. وحضر العمال لأخذ أجورهم. وبصورة غير مألوفة، طلب صاحب الكرم من وكيله أن يدفع أولاً للرجال الذين استأجرهم أخيراً. واستلم كل واحد منهم ديناراً، وتوقع الذين جاءوا أولاً أن يدفع لهم أكثر رغم اتفاقهم على دينار، ولكنه دفع ديناراً لكل منهم.

تذمر الرجال بصوت عال، وقال الناطق بلسانهم: «عمل هؤلاء ساعة واحدة، ولكنك جعلتهم مساوين لنا نحن الذين عملنا طيلة النهار!». أجابهم صاحب الكرم: «يا صاحبي، لم أظلمك، ألم اتفق معك على دينار؟ خذ مالك وانصرف. ألا أستطيع أن أعمل بمالي ما أشاء؟ أم أنك حاسد لأني كريم؟». وأنهى عيسى المسيح القصة بقوله: «وهكذا يصير الآخرون أولين والأولون آخرين».

سار الحواريون بصمت وهم يحاولون استيعاب هذه الفكرة الجديدة حول مكافآت الخدمة. وبدأوا يتحدثون بعد ذلك مباشرة، ويسألون أسئلة متنوعة ويستمعون إلى قصص مختلفة. وكان عيسى المسيح يسير والحواريون إلى جانبه، ليس كالحاخام الذي يسير اتباعه خلفه بخنوع، إنما يتساوى معهم فلا فرق بينهم. وعندما وصلوا إلى المخيم التالي، سمح ثانية لكل الحجاج أن يتجمعوا حوله. ولم يجرؤ أحد من الحواريين في ذلك المساء أن يطرد طفلاً.

وفي الصباح التالي اتجهوا غرباً، وبدأوا بالهبوط من أجل عبور نهر الأردن وأريحا، وكلما تقدموا كانوا أقرب إلى القدس. سار عيسى المسيح أمامهم، فأسرع يوحنا لكي يسير إلى جانبه. وعندما شاهد وجهه تراجع إلى الوراء، ولم يجرؤ أحد من الحواريين على الاقتراب منه، فقد دهش يوحنا لشدة معاناته. كانوا في الأشهر الأخيرة قريبين جداً منه، بحيث أثرت مشاعره دائماً فيهم، مهما كان ذلك التأثير ضعيفاً. وكانت النسوة والحواريون الآخرون في قافلة الحجاج يشعرون بسخونة الجو وكانوا في خوف وترقب.

توقف عيسى المسيح بعد فترة، وأخذ الحواريين جانباً، وأجلسهم حوله كما كانوا يجلسون في الغالب عندما كان يعلّمهم. شعر يوحنا بفرح كبير، وأراد أن يشارك في تخفيف ثقل الحمل عنه. وعندما تكلم عيسى المسيح، لم توح كلماته الأولى بأي معاناة على الاطلاق، وإنما أوحت بالمجد. فبدأ قائلاً: «نحن ذاهبون إلى القدس، حيث ستتمُّ كل النبوءات عن ابن الإنسان». كان يوحنا يعرف أن الأنبياء تنبأوا بالمجد للمسيح.

وحطمت كلمات عيسى المسيح التالية الصورة التي كانت لديهم: «إنه سوف يُسَلَّم إلى أيدي رؤساء الكهنة والكتبة، وسيحكمون عليه بالموت. وسوف يسلمونه لغير اليهود الذين سيهزأون به ويهينونه ويبصقون عليه ويجلدونه ويقتلونه». وكان لعباراته وقع قاسٍ كوقع المطرقة على المسامير: «سوف يصلب».

لم يقاطعه بطرس، ولم يفهم أحد منهم شيئاً. كان حياً ونشيطاً، شاباً وباراً. ولم يستطع يوحنا أن يتخيل أنه سيعذب ويموت كالمجرم، بل قال في نفسه: لقد أفلت من محاولات قتله، وسيفلت مرة ثانية مهما كانت مخاوفه.

وقال بثقة: «وسيقوم في اليوم الثالث»، وذلك لبيان الحقيقة، ولكن يوحنا ويعقوب وبطرس وغيرهم، لم يفهموا عما كان يتحدث، بالرغم من الذكرى القريبة لما حدث في قبر أليعازر.

لم يشأ يوحنا التفكير في الصلب. فقد فكر كثيراً في مجد المسيح.

ثم تذكَّر كلماته في الماضي عن الدخول في الملكوت. وعندما استأنفوا المسيرة، أخذ يوحنا يعقوب جانباً، وسارا معاً وهما يتهامسان: سيحقّق عيسى المسيح السلطان على الأرض قريباً. وعندما توقّفت القافلة لاستراحة منتصف النهار، وأشعلت النيران وامتلأت أواني الطبخ، ذهبا إلى أمهما وعرضا عليها التوسط لهما لدى عيسى المسيح. ودنت سالومي بعد لحظات من عيسى المسيح ويعقوب ويوحنا إلى جانبها، وركعت لتطلب منه معروفاً. وبلسانها وبحضور زملائهما العشرة، توسلت إلى عيسى المسيح أن يَعِدهما بمناصب هامة، وامتيازات بالجلوس إلى جانبه، واحد إلى اليمين والآخر إلى يسار عرشه.

صرخ عيسى المسيح: «أنتما لا تعرفان ما الذي تطلبانه!» «هل تستطيعان شرب الكأس التي سأشربها؟ أو المعمودية التي سأجتازها؟». ولم توقفهما لغته الغريبة، وأجاباه بثقة: «نعم نقدر».

فرد عليهما: «ستشربان الكأس وتجتازان المعمودية. ولكن ليس لي أن أمنح هذه الأمكنة، إنها تخص أولئك الذين أعدَّها لهم أبي».

انتقد العشرة يعقوب ويوحنا بغضب. وثار بينهم جدل كبير. فنادى عليهم عيسى المسيح دون أن يرفع صوته الذي سكّن الأمواج واستدعى الميت من القبر، فوقف الحواريون حوله بخضوع. وقدم لهم مفهوماً جديداً للقيادة، وطلب منهم أن لا يكونوا أصحاب سيادة مثل الحكام على الأرض. وبيّن لهم أن الأمر عندهم يختلف عن غيرهم: «مَنْ أراد أن يكون كبيراً بينكم يجب أن يصبح خادم الجميع. ومَنْ أراد أن يكون في القمة، يجب أن يكون عبداً لكم، مثل ابن الإنسان الذي لم يأت ليُخدَم، وإنما ليَخدِم». ثم أضاف: «إنما جاء لكي يقدِّم حياته فداء للكثيرين».

استمروا في السير معاً. ولم يدرك أيٌّ منهم معنى كلامه: ظنوا أنه يستعين بالأمثال ثانية، وأنه كان يقودهم إلى انتصاره.

الدخول الملكي :

كانت مدينة أريحا تبدو جميلة مزدانة بأشجار النخيل والبساتين الظليلة، والبيوت الراقية وقصر هيرودس الشتوي والبحر الميت يتلألأ جنوباً تحت أشعة الشمس، والجبال الكئيبة تشمخ مرتفعة إلى الغرب.

اقترب عيسى المسيح والحواريون من أريحا بالسير عبر الطريق التي تمر عن أطلال المدن القديمة. وكانت المنطقة المجاورة قد أصبحت مخيماً للحجاج، وانضم إليه الكثيرون. وعندما اقترب عيسى المسيح من البيوت الأولى في مدينة أريحا، أصبح موضع ترحيب تلقائي من قبل سكانها الذين خرجوا إلى الشوارع ليشاهدوه ماراً بينهم.

وعندما وصلوا الطريق التي تجتاز الجدول الذي ينساب إلى بستان القصر، سمعوا صرخة قوية علت على ضجيج الجمهور: «عيسى المسيح، يا ابن داود ارحمني!» صرخ المتفرجون: «اصمت!» ولكنَّ الصوت ازداد ارتفاعاً، وانضمَّ إليه صوت آخر: «يا ابن داود، ارحمنا!».

توقف عيسى المسيح، وأمرهم قائلاً: «أحضِرُوه». فصمت الجمهور. وسمع يوحنا شخصاً في الطريق يقول: «تعال، افرح، إنه يناديك». أفسح الجمهور الطريق فإذا برجل متسوِّل يقف أمامه، وقد نزع عنه رداءه إشارة للإيمان، لأنه لن يتمكن من العثور على ردائه إذا عاد وهو أعمى. ونهض متسوِّل آخر إلى جانبه، بمساعدة عدد من الأشخاص المتجمهرين حولهما.

تكلم عيسى المسيح بنبرة عبّرت عن اهتمامه، وقال: «ماذا تريدان مني أن أصنع لكما؟«
لم يطلب المتسوِّلان صدقة أو بركة، وإنما قالا: «يا ربّ، نريد أن نبصر». أجابهما عيسى المسيح: «سوف تبصران. لأن إيمانكما قد أبرأكما». ولمس أعينهما. وتأثر يوحنا بصورة كبيرة عندما شاهد المستحيل يحدث ثانية. نظر المتسوِّلان بعينين نصف مفتوحتين. وقد تعثرا قليلاً، ثم قفزا في الهواء، وأطلقا صرخات التسبيح التي التقطها الجمهور، وردد الجميع «هللويا!».

سار الموكب ثانية. وظل الرجلان قريبين من عيسى المسيح في أريحا، وكانا ينظران بلهفة إلى اليسار واليمين، ويحجبان أعينهما عن أشعة الشمس، ويسبِّحان بصوت مرتفع وبسرور.

وصلت المسيرة الظافرة إلى داخل المدينة الجديدة الفسيحة، وقد اصطف الناس إلى جانبي الطريق بكثافة في ظلال الأشجار المغروسة بلا نظام. ومرِّ عيسى المسيح تحت ظلال شجرة جميز، وهي شجرة لها ساق قصيرة، وأغصان عريضة دائمة الاخضرار. توقف فجأة ونظر إلى الأعلى، وقال بنبرة ودية: «يا زكا! انزل بسرعة، يجب أن أحلّ في بيتك اليوم!».

أطل عليه وجه من بين أوراق الشجر. ونزل رجل يبدو عليه الغنى، وكان بديناً قصير القامة، كما كان يبدو مندهشاً ومسروراً وقلقاً في الوقت نفسه. ثم أسرع في مقدمة الموكب ليجهِّز بيته.

عبّر سكان البلدة عن استيائهم وتذمُّرهم غير مصدِّقين: «إنه سيكون ضيفاً على رجل خاطئ!» لأن زكا كان رئيساً للعشّارين في منطقة أريحا، ولهذا كان قد أساء في رأيهم لاسمه الذي يعني «البار». لم يكن له منصب رسمي، ولكنه طرح أفضل مناقصة، ووظف عدداً من جباة

الضرائب لمساعدته. كان الرومان قد طلبوا مبلغاً كبيراً، وطلب الجباة المساعِدون نصيباً منه، لذلك فإن ثروته كانت تعتمد على مقدار ما كانوا يبتزونه من ضرائب من الناس.

كان جامع الضرائب في الامبراطورية الرومانية، وخاصة إذا كان غنياً مثل زكا، يُعَدُّ وبالاً أكثر منه جامع ضرائب. وكان يثير كراهية كبيرة لدى اليهود. لأن الثروة المكتسبة بطرق شريرة، تنجِّس كلَّ مَنْ يلمسها إلا إذا قُدِّمت كصدقة. لذلك تجنَّب جيرانه صحبته ومأكولاته اللذيذة. وكان عليه أن يتحمَّل نتائج أعماله إذا شعر بالعزلة.

عرف يوحنا كلَّ هذا، وأدرك بأن عيسى المسيح كان يريد أن يضع هذا الرجل القصير القامة، والذي تسلق الشجرة، أمام خيارين: إما أن يسمح لضيفه أن يتنجَّس، أو أن يطهّر بيته بعمل حقيقي يعبِّر عن التوبة.

وعندما وصل عيسى المسيح والحواريون والجمهور إلى البيت الأنيق في ضواحي أريحا، رأى يوحنا زكا وعائلته وأهل بيته على المدخل، وقد انحنى وهو يرحِّب بهم، وقال بصوت يسمعه الجميع: «أيها السيد الكريم، أني أقدِّم بهذه المناسبة نصف ما أملك للفقراء». وبما أن الإعلان عن هذه الرغبة بصورة رسمية له قوة القانون تقريباً، لم يشكَّ أحد بأنه سوف ينفّذ وعده، وينقي أمواله من مكاسبه غير العادلة، وينقّي بيته. وفعل أكثر من هذا، إذ قال: «إذا كنت قد خدعت أحداً بأي شيء، فسوف أعيد له أربعة أضعاف المبلغ». ولهذا سيجتمع المطالبون قريباً على بابه.

لاحظ يوحنا بأن زكا قد فرض على نفسه ما فرضه القانون على السارق: أن يعيد أربعة خراف مقابل كل خروف مسروق، وقال عيسى المسيح: «اليوم حلَّ الخلاص لهذا البيت. وهذا الرجل مثلكم هو ابن إبراهيم، لأن ابن الإنسان قد جاء ليبحث عن الضالّين ليخلّصهم». وتذكَّر يوحنا المَثَلَ في الحال: لقد وجد الراعي الصالح خروفه الضال، وأرجعه إلى الحظيرة، ويجب على التسعة والتسعين أن لا يتجنبوه.

استمتع الحواريون بإقامتهم، وعندما بدأوا يصعدون إلى القدس في صباح اليوم التالي، شعر بطرس كالآخرين بسرور لأن عيسى المسيح دعا زكا ليكون تلميذاً. ذلك أن هذه الدعوة تنفي الكلام الغريب المتعلّق بصلبه: فلم يكن هناك من سبب يدعوه إلى مثل هذه الدعوة إذا كان على وشك أن يموت. واخبروا الحجاج الجليليين في الحال، بأن ملكوت الله على وشك أن يظهر، وأن عيسى المسيح سوف يصعد قريباً على العرش الذي اغتصبه الرومان.

سمع عيسى المسيح حديثهم، ولهذا فقد روى لهم في استراحة نصف النهار، قصة الرجل النبيل الذي سافر بعيداً لمدة طويلة من أجل الحصول على مملكة. وقبل أن يغادر قام بتوزيع أمواله على عبيده من أجل استغلالها نيابة عنه. وتروي القصة كيف تصرف كلُّ واحد منهم بمهارة وأمانة بوديعته قبل أن يعود الملك. ولو كان للحواريين آذان صاغية، لعرفوا أن هذا المَثَلَ يُبعِدهم عن توقُّعاتهم المثيرة.

وصلوا في ذلك المساء إلى «بيت عنيا»، قبل أن يحلّ السبت بوقت قصير. وتجمع أهالي القرية في اليوم التالي لتناول وجبة من وجبات يوم السبت التقليدية اللذيذة، في بيت رجل يدعى سمعان الأبرص، وكان اليعازر هو ضيف الشرف، وقد أصبح الآن قوياً وسعيداً ويثير إعجاب

الجميع. وانشغلت مرتا مع بقية النساء اللواتي كن يخدمن، ولكن مريم كانت مرة ثانية محور حادثة لم تُغضب مرتا هذه المرة، وإنما أغضبت الحواريين.

امسكت مريم قارورة «مرمر»، واقتربت من عيسى المسيح بينما كان متَّكئاً على المائدة، وكسرت عنق القارورة، وسكبت قليلاً على رأسه، ثم ركعت وسكبت المزيد على قدميه. امتلأت الغرفة والبيت برائحة العطر، وتوقف الحديث عندما أدرك الضيوف والمساعدون أن هذا العطر القوي المبهج، هو عطر الناردين الثمين الذي أُحضر من الهند. ودهنت مريم عيسى المسيح بالطيب حتى آخر قطرة في قارورتها، ومسحت قدميه بشعرها.

صرخ يهوذا الاسخريوطي، وهو أمين صندوق الحواريين: «يا لها من خسارة! إن ثمن هذا العطر يعادل الأجرة السنوية لعامل. كان يجب أن يباع وأن يُتَصَدَّقَ بثمنه على الفقراء». واتفق الآخرون معه، وبدأوا جميعاً بتوبيخ مريم.

وعندما كشف يهوذا نواياه الحقيقية في ما بعد، أدرك الحواريون أنه لم يكن يهتم بالفقراء، وإنما كان يريد نهب كيس المال.

قاطعهم عيسى المسيح قائلاً: «اتركوها. لا تزعجوها؟ لقد صنعت لي شيئاً حسناً. إن الفقراء موجودون باستمرار، وتستطيعون مساعدتهم متى شئتم، ولكني لن أكون معكم دائماً. لقد فعلَتْ ما استطاعت، لقد مسحَتْ جسمي بالطيب للدفن قبل الآوان».

سرى خوف بارد في قلب يوحنا. لأن جثمان المجرم لا يُمسح بالطيب عند الدفن. وقد صرف هذا التنبيه انتباه يوحنا، ونسي النبوءة التي قالها عيسى المسيح: «أينما يبشَّر بالأنجيل في أنحاء العالم، سوف يخبرون بما صنعتُ، وسوف لا تنسى».

ونسي يوحنا ذلك وسط الأحداث المثيرة التي وقعت بعد ظهر اليوم التالي. لقد دعا عيسى المسيح يوحنا ويعقوب للذهاب إلى «بيت فاجي»، وهي قرية مجاورة فوق التل على جبل الزيتون. وحسب التعليمات التي زوَّدهما بها، وجدا أتاناً مربوطة عند مدخل أحد البيوت مع جحش لم يركبه أحد. وبدأا بفك رباط الأتان والجحش. فسألهما بعض الوافقين لماذا يفعلان ذلك، فأخبراهم بكلمة السر التي أخبرهما بها عيسى المسيح، وقالا: «إن هذه هي إرادة المعلم وسوف يرجعهما في الحال».

وأيَّاً كان هؤلاء الواقفون، فقد اقتنعوا بهذه الجملة (فربما كان عيسى المسيح قد رتب الأمر يوم السبت، وكان هؤلاء خدم أحد مضيفيه الأصدقاء).

نزل يوحنا ويعقوب من التلّ وهما يقودان الأتان، وجحشها يركض راضياً خلفها، حتى لاقوا عيسى المسيح والعشرة وهم يصعدون ببطء.

فاجأهم عيسى المسيح بقوله إنه لن يركب الأتان وإنما الجحش، وفهم يوحنا في الحال أهمية ذلك. فقد كان عيسى المسيح على وشك أن يدخل القدس. وكان الحجاج يدخلون المدينة المقدسة حسب التقاليد مشياً على الأقدام، ولكن معلّمهم سيدخلها راكباً، وهكذا يظهر لهم أنه لم يأت حاجاً. إنما كان دخوله لها دخولاً رسمياً. فالدخول الرسمي إلى المدينة المقدسة على ظهر حيوان «لم يركبه إنسان»

كان من امتيازات الملك. وعندما يأتي الملك على ظهر حمار، وليس على ظهر حصان، فإنه يأتي بسلام. وتذكر متَّى في الحال النبوءة في سفر زكريا: «انظري مَلِكَكِ يأتيك متواضعاً، راكباً على أتان وعلى جحش ابن أتان».

وضع يوحنا ويعقوب رداءيهما بحركة تلقائية على الأتان لتكون سرجاً، دون أن يلاحظا أنهما قد غطيا الشعر الأسود على العمود الفقري والساقين الأماميتين والذي يمثّل شكل صليب. ركب عيسى المسيح الجحش، وكانت الطريق حتى تلك اللحظة له وللحواريين فقط، ولكنها امتلأت فجأة بالناس. فقد خرج سكان القدس حسب التقليد القديم ليرحبوا بقوافل الحجاج. ولكن هذه التحية لعيسى كان لها إثارتها الخاصة. كانت أخبار إقامة اليعازر من بين الأموات لم تُنس بعد أن ذهب عبر الأردن. وعندما انتشر الخبر بأنه سيدخل المدينة، أسرعت الجموع باتجاه بيت عنيا، وجاءت مندفعة إلى الطريق، لأنها كانت تفتقده.

صرخوا مرحّبين، ونزعوا أرديتهم ووضعوها على الطريق ولمسافة قصيرة قاد يوحنا الجحش الذي لم يجفل من الضجيج، أو يتمرد على راكبه، وإنما حمل عيسى المسيح إلى أعلى التل.

دخلوا بيت فاجي، وهي قرية بين الحقل وكروم الزيتون، في ضاحية من ضواحي القدس، وقد امتلأت بالحجاج الجليليين الذين تدفقوا للانضمام إلى الاحتفال. وكانوا قد قطعوا الأغصان من الأشجار التي تظلّل الطريق، وخصوصاً أغصان النخيل التي تعتبر رمزاً للانتصار. وكانوا يلوحون بها عند سيرهم أو يلقون بها أمام الجحش، لتكون سجاداً من الخضرة. وانشد بعضهم نشيد الترحيب التقليدي من أحد مزامير الصعود: «(خلصنا يا الله)، مبارك الآتي باسم الرب». وبدل آخرون الكلمات لتصبح بمثابة التسبيح لعيسى المسيح، وصرخوا قائلين: «مبارك الملك الآتي باسم الرب. السلام في السماء والمجد في العلى».

وصلوا الطريق الرومانية التي ازدحمت بالحجاج المقتربين من القدس. وعندما رأوا عيسى المسيح، تذكروا أعماله في الجليل وهتفوا بأناشيد التسبيح والفرح، حتى رجع الصدى عن جبل الزيتون. وشعر يوحنا بالسرور وهو في هذا الموكب الملكي.

صرخ الفريسيون وقد أصابتهم الصدمة، بصوت أعلى من الضجيج، وقالوا: «يا معلم، وَبِّخْ حوارييك!» وكان عيسى المسيح يرفض دائماً كل المحاولات المبذولة لجعله ملكاً، ولكنه أجابهم في هذه المرة، وهو يركب الجحش رمز السلام والتواضع: «أقول لكم: إذا صمت هؤلاء، فإن الحجارة سوف تصرخ».

كان جانب من التل، وعدد من القصور الموجودة على جبل الزيتون، وقسم من الأسوار، تحجب رؤية المدينة. وعندما كانوا على القمة الشمالية لجبل الزيتون، بدت القدس ظاهرة للعيان على بعد ميل إلى الغرب، وهي ترتفع شامخة من وادي قدرون السحيق نحو السماء الزرقاء. ومرة ثانية انبهر يوحنا بجمالها الماثل أمامه: لقد كانت الصخور المبعثرة، والقبور والمعالم الحجرية، والأسوار والأبنية الحجرية اللامعة، والمرمر في الهيكل، والقصور والذهب فوق القباب، والأبراج كلها، تتلألأ تحت أشعة الشمس الساطعة. والقدس في الحقيقة مدينة رائعة وعظيمة، ومعروفة في جميع أنحاء العالم. وكانت أكثر روعة بالنسبة إلى يوحنا في تلك اللحظة، لأنه رافق معلمه وصديقه المحبوب.

وفجأة أطلق عيسى المسيح صرخة مخيفة. التفت يوحنا ورأى الجحش في رسنه، وعيسى المسيح يبكي وهو ينظر إلى القدس. بكى قائلاً: «حتى أنت لو علمت بهذا اليوم، وعلمت بما يجلبه لك السلام! ولكن ذلك محجوب عن عينيك. «

وبدأ يذكر نبوءة مخيفة يصف فيها القدس، ليس كما هي الآن في قمة مجدها، ولكن كما سيراها يوحنا وهو مصاب بالرعب بعد أربعين عاماً: الحصار والهجوم والدمار والنيران، وأكثر من ألف رجل عادي مسمَّرين على الصلبان، بينما تُقاد النساء والأطفال إلى العبودية، كردٍّ من الرومان على الثورة والمقاومة الطويلة. وقال باكياً: «لن يتركوا حجراً على حجر. لأنك لم تدرك اللحظة التي جاء الله فيها لخلاصك!».
ولمس مطيته وتحرك الجميع.

استأنفوا أناشيدهم، واختلط سيل الحجاج في أسفل جبل الزيتون بسيل القادمين من عمواس والشمال، وازدحموا معاً باتجاه البوابة الشمالية المؤدية إلى شوارع المدينة والهيكل المرتفع. وقبل أن يصلوا إلى البوابة، اندفع جمهور من داخلها بحماس، اندفع المئات مسرعين لمشاهدة عيسى المسيح أثناء دخوله. ثم ساد جو من الفوضى بين الحجاج، وتساءلوا مَن القادم. وأجاب الجليليون الذين كانوا قد وصلوا قبلهم بفخر: «إنه عيسى المسيح. نبي من الجليل». ثم تزاحم سكان يهودا مع الحجاج والجليليين على المكان، بينما اقترب الموكب من البوابة، وعيسى المسيح وسط جمهور معجب به، ينشد ويلوح بسعف النخيل.

نظر الحراس الرومانيون من الأسوار إلى الجماهير الهائجة، وقد كانت الحامية في أقصى درجات التأهب في عيد الفصح، ولكن لم ير أحد من الحراس سبباً للقلق، لأن الضجيج والتجمهر كان طبيعياً، وخاصة عندما يحشر نصف يهود العالم أنفسهم في القدس. وظهر ذلك بالنسبة إلى أحد الحراس شيئاً مسلياً. وقال الفريسيون وهم يائسون: «ماذا نفعل؟ لقد تبعه كل العالم».

ساحات الهيكل :

أصاب الحواريين شيءٌ من الحَيرة من تصرُّف عيسى المسيح في مساء الليلة الماضية، إذ لم يعمل على استغلال دخوله الملوكي من أجل الاستيلاء على السلطة السياسية، أو لتأجيج الحماس الديني. ثم قام بإرجاع الحمارين إلى صاحبهما، وسمح لعامة الناس بالذهاب، ودخل الهيكل ورأى ما ينبغي عمله، ثم ذهب بهدوء قبل الظلام إلى بيت عنيا. وسار بهم في الصباح إلى أسفل جبل الزيتون، عبر الممر المنحدر الذي تجنب نزوله مع الحمير، ثم عبر وادي قدرون. وكان يوحنا يتساءل عما يدور في ذهنه.

صعدوا من الوادي، وبينما كانوا يقتربون من شوشان أو البوابة الجميلة للهيكل، سمعوا ثغاء الحملان وخوار الأبقار وصراخ التجار. وعند عبورهم البوابة إلى الساحة الفسيحة المخصصة لغير اليهود، واجههم صخب سوق شرقية، كان قيافا قد أقامها قبل ثلاث سنوات بسبب طمعه، وذلك قبل قدوم يوحنا إلى القدس مع عيسى المسيح بعد عرس قانا بفترة قصيرة. واستطاع أن يتذكَّر جيداً كيف

استطاع عيسى المسيح أن يصنع سوطا من خيوط غطاء رأسه، ليطرد الأبقار والخراف من الهيكل. وأغضب عمله هذا السلطات التي سمحت باستئناف التجارة في ما بعدُ.

وقف عيسى المسيح في تلك اللحظة يشاهد المنظر. وكان الصيارفة يجلسون في الساحة، وتحت الأعمدة؛ فقد كان على الحجاج دفع ضريبة الهيكل بعملة معينة. وكانت القطعان تملأ الساحة الواسعة المكشوفة، حتى يقدّم كلُّ متعبِّدٍ الأضاحي أثناء أيام العيد السبعة، وكانت هذه الأضاحي أربعة عشر ثوراً وسبع معزات وعدداً من الكباش وتسعة وأربعين حملاً. وذبح في الفصح الأخير قبل حصار الرومانيين للقدس أكثر من 255000 حَمَل. وكان المكان الصحيح للسوق يقع على منحدر جبل الزيتون وليس في ساحة غير اليهود. وكان الاتقياء من غير اليهود، والذين مُنعوا تحت طائلة عقوبة الموت من دخول الساحات الداخلية، يحاولون الصلاة وسط الضجيج.

راقب عيسى المسيح المشهد ثم أنصت برهة. ثم ملأ رئتيه بالهواء، وبصوت ارتفع فوق الثغاء والخوار وصراخ الباعة والجدال، ذكر نصوصاً من سفر الأنبياء واشعيا وارميا: «جاء في الكتاب: سيُدعى بيتي بيت صلاة من كلّ الأمم، ولكنكم جعلتموه مغارة يرتادها اللصوص!» ويعني باللصوص أئمة اليهود.

وسار نحو أقرب صفٍّ من طاولات الصيارفة، والتصميم بادٍ على وجهه، فقلبها الواحدة تلو الأخرى. وقعت النقود على الحجارة المرصوفة بالساحة وتدحرجت بعيداً. وطفق يقلب مقاعد باعة الحمام، وطرد القطعان باتجاه البوابة. وكان يردّد الآيات التي تشجب البيع والشراء في الهيكل. ولم يصنع في هذه المرة سوطاً، ولكن غضبه القوي والمعروف كان كافياً، وانتشر الذعر بين الجمهور وشعر التجار والزبائن بخطئهم.

قام الحواريون بمساعدة عيسى المسيح، وتأثروا بغضبه ،لكن يوحنا تأثر أكثر من غيره بالتعابير الموجودة على وجهه: ليس بقوته الأخلاقية فقط، وإنما بالغيرة والمحبة. استطاع يوحنا أن يلمس المحبة التي حركت عيسى المسيح: محبة الله وهيكله، محبته للمخدوعين، محبته للتجار والرعاة الذين وقعوا في فخ التدنيس لطمعهم وعاداتهم السيئة، ومحبته للسلطات التي خانت أمانة المحافظة على الهيكل. وشعر الجميع بالذهول، فلم يتمكّنوا من التدخُّل أو عمل أي شيء.

كانت الساحة تفرغ بسرعة، وتُركت فيها فضلات الذبائح والنقود المنثورة والطاولات المقلوبة. وسار عيسى المسيح إلى البوابة التي كانت تؤدي إلى المدينة. فأوقف اندفاع الرجال والنساء، الذين استعملوا منطقة الهيكل بشكل غير لائق كطريق مختصرة إلى الأسواق. ولم يستطع الكهنة وحراس الهيكل أن يعترضوا على تطبيقه لأنظمتهم. وأصبحت الساحة الآن هادئة.

وفجأة سمع يوحنا الذي استعاد أنفاسه صوتاً مختلفاً: نقر عصي وحركة أقدام المقعدين؛ فقد كان العميان والعرج يدخلون إلى الهيكل ليبحثوا عن عيسى المسيح. ورأى يوحنا الفريسيين يرفعون أيديهم برعب في تلك اللحظة: لأنهم وضعوا الشرائع التي لا تسمح للعميان والعرج أن يظهروا أمام الرب في هيكله، أو أن يقدِّموا التقدمات، وقد جلس القليلون من المنبوذين بالقرب من البوابات الداخلية، ولكن عيسى المسيح رحَّب في الحال بهؤلاء المنبوذين، وبدأ بشفائهم، بحيث قفز العرج، وأبصر العميان.

ثم حدث مشهد مؤثر لا يُنسى، خصوصاً لبطرس، عندما أتى الأولاد والبنات، واندفعوا إلى الهيكل، رغم عدم سماح الطقوس لهم بذلك، ورقصوا حول عيسى المسيح وهم يصرخون: «المجد للمسيح»، حتى ثار رؤساء الكهنة والكتبة غضباً. ويجب التنبيه إلى أنه يمكن التغاضي عن التجارة في الهيكل واستعماله كطريق مختصر، أما صراخ الأطفال في الساحات المقدسة فإنه يهين قداسة المكان. ومما زاد الأمر هولاً مناداتهم بعيسى المسيح ملكاً على اليهود. فأُصيب المسؤولون بالرعب. وأسرعوا نحو عيسى المسيح قائلين: «هل تسمع ما يقوله هؤلاء الأطفال؟».

أجابهم: «نعم، ألا تذكرون الآيات المقدسة: من أفواه الصغار والأطفال أخرجت كلام الحمد؟».

كانت كلماته بالنسبة إلى يوحنا، تبدو إجابة غضبانة أكثر منها نداء حزيناً، كما لو أنه توسل مرة ثانية أن يفتح القادة الدينيون عيونهم على الحقيقة.

لم يجيبوه، وشكر الأطفال، وشفى المقعدين الباقين، وأدار ظهره لمناوئيه وغادر الهيكل.

في صباح يوم الثلاثاء، وبعد أربع وعشرين ساعة، نزل الحواريون مع عيسى المسيح ثانية عن جبل الزيتون، وساروا من بستان الجسمانية وعبر وادي قدرون، ثم صعدوا إلى الأعلى تحت الأسوار البيضاء، حتى دخلوا الهيكل مرة ثانية. ووجدوا أن القطعان والصيارفة قد ابتعدوا عن الساحة.

لاحظ الكثير من الناس وصول عيسى المسيح، وتجمَّعوا حوله. وقبل أن يصل إلى أحد الأروقة التي تحيط بها الأعمدة لكي يعلّم فيه، أوقفته مجموعة من رؤساء الكهنة والكتبة وأعضاء المجلس اليهودي الأعلى، وكان يحيط بهم عدد من حراس الهيكل، الذين بدا أنهم كانوا ينتظرون ظهوره. وأرادوا أن يعرفوا مَن أعطاه السلطة للقيام بالأعمال التي قام بها في اليوم السابق. وكان سؤالهم يتضمَّن التهديد، لأن السلوك غير المسموح به داخل بنايات الهيكل يُعاقَبُ عليه. ويمكن أن يَضربَ صاحبَهُ حراسُ الهيكل.

لم يجفل، ولم يُجِبْ. وبدلاً من ذلك ألقى عليهم السؤال: «معمودية النبي يحيى أهي من الله أم من البشر؟ أجيبوني عن هذا السؤال، وأنا أقول لكم من أين سلطتي لعمل هذه الأشياء».

وضعهم هذا السؤال في مأزق كبير. فتراجعوا لكي يتجادلوا حول هذه النقطة، بينما انتظر عيسى المسيح الجواب، واستمتع الجمهور بالحرج الذي أصاب المسؤولين، لأنهم إذا اعترفوا بأن معمودية النبي يحيى كانت من السماء، يكونون قد أجابوا على سؤالهم: لقد بشَّر النبي يحيى بعيسى المسيح، كابن الله، و«المسيا» أي المسيح. ويستطيع المسيح فعل أي شيء يرغبه في هيكله. وتشاوروا وقال بعضهم لبعض: «إذا قلنا من البشر، فإن الشعب سوف يرجمنا بالحجارة. لأن كل واحد يؤمن بأن النبي يحيى نبي صالح».

وأجابوه أخيراً قائلين، وقد علا الخجل وجوههم: «لا نعرف». فقال لهم عيسى المسيح: «وأنا كذلك لا أجيبكم عن سؤالكم، ولا أقول لكم مَن أعطاني السلطة لأعمل ذلك أيضاً«

عرف الجمهور بصورة طبيعية ما هي سلطته. وبينما ذهب ممثلو الحكام للتآمر على إسقاطه، جلس الناس ليستمعوا. وجلس عيسى المسيح في ذلك اليوم وفي اليوم التالي لساعات طويلة وهو يعلم. لم يكن يخاطب جمهوراً كبيراً كما كان يفعل في الجليل، عندما كان صوته مسموعاً وواضحاً عبر سفوح التلال أو على الشاطئ، وإنما تكلم هنا بشكل حميم. واستمع إليه تحت ظلال الأعمدة الحواريون وأمه ومريم الأخرى ومرتا واليعازر وسالومي، والكثيرون ممن لم تُعرف أسماؤهم للأجيال المقبلة.

وكان يقف خلفهم تحت أشعة الشمس، وفي أوج الحر بعد الظهر الغابر، مستمعون من مختلف الأنواع من الحجاج، ومواطنون من غير الحجاج وكهنة ولاويون، وعدد من الناس الذين كانوا يتوقفون برهة وهم في طريقهم إلى تقديم القرابين أو الطقوس في الساحات الداخلية. ومكث بعضهم حتى الغروب، وتجول آخرون مشغولين بتقديم الواجبات للهيكل أو التحضيرات للعيد.

تكلم عيسى المسيح بصراحة عن ضعف الإيمان والرياء ورجال الدين ومصير الأمة. وسرد قصصاً تنبض بالحياة، لكي ينقل تنبيهاته بصورة ضمنية، إنما تصيب صميم الأمور. مثل قصة الكرم الذي تم تأجيره لمستأجرين رفضوا إعطاء صاحب الكرم حصَّته من حصاد العنب، وأساءوا معاملة الرسل الذين أرسلهم أو قتلوهم. وعندما أرسل ابنه الوحيد الحبيب، توقع أن يحترموه. وبدلاً من ذلك قتلوه وطرحوه خارجاً وقالوا: «حتى يكون الميراث لنا». وعندما أصغى يوحنا، عرف أنه إذا لم يكن لصاحب الكرم وريث، ولم يفعل شيئاً، فإن الكرم سيؤول قانونياً إلى المستأجرين. ولكنه لم يدهش لردِّ فعل المستمعين، عندما طرح السؤال التالي: «عندما يأتي صاحب الكرم، ماذا سيفعل بهؤلاء المستأجرين؟»

»هل سيقتلهم ويؤجر الكرم إلى آخرين يؤدون له حصته وقت الحصاد؟«

نظر إليهم طويلاً، وحذَّر قائلاً بصرامة، إن الله سيأخذ المُلك من الشعب اليهودي ويعطيه للآخرين.

وأُبلغ رؤساء الكهنة بأقوال عيسى المسيح هذه، وغضبوا لهذا الهجوم. وأتت في الحال مجموعة من حراس الهيكل إلى طرف الجمهور من أجل تفريقهم، ولكي تقبض على عيسى المسيح. ورأوا بأن الجموع تتمسك بكلامه. وحتى لا يجازفوا بحدوث شغب حسب التعليمات الصادرة لهم، تركوه وانصرفوا.

ثم روى لهم عيسى قصة الملك الذي أقام وليمة للاحتفال بعرس ابنه، ولكن كبار الضيوف أرسلوا اعتذارهم أو ضربوا رُسُلَ الملك أو قتلوهم. فأمر الملك جيشه أن يعاقبهم، وأرسل خَدَمَهُ في الشوارع والطرقات ليُحضروا الفقراء والعرج والعميان والأشرار والأخيار إلى وليمة العرس، ولما كان لا يزال هناك أمكنة فارغة، أمرهم قائلاً: «اذهبوا إلى الطرق وأطراف البلاد، وأرغموهم أن يأتوا حتى يمتلئ بيتي. وسوف لا يأكل من وليمتي هؤلاء الذين دُعوا أولاً».

واستمر عيسى المسيح في تعليمه، وأصبح الجمهور كبيراً، وامتد في المنطقة التي تناثرت فيها حظائر الخراف. ثم رأى يوحنا قسماً من الجمع يعود إلى الوراء لفتح المجال أمام موكب صغير من الشباب المتكبرين، وهم طلاب مدرسة دينية مع ضباط في جيش هيرودس. ساروا حتى وصلوا إلى عيسى المسيح، ثم تنحنح أحدهم محاولاً إخفاء عدم إخلاصه، وخاطب عيسى المسيح قائلاً: «يا

معلم، نحن نعلم أنك رجل صدوق، وتعلّم بالحق طريق الله، ولا تداري الناس، ولا تنافق في شيء، ولا تهتمُّ بدرجات الناس. أخبِرْنا رأيك: أيحلُّ دفع الجزية لقيصر أم لا؟»

أحس يوحنا بضيق شديد وخوف على عيسى المسيح لأنه أصبح الآن في مأزق. إذا قال نعم، فإنه سيُعتبر مع الاحتلال الروماني. وإذا قال لا، فإن الفريسيين الذين أرسلوا الطلاب والضباط سيشكونه إلى الرومانيين الذين لم يهتموا بالجدل اليهودي، ولكنهم يصلبون كل مَنْ يثير الفتنة. لم يستطع يوحنا أن يرى مخرجاً.

وبدون توقف أجابهم عيسى المسيح: «يا منافقين! لماذا تحاولون الإيقاع بي؟ هاتوا ديناراً ودعوني أنظر فيه؟»

أحضر شاب قطعة نقود.
فسألهم: «لمن هذه الصورة وهذه الكتابة؟«
قالوا: «إنها لقيصر».
فأجابهم: «أعطوا قيصر ما يحمل صورة قيصر، واعطوا الله ما يحمل صورة الله».
فتعجبوا مما سمعوه وخجلوا وانصرفوا. وسوف يُشرح هذا الجواب ويُفسَّر، ويُعلق عليه ويُقتبس إلى ما لا نهاية. كما أنه سيظل الشرك الذي نصبوه له.

عاد المناوئون لعيسى المرَّة تلو الأخرى. ووجد يوحنا نفسه يستمع إلى جدال كبير. كان يسمع في الجانب الأول المحامين الخبثاء والكتبة والفريسيين، الذين شعروا بأهميتهم في ثيابهم البيضاء، إضافة إلى الصدوقيين المهتمِّين بالسياسة، والطلاب المتلهفين لإظهار حماستهم ومهارتهم اللغوية. وجلس في الجانب الثاني عيسى المسيح وله من العمر 33 عاماً، وكان يرد على هجومهم بلا ادعاء أو عجرفة أو سوء نية.

وظهر من خلال جدالهم لعيسى المسيح وكأنهم قد صمموا على تحطيمه. وكان يتكلَّم بالحق، ولكنه كان يبدو ضعيفاً أمام وزن المعارضة الرسمية. وعلم يوحنا بأن المجلس اليهودي الأعلى نفسه كان يضم مَن آمن به والتزم الصمت، لأن الفريسيين هددوا بالحرمان الديني كلَّ الذين انضموا إليه. وإذا كانت لديهم القوة على إجبار الأقوياء على الصمت، فإنهم سيجدون الوسائل لإسكات عيسى المسيح إلى الأبد. وبدا عيسى المسيح كأنه يتجاهل الخطر المُحدَق به، أو أنه كان يجلب الخطر لنفسه. واستمرَّ في طرح أقواله الموجَّهة ضدهم دون حلٍّ وسط. ولم يتردَّد في شجب الزعماء الدينيين بعبارات واضحة، مما زاد من غضبهم.

توالت الأحداث، واتجهت نحو ذروتها، وامتلأت المدينة والهيكل بالجماهير الغفيرة الهائجة. وبينما كان عيسى المسيح يعلّم، سمع يوحنا أصوات الأبواق الرومانية من قلعة أنطونيا، التي كانت تشرف على الهيكل من الشمال الغربي، وعرف أن الحاكم الروماني بيلاطس البنطي، قد وصل من قيساريا. وكان يقيم دائماً في القدس أثناء عيد الفصح، ليكون متواجداً في حالة حدوث المشاكل التي يمكن أن تقع أثناء العيد. وكان هيرودس أمير الربع في قصره، وكانت العلاقات بين الاثنين سيئة.

شعر يوحنا بأن الظروف أقوى مما يتوقَّع، ولكنه استمد القوة من هدوء عيسى المسيح وثباته، ولم يستطع التخلص من الشعور بالتهديد الذي يحوم حوله.

لم يفهم يوحنا ماذا كان يحدث، ولكن مفتاح اللغز أتى عندما جذب بطرس بثوبه، وأشار إلى اندراوس وفيليبس وهما يرافقان بعض اليونانيين بين الجمهور لكي يلتقوا بعيسى المسيح. وبعد ذلك علم يوحنا أن الرجال اقتربوا من اندراوس والذي كان (مثل بطرس وفيليبس) مولوداً في مدينة غير يهودية، وقالوا إنهم يرغبون في رؤية عيسى المسيح. وشعر اندراوس بالقلق، لأن المسيح قد لا يقبل التحدث إلى غير اليهود في الهيكل.

وبحضور اليونانيين الذين جاءوا من بلاد بعيدة أمامه، أعلن عيسى المسيح بصورة رسمية: «لقد أتت الساعة التي يُمجَّد فيها ابن الإنسان! ما لم تقع حبة الحنطة على الأرض وتموت، فلن تثمر. وإن ماتت فسوف تعطي ثماراً كثيرة». شرح الموضوع بصورة أوضح، ثم قال: «نفسي الآن مضطربة». هل تعتقدون أني سأقول: «أيها الآب خلصني من هذه الساعة؟ كلا، لأنه من أجل هذه الساعة أتيت». ثم رفع عينيه وصوته إلى السماء، وقال بصوت عال: «أيها الآب مَجِّدَ اسمك!».

تردَّد صوت مثل الرعد في جميع أرجاء الساحة، وكانت السماء صافية. «لقد مجَّدتُه وسوف أمجِّدُه». سمع يوحنا وبطرس ويعقوب صوتاً مثل الصوت الذي سمعوه على جبل الشيخ. وقال الناس إنه الرعد. ثم تكلم عيسى المسيح ثانية: «لقد كان ذلك الصوت لأجلكم وليس لأجلي. والآن تأتي الدينونة على هذا العالم، والآن سوف يُطرد حاكم هذا العالم».

ونظر طويلاً إلى اليهود واليونانيين وقال: «متى ارتفعت إلى أعلى جذبت الجميع إلي». تجمَّد قلب يوحنا عندما تذكر كلماته السابقة إليهم: «سيصلب ابن الإنسان».

العُلِّيَّة :

أنهى عيسى المسيح تعليمه بعد ظهر يوم الأربعاء، وصعد الدرج المؤدي إلى ساحة النساء حيث يُسمح لليهود فقط بالسير هناك. وكان اللاويون ينشدون أمام المدخل المؤدي إلى ساحة الكهنة، التي تحتوي على المذبح وقطعة الرخام التي تُقدَّم عليها الذبائح. وترتفع في الخلف البناية الرخامية، حيث أغلق ستار عظيم قدسَ الأقداس. وكان لا يُسمح بالدخول إليه سوى لرئيس الكهنة مرة واحدة في السنة.

جلس عيسى المسيح بالقرب من خزنة التقدمة، وراقب المتعبِّدين وهم يتبرَّعون بالنقود. رأى تاجراً يرتدي ملابس ثمينة وهو يقذف بكيس مليء بالذهب في أحد صناديق التقدمة التي كانت تشبه البوق. وجاء فريسيٌّ منافق، كان ينظر حوله ليتأكد أن هناك مَن يراه وهو يضع تقدمته في الصندوق، حتى يذيع صيته ويُشكر على ذلك. وكان بعض الحجاج يلقون النقود أحياناً، بينما أظهر عدد من المواطنين عدم الرضى وهم يؤدون التزاماتهم. ثم جاءت امرأة مسنة صغيرة الجسم إلى صندوق التقدمة، وكانت ترتدي ملابس رثة. وقفت برهة وأحنت رأسها وهي تصلِّي، وارتسمت على وجهها تعابير العبادة والحبور، ثم بحثت في محفظتها وهزَّتها في يدها. وكان كلُّ الذي سقط منها قطعتين صغيرتين من البرونز، وهي الأقل قيمة في العملة اليهودية، وتساوي ربع القطعة الرومانية النحاسية. أخذت المرأة القطعتين ووضعتهما بسعادة في الصندوق، ورجعت إلى الوراء بخطى خفيفة، ولم تشعر بأن أحداً يراقبها.

جذب عيسى المسيح انتباه الحواريين وقال بسرور: «لقد وضعت هذه الأرملة الفقيرة في الخزنة أكثر من الآخرين! إنهم أعطوا شيئاً من ثروتهم، أما هي، فمع حاجتها وفقرها ألقت كلَّ ما تملك!

نهض وبدأ يقودهم خارج الهيكل، ولكنهم كانوا يرغبون في مشاهدة المزيد. وأشاروا إلى حجارة البنايات العظيمة التي زُيِّن بعضها بالحجارة الكريمة، وإلى روعة الأعمدة والأقواس، وسلالم الدرج، وبوابات الذهب واللؤلؤ.

بدا عيسى المسيح عابساً وقال: «هل ترون كل هذه البنايات العظيمة؟ سيأتي زمن لا يبقى فيه حجر على حجر، وسوف تُهدم كلها». وبقي عابساً حتى نزلوا إلى وادي قدرون، وتسلَّقوا الممرَّ المؤدي إلى جبل الزيتون، إلى مكانه المفضل للصلاة، بستان الجسمانية. جلس ونظر إلى المدينة، وامتلأت عيناه بالدموع.
تحدَّث يوحنا ويعقوب وبطرس واندراوس بصوت خافت فيما بينهم، ثم ذهبوا إليه وقالوا: «أخبرْنا، متى سوف يحدُثُ كلُّ هذا؟».

وبدأ عيسى المسيح إجابته بصورة مفصلة، فوصف الأحداث المخيفة للحرب اليهودية، وسقوط القدس، ووصف المعاناة الكبيرة في جميع أنحاء العالم، والتي ستكون مقدمة لعودته بالمجد. وبينما كان يوحنا ينصت إلى حديثه، رسم في ذهنه صورتين مختلفتين لمرحلتين تاريخيتين فاصلتين، الواحدة تلو الأخرى، دون أن يدرك الفترة الزمنية بينهما. حثهم عيسى المسيح بشكل متكرِّر عن طريق تقديم الأمثال قائلاً: «كونوا مستعدِّين ويقظين». وحذَّرهم بكلام صريح من أجل الاستعداد لتحمل الصعوبات بسبب ما يعتقدون ويحملون من شريعة موسى!

كان يوحنا قد استمع إلى الحاخامات يتحدثون عن نهاية العالم، ولم تكن احتمالات الاضطرابات العالمية والدنيوية الأخيرة غريبة على أي من الحواريين. ولكن عيسى المسيح تحدَّث بصورة تختلف عنها، لأنه جعل نفسه مركز جميع الأحداث كابن الإنسان. وصوَّر لهم الأحداث مبيِّناً أن التاريخ يتحرَّك نحو عودته بالمجد. ولأن الآب وحده يعرف اليوم والساعة، فإن عليهم أن لا يشكّوا أبداً في حدوث ذلك. السماء والأرض تزولان «ولكن كلامي لن يزول».

وكانت ظلال المساء ترتسم على المدينة عند غروب الشمس، عندما روى لهم مثلاً آخر، شبه فيه الناس الذين يجتمعون من جميع الأمم أمام عرشه للدينونة الأخيرة بالخراف والغنم. ويقوم الملك مثل الراعي بفصل الخراف عن يمينه والغنم عن يساره. ويدخل «الخراف» إلى الميراث الأبدي، ويخاطبهم قائلاً: «لأني كنت جائعاً فأطعمتموني، وعطشاناً فسقيتموني، وغريباً فآويتموني، وعرياناً فكسوتموني، ومريضاً فعدتموني، وسجيناً فزرتموني».

وتحتار «الخراف» فتسأل: «متى كان ذلك؟» فيجيبهم الملك قائلاً: «عندما فعلتم ذلك لأحد من إخوتي الصغار هؤلاء، فكأنكم قد فعلتموه بي». ثم يحكم الملك على «الغنم» بالعِقاب، «لأني كنتُ جائعاً فلم تطعموني، وعطشاناً فلم تسقوني..»، ولا تتذكر «الغنم، وتتساءل متى جوَّعَت الملك، أو تركته عطشاناً أو عرياناً، أو مريضاً أو سجيناً. ولكن الملك يرفض العذر: «لأنكم إن لم تفعلوا ذلك لأحد من إخوتي الصغار هؤلاء، فكأنكم لم تفعلوه لي». وإخوته الصغار هم كل أطفال العالم.

وبعد أن استوعب الحواريون بصمت هذا المَثَلَ، قال لهم بهدوء: «تعرفون أن الفصح يقع بعد يومين، وفيه يُسَلَّمُ ابنُ الإنسان ليُصلَبَ».

قادهم راجعاً في المساء إلى بيت عنيا. وساروا بصمت تحت ضوء قمر عيد الفصح، وقد بقي له يومان ليكون بدراً. وأصاب يوحنا خوفٌ شديد ،خالطه شيء من عدم التصديق.

نام دون أن يرتاح في تلك الليلة الأخيرة، التي سوف يقضونها في بيت عنيا، لأنه يجب قضاء ليلة عيد الفصح داخل أسوار المدينة. خاف يوحنا على سلامة عيسى المسيح، ولكنه شعر بالارتياح في الصباح عندما أراه بطرس سيفين قصيرين. وشعر بالراحة بصورة أكبر عندما لم يذهب عيسى المسيح إلى القدس، وإنما استيقظ باكراً وذهب ليُمضي الصباح وحيداً في البستان على جبل الزيتون، بعيداً عن المستمعين والمناوئين. وجلس الحواريون على مقربة منه ليسمعوه، ورغم أن السلطات لم تكن راغبة في المجازفة بحدوث شغب، إلا أن رؤساء الكهنة جعلوا الظروف مهيئة للقتلة.

وذهب يهوذا الأسخريوطي الذي كان قيِّماً على أموال الحواريين ويدير شؤونهم، من أجل أن يشتري لهم حَمَلَ عيد الفصح. كان على كل بيت أو مجموعة من الحجاج أن تضحي بحَمَلٍ ذَكَرٍ عمره أقلُّ من سنة وتأكله في الفصح. مرَّ الوقت ولم يَعُدْ يهوذا، وتساءل يوحنا بَحيرةٍ عن سبب تأخُّره، ولكنه لم يشكَّ في شيء.

ولم يعرف يوحنا أن يهوذا قد تحول في طريقه عن السير إلى سوق الخراف، وذهب إلى قصر رئيس الكهنة. اقترب خفية، ثم أظهر نفسه بأنه مخبر عن عيسى المسيح الناصري، فسمح له بالدخول في الحال :كان المخبر أمل رئيس الكهنة في القبض على عيسى المسيح دون حدوث شغب.

سأله يهوذا: «ماذا تعطيني إذا سلَّمته لك؟«

قدّر يهوذا ثمن عطر الناردين الذي كان بحوزة مريم في بيت عنيا بثلاثمائة قطعة نقود رومانية فضية صغيرة. وكانوا يستعملون في بيت رئيس الكهنة قطعة نقود يونانية أكبر من هذه، وتساوي الواحدة ثلاثاً من القطع الرومانية تلك. واحصوا ثلاثين قطعة وهي أقل من ثلث قيمة ناردين مريم. ولقاء هذه القطع الثلاثين من الفضة وَعَدَهُم بتسليم عيسى المسيح بهدوء.

وبعد أن عرف ما دار بين يهوذا ورئيس الكهنة، فكَّر الجميع بدافع يهوذا. اعتقد يوحنا أن إبليساً قد دخل إلى نفسه. وكانت أكثر التخمينات تقول، إنها خيبة الأمل والطمع والغيرة، لأن عيسى المسيح رفض القيام بثورة، واعتقد أنه إذا قُبض عليه، فسوف يستدعي القوات السماوية لنجدته، ويؤسِّس مملكته على الأرض.

وبعد مغادرته للقصر، اشترى يهوذا حَمَلاً وأخذه راجعاً إلى بيت عنيا، حيث أمضى هذا الحَمَلُ الساعاتِ مثل آلاف الحملان الأخرى، وهو مربوط في الظل، والعشب أو التبن والماء في متناوله. ولم يشكَّ بأن دمه سوف يُسفك في الفجر. وانضمَّ يهوذا إلى زملائه الذين لم يداخلهم الشك، مثلهم مثل الحَمَل.

واقتربوا جميعاً بعد الظهر من عيسى المسيح ليسألوه عن المكان الذي يجب أن يجهِّزوا فيه وليمة عيد الفصح، ولكنه لم يُجِبْ عن السؤال مباشرة. لم يخبر الحواريين جميعهم عن المكان بالتحديد، لأنه كان لا يريد تعكير صفو آخر عشاء له معهم، ولكنه أعطى تعليمات مفصَّلة ليوحنا وبطرس حول هذا المكان.

أسرعا وأحضرا الحَمَلَ وحملاه إلى القدس. وبينما هما داخلان رأيا تماماً كما أخبرهما عيسى المسيح، رجلاً مميزاً عن الجمهور يحمل جرة ماء من الخزف على كتفه: وكانت النساء تحمل مثل هذه الجرار، وأما الرجال فكانوا يحملون القِرَبَ الجلدية. ثم قادهما بصمت عبر الشوارع والوادي الذي كان يقسم المدينة، وصعدوا إلى الزاوية الجنوبية الغربية من المدينة العليا، واستطاع يوحنا أن يرى الهيكل في الجهة الشرقية وقصر هيرودس في الجهة الغربية. ثم توقف الرجل الذي كان يحمل الماء أمام بيت واسع.

حياهما والد يوحنا مرقس، وهو رفيق المستقبل لبرنابا وبولس. وقال بطرس كما أخبره عيسى المسيح: «المعلم يسأل: أين الغرفة التي سيأكل الفِصح فيها مع حوارييه؟» انحنى المضيف مرحِّباً بهما، ولم يرافقهما إلى غرفة الضيوف العادية، بل إلى غرفة كبيرة في الطابق الثاني. وهي غرفة هادئة وجاهزة ومؤثَّثه بوسائد وطاولة منخفضة. ثم أخذا الحَمَلَ إلى الهيكل وانضمَّا إلى الجماعات التي تنتظر دورها على المذبح.

كانت البوَّابات الكبيرة مفتوحة إلى الساحة الداخلية. وسمع يوحنا أثناء دخولهما إنشاد اللاويين ونفخهم في الأبواق. وكانت النيران ورائحة الدم قد ذكرته بالتعاليم القديمة، وهي أن تضحية البريء نيابة عنه كانت ثمن سلامته الأبدية. وعندما جاء دورهما، أمسك يوحنا بالحَمَل، بينما أمسك كاهن (يرتدي الثوب الأبيض) بطشت ذهبيّ، لجَمْع دَم الحَمَلِ عندما حزَّ بطرس عُنُقَهُ. مرَّ الطشت من كاهن إلى آخر، حتى سكب الكاهن الأخير الدم على قاعدة الهيكل.

سلخت الأيدي الماهرة الحَمَلَ الذبيح، وقد مُدِّد على سطح خشن، بين أكتاف بطرس ويوحنا، وأزالوا أحشاءه لحرقها، وحرصوا أن لا تُكسَر عظمة واحدة من عظامه. غادر الحواريان الهيكل وهما يسمعان أصوات الأبواق والأناشيد وثغاء الحملان التي تنتظر الذبح، وحملا الحَمَلَ إلى بيت يوحنا مرقس. وجَهَّزت رودا الخادمةُ الفرنَ لشواء الخروف، بينما وضعت على الطاولة أعشاباً مُرَّةً، مع الحساء والنبيذ والفطيرة والمستلزمات الأخرى لوليمة عيد الفصح.

وعند المساء، وقبل أن يبدأ الفِصح بقليل، وفي تمام الساعة السادسة مساء، سمعوا عيسى المسيح يصعد الدرج إلى العلية مع الحواريين العشرة. قبّل يوحنا عيسى المسيح قبلة السلام بعاطفة صادقة، وشعر بالراحة لأنه اجتاز المدينة بسلام. وكان يهوذا الأسخريوطي لا يعرف أين يقصدون، ولم يأخذ قطع النقود الفضية الثلاثين بعدُ، وحيّاه يوحنا الذي لم يشكَّ به أدنى شكٍّ، بالحرارة نفسها التي حيا بها بقية الحواريين.

كان يوحنا قد وضع ثلاث عشرة وسادة بشكل حُدوة فرس حول الطاولة المنخفضة: ثلاث وسائد إلى الأعلى، وخمس وسائد إلى كل جانب، وأبقى أسفل الطاولة مفتوحاً للخدمة. ويجب على كل شخص في عيد الفِصح أن يتكئ لا أن يجلس. أخذ عيسى المسيح مكان رب البيت في أعلى الطاولة، وارتكز بمرفقه الأيسر بالطريقة العادية، وامتدت قدماه بعيداً عن الطاولة، وجعل يده اليمنى لتناول

الطعام. مال يوحنا إلى يمين عيسى المسيح مباشرة، وأخذ بطرس أسفل الطاولة إلى يساره، واستعد ليُحضِرَ الحَمَلَ المشويَّ في اللحظة المناسبة. وأسرع يهوذا إلى الأعلى إلى الوسادة الأخرى بجانب عيسى المسيح، وهو المكان الذي يحتلُّه كبير الضيوف (الضيف الذي يتكئ إلى يسار المضيف يجب أن ينظر إليه من الأسفل)، واعتبر يهوذا هذا المكان خاصاً بأمين الصندوق. واندلعت مشاجرة بين الحواريين على هذه الحادثة، ولكن عيسى المسيح أوقفها.

وفيما هم يأخذون أماكنهم، نظر عيسى المسيح حوله إلى هؤلاء الأصدقاء خاصته، وقال: «آه، كم اشتقت أن آكل هذا الفِصح معكم قبل أن أتألم، لأني لن آكله مرة ثانية حتى يتمَّ في ملكوت الله». لم يفهم يوحنا المقصود بذلك.

نهض عيسى المسيح، وبدأ العشاء بالاحتفال التقليدي، بتقديم الشكر على أول أربع كاسات أمامه قائلاً: «مبارك أنت أيها الرب الإله، ملك العالم الذي خلقت ثمرة الكرمة». كانت افتتاحية طقوس الفصح مألوفة، ولكنه عندما أعطى الكأس ليشربوا منها جميعهم، كسر الصمت المألوف وقال: «سوف لا أشرب ثمر الكرمة ثانية، حتى يأتي ملكوت الله»، ولم يفهم يوحنا ثانية.

وكان على ربِّ البيت أو الجماعة أن يقوموا بغسل أيديهم بطريقة احتفالية قبل الأكل. نهض عيسى المسيح ثانيه من مكانه، ولكنه لم يضع يديه في الطشت. وبدلاً من ذلك نزع ثوبه، وكان يوحنا ينظر إليه بحَيرة، وكان قميصه منسوجاً كله من الأعلى إلى الأسفل بدون غرزة، ووقف عاريا من ثيابه حتى حقويه مثل العبد. ولم ينس يوحنا المحبة والرقة والهدوء على وجه عيسى المسيح عندما لفَّ منشفة حول خصره، وأخذ الطشت وركع ليغسل قدمَيْ يهوذا. ثم جفَّفهما بالمنفشة، ثم غسل قدمَي التلميذ التالي. وراقبه الحواريون بصمت تام، بينما عمل كما لو كان أحقر عبد لهم. وعندما جاء إلى بطرس، قال للمسيح بدهشة: «يا رب.. أتغسل قدميَّ؟» فأجابه: «أنت لا تعرف ماذا أصنع الآن لكَ. ستفهم ذلك في ما بعدُ».

أصابت بطرس صدمةٌ من ذلك، فسحب رجليه إلى الخلف وقال: «لن تغسل رجلي أبداً!».
أجابه عيسى المسيح: «إن لم أغسل رجليك فلا نصيب لك معي».
فقال له بطرس: «يا رب لا تغسل رجلي فقط، وإنما يدي ورأسي».

هزَّ عيسى المسيح رأسه. وذكرهم أن الرجل عندما يعود إلى بيته من الحمامات، يحتاج فقط إلى غسل قدمَيْه، وأنتم أطهار، ولكن ليس جميعكم». قال ذلك وهو يجفِّف قدمي بطرس.

كانت قَدَمَا يوحنا آخر قدمَيْن يغسلهما عيسى المسيح. قَبِلَ يوحنا هذا الشرف بتواضع وامتنان. ثم لبس المسيح ملابسه، واتكأ ثانية على وسادته، فيما أحضر بطرس طبق الحمل.

وفيما هم يأكلون، كان يعلّمهم. وتمكنوا بذلك من الانتباه الجيد له، وقال: «أنا أعطيتكم قدوة. إذا كنت أنا معلمكم قد غسلت أقدامكم، فيجب أن يغسل بعضكم أقدام البعض». لقد شُوي اللحم بدرجة كافية لكي يأخذوه بسهولة باليد اليمنى، وتناولوا كسراً من الفطير يغمسون بها الحساء.

اتبع عيسى المسيح أثناء العشاء طقوس الفصح القديمة، ولكنه غيَّرها بأفعال وكلمات ترسَّخت في وجدانهم، رغم أن الحواريين لم يفهموا معناها. وعندما نهض وأخذ الخبز وكسره ووزَّع

القطع عليهم، قال: «خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يُبذل من أجلكم، افعلوا هذا لذِكري». ثم رفع كأس الخمر وشكر وناولهم إياه قائلاً: «اشربوا من هذا كلُّكم. هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يُراق من أجلكم، ومن أجل الكثيرين لمغفرة الخطايا»:

عندما أخذ يهوذا الخبز وشرب الخمر مع الآخرين، رأى يوحنا المعلّمَ يضطرب فجأة ، كما حَدَثَ له أمام قبر أليعازر. اقتبس عيسى المسيح مزموراً من مزامير داود وقال: «الذي يأكل من خبزي سوف يقوم ضدي». وبتأكيد كبير أعلن: «واحد منكم سوف يخونني!».

أصيب يوحنا بالرعب، وأخذ ينظر إلى الحواريين حوله. وأكد عيسى المسيح لهم مرة ثانية أن خائناً يجلس وسطهم. أصابهم حزن شديد، ولم يدركوا أنه يشير إلى أحداث تلك الليلة بالذات. وفتشوا قلوبهم عما إذا كانوا يقدرون على الخيانة أبداً. سأله يوحنا: «هل أنا هو يا رب؟» وردَّدَ السؤالَ القلقَ نفسَهُ كلٌّ واحدٍ على كل وسادة تقريباً.

نظر بطرس إلى يوحنا دون أن يجذب الانتباه، موجِّهاً نظره نحو عيسى المسيح دون أن يغيّر موضعه. أجابه عيسى المسيح بتمتمة: «الذي أعطيه هذه اللقمة عندما أغمسها».

ومد يده لغمس قطعة من الخبز في وعاء الحساء، ثم قدَّمها إلى يهوذا. وكانت هذه اللفتة قد تركت له مجالاً أخيراً للتوبة. ولكن يهوذا تردد وهو يتمتم: «يا معلم، هل أنا هو؟» كان بإمكانه أن يتراجع عن حافة الهاوية ويجثو على ركبتيه، ويرمي بالثلاثين قطعة من الفضة التي أخذها بالسر، ويعترف بخيانته.

مضت اللحظة وأخذ يهوذا اللقمة.

قال له عيسى المسيح: «إفعلها بسرعة أكبر». نهض يهوذا من مكانه ومشى في الغرفة. راود يوحنا تفكيرٌ مفاجئ يدفعه إلى أن يوقف يهوذا أو أن يشجبه أو أن يسرع إلى أحد السيفين القصيرين، ولكنه لن يفعل شيئاً دون أمر معلمه. وفكَّر بقية الحواريين أن يهوذا قد أُرسل في مهمة كأمين صندوق.

سحب يهوذا الستارة جانباً واختفى عن الأنظار.

البستان

بعد أن خرج يهوذا، أصبح الجو في العلية أكثر دفئاً ولكن ليس أكثر استرخاء. قال عيسى المسيح في الحال، وهو لا يزال متكئاً: «تمجَّد الآن ابن الإنسان ويُمجِّد الله فيه». وكان يوحنا يتطلع إلى أن يرى مجد معلمه طيلة الوقت الذي سار فيه معه باتجاه القدس، وسيحدث ذلك أخيراً. ولكن عيسى المسيح حطَّم هذه التوقُّعات الكبيرة، وألقى الذعر في قلوب الحواريين كلهم بكلماته التالية: «يا أبنائي الصغار (ولم يدعهم أبداً بالأبناء الصغار من قبلُ)، سأبقى معكم وقتاً قليلاً. سوف تبحثون عني، ولكن ما قلته لليهود أقوله لكم الآن: إلى حيث أنا ذاهب لا تقدرون أنتم أن تجيئوا».

أصيب يوحنا بالرعب، ثم نظر إلى الجهة الأخرى من الطاولة إلى بطرس ورآه مصدوماً فزعاً، وسمع تمتمة مكروبة من فوق كل وسادة. وقبل أن يعلنوا عن احتجاجاتهم، نهض عيسى من مكانه، (وكانت العادة أن يخاطب ربُّ العائلة أو رئيس الجماعة الحضورَ في نهاية وليمة الفصح، ويطرح المستمعون الأسئلة عليه فيما بعدُ) وبدأ الحديث قائلاً: «أعطيكم وصية جديدة، أَحِبُّوا بعضكم بعضاً، ومثلما أنا أحببتكم أَحِبُّوا أنتم بعضكم بعضاً. فإذا أحببتم بعضكم بعضاً، يعرف الناس جميعاً أنكم تلاميذي».

سمع يوحنا الحاخامين وعيسى المسيح نفسه يمدحون الوصايا العظيمة، أن تحب الله وأن تحب القريب، ولكن أن يحب بعضنا بعضاً كإخوة خلصاء بالطريقة المخلصة التي أحبُّهم بها عيسى المسيح، سيكون ذلك في الحقيقة امتحاناً صعباً لهم. ولم يستطع عيسى المسيح أن يشرح المزيد، لأن بطرس قاطعه. ولم يكن يشغل تفكيره في المحبة الأخوية.

سأله قائلاً: «يا رب، إلى أين أنت ذاهب؟«
فكرَّر قوله: «أنا ذاهب إلى حيث لا تقدر الآن أن تتبعني. ولكنك ستتبعني لاحقاً».
»يا رب، لماذا لا أستطيع أن أتبعك الآن؟ أنا مستعد أن أموت في سبيلك« !
استشف يوحنا المعنى من قصة عيسى المسيح عن الراعي الصالح.

نظر عيسى المسيح إلى بطرس وقال: «هل ستبذل حياتك من أجلي؟ الحق أقول لك إنه قبل أن يصيح الديك سوف تنكرني ثلاث مرات!» ثم أضاف قائلاً: «لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله، فآمنوا بي أيضاً». كان ذاهباً إلى بيت الآب ليعدَّ لهم مكاناً، وسوف يرجع ويأخذهم هنالك بنفسه ليكونوا معه. «أنتم تعرفون إلى أين أنا ذاهب وتعرفون الطريق». قاطعة توما وقال: «يا رب نحن لا نعرف إلى أين أنت ذاهب، فكيف نعرف الطريق؟».

أجابه عيسى المسيح بكلمات واضحة وبسيطة، كان يوحنا يحب التفكير فيها المرة تلو المرة في ما بعد: «أنا هو الطريق والحق والحياة. ولا يمضي أحد إلى الآب إلا بي. ولو كنتم عرفتموني حقاً لعرفتم أبي أيضاً. ومن الآن فصاعدا، أنتم تعرفونه ولقد رأيتموه». وقال فيلبس فجأة بأن هذه الفكرة كانت في حسبانهم، وقال: «أرنا الآب وهذا سيكون كافياً لنا».

أجابه عيسى المسيح: «ألم أكن معكم كلَّ هذا الوقت وأنتم لا تعرفونني؟» مَنْ رآني فقد رأى الآب. إذن كيف تقول: «أرنا الآب؟» وأكد على هذا.

رجع عيسى المسيح إلى وسادته، وكان كل ما قاله في ذلك المساء، تعاليم حميمة لا تُنسى. ولم يفهم يوحنا الكثير منها في ذلك الحين، ذلك لأنه لم يدرك أن الصلب سوف يحدث بعد أقل من 12 ساعة من جهة، ولأن عيسى المسيح تكلم وهو يتنبأ عن المستقبل من جهة أخرى.

وبينما كان يوحنا ينصت باهتمام، سمع عيسى المسيح يعطيهم وعدا سارًّا يصعب تحقيقه: سوف يسأل الآب أن يرسل لهم مَنْ يكون معهم دائماً مرشداً ومعزياً، روح الحق، الذي سيكون عيسى المسيح نفسه، ولكن ليس بالجسد. «لن أترككم يتامى، سأرجع إليكم. لن يراني العالم بعد قليل، أما أنتم فسوف ترونني. أحيا فستحيون أنتم أيضاً. وفي ذلك اليوم سوف تدركون أنني في الآب وأنتم فيّ مثلما

أنا فيكم». وهدأ من مخاوفهم عندما قال: «سلاماً أترك لكم، وسلامي أعطيكم، لا كما يعطيه العالم. فلا تضطرب قلوبكم ولا تجزعوا».

وأخبرهم أخيراً أن عليهم أن يغادروا العُلّيَّة لما هو آت، وعندما نهضوا من وسائدهم ناداهم نداء فيه محبة عظيمة: «أنتم الذين وقفتم معي في تجاربي». ووعدهم بمكانة خاصة وعمل خاص في ملكوته. ثم نظر إلى بطرس وقال: «سمعان، سمعان» ولم يستعمل لقب «الصخرة»، يريد الشيطان أن يغربلكم كالحنطة، ولكني صليت من أجل أن لا يتزعزع إيمانكم، ومتى رجعتَ إلي، ثبِّت إخوتك!

أصر بطرس قائلاً: «يا رب أنا مستعد للذهاب معك إلى السجن وإلى الموت».
حذره عيسى المسيح وقال له إنه سوف يتخلى عنه وينكره قبل صياح الديك.

سألهم جمعياً إذا كان ينقصهم أي شيء، كما كنتم عندما أرسلتكم وحدكم دون نقود أو حقائب أو أحذية.
أجابوه: «لا شيء».
فقال لهم: «خذوا الآن نقوداً إن كانت بحوزتكم، واحمِلوا الحقائب. وإذا لم يكن لديكم سيف، فبيعوا معطفكم واشتروا سيفاً!»
أروه السيفين اللذين حملهما بطرس والتلميذ الآخر عند دخولهما العُلّيَّة (وكانت من الأسلحة المعروفة عند الرومان). فقال لهم: «هذا يكفي». وكانوا لم يفهموا ماذا قصد سابقاً بالسيفين، وأصاب قلوبهم الخوفُ بقوله إن نبوءة خاصة به يجب أن تتم: «اشترك في مصير المجرمين». وعرف يوحنا في الحال أن هذا الاقتباس من نبوءة اشعيا حول العبد المتألم: «بذل حياته راضياً ونال عقاب المجرمين وحل مكان خطأة كثيرين».

أصبحت الساعة متأخِّرة في هذه الأثناء. فانشدوا المزمور الأخير من طقوس الفِصح وهم مع عيسى المسيح، ثم هبطوا الدرج. ولمح يوحنا الشاب مرقس الذي أيقظه إنشادهم، وكان يسترق البصر من وراء الستارة المسدولة على مكان نومه.

سار عيسى المسيح وتلاميذه بهدوء في المدينة تحت ضوء القمر المكتمل تقريباً. وعندما مروا أمام بوابات الهيكل المغلقة والتي رسم عليها رمز الكرمة الذهبية، قال لهم: «أنتم مثل الأغصان وأنا الكرمة، لا تستطيعون عمل أي شيء بدوني، ولكنكم ستحملون ثماراً كثيرة إذا بقيتم معي». علّمهم محبة الله وقال: «لا حب أعظم من هذا: أن يبذل الإنسان نفسه للذين يحبهم. أنتم تحبونني إذا عملتم ما أمرتكم به».

وبدأ الحزن يسيطر عليهم وهم يسيرون. وقال لهم بأن العالم سوف يبتهج لموته، في حين أنهم سيحزنون ويبكون. «ولكن حزنكم سوف يتحول بعدها إلى فرح! الآن هو وقت الحزن، ولكني سأراكم ثانية، وسوف تفرحون، ولن يأخذ أحد منكم هذا الفرح». سمعه يوحنا يقول بإنه سيعود، ولكن الحزن تملّكهم ولم يمكّنهم من إدراك وعده.

وكانوا في هذه الأثناء ينظرون إلى وادي قدرون في ضوء القمر الساطع قرب منتصف الليل. وكانت جميع البيوت وجماعات الحجاج لا تزال تحتفل بولائم عيد الفِصح، وكانت المدينة

ساكنة. وشحذ الهواء البارد العقول، مما زاد استيعابهم، وأصبحت كلماته فجأة واضحة بشكل مدهش: «أتيت من عند الآب ودخلت العالم. والآن أغادر العالم وأرجع إلى الآب».

قالوا جميعهم في الوقت نفسه: «أنت الآن تتكلم بوضوح! ليس بالأمثال... نستطيع أن نفهم الآن، أنت تعلم جميع الأشياء. نحن نؤمن بأنك أتيت من عند الله».

قال: «هل تؤمنون؟ سيأتي وقت (وقد جاء الآن)، تتفرقون فيه كلُّكم، ويذهب كل واحد إلى بيته. سوف تتخلَّون عني جميعاً. إنه مكتوب: «اضرب الراعي فتتشتت الخراف». سوف تتركونني وحدي. لكني لست وحدي، لأن أبي معي».

ثم قال ثانية: «سوف تهربون»، وأضاف: «ولكن سأسبقكم بعد قيامتي إلى الجليل».
وعندئذٍ كرر بطرس عبارته السابقة: «سوف لا أنكرك أبداً. إن أنكروك جميعهم، فلن أنكرك أنا! سأذهب إلى السجن أو إلى المحاكمة من أجلك».

كرر عيسى المسيح بحزن: «الحقَّ الحقَّ أقول لك، يا بطرس، سوف تنكرني هذه الليلة ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك مرتين». ولكن بطرس أصر قائلاً: «لو كان علي أن أموت معك، فلن أنكرك». وكرر يوحنا كلمات بطرس، وهكذا فعلوا جميعاً.

ساروا قليلاً، ثم توقف عيسى المسيح. انتظر حتى صاروا جميعهم قريبين منه وقال: «لقد قلتُ لكم هذه الأشياء حتى يكون لكم سلام بي. سوف تتعذبون في هذا العالم، ولكن لا تخافوا! لقد انتصرت على العالم».

وفيما كانوا واقفين حوله، نظر إلى السماء وبدأ يصلّي قائلاً: «يا أبتِ! لقد أتتِ الساعة. مجِّد ابنك حتى يمجِّدك». رفعوا قلوبهم بالصلاة معه وهم في دهشة من الطريقة الحميمة التي صلَّى بها لأجلهم، ولأجل جميع الذين سيؤمنون به عن طريقهم.

كانت الصلاة طويلة، والليل بارداً، ولكن لم يلحظ يوحنا برودته، لأنه وضعهم في حضور الله الدافئ. وأنهى صلاته قائلاً: «أيها الآب الصالح، بالرغم من أن العالم لا يعرفكَ، فأنا أعرفكَ وهم يعرفون بأنك أرسلتَني. لقد عرّفتُهم عليك، وسوف استمرُّ في جعلكَ معروفاً، لكي تسري محبتكَ لي فيهم، وأنا بينهم».

لم يتكلم أحد عندما سار الحواريون مع عيسى المسيح عبر وادي قدرون إلى جبل الزيتون. صعدوا قليلاً في الطريق المرتفعة، واتجهوا إلى بستان الزيتون في الجسمانية، حيث كان يذهب معهم غالباً. وعندما وصلوا الملجأ الحجري الذي يضمُّ معصرة الزيت التي أعطت البستان اسمه، طلب منهم أن يجلسوا، حتى يذهب هناك يصلّي. وأشار إلى بطرس ويعقوب ويوحنا أن يأتوا معه.

وفيما هم سائرون إلى جانبه على ضوء القمر الساطع، ارتعب يوحنا عندما رأى عيسى المسيح يرتجف في معاناة شديدة ثم لهث وقال: «إن نفسي حزينة حتى الموت. قفوا هنا وابقوا ساهرين».

ابتعد رمية حجر عنهم، وجثا على الأرض، وسمع يوحنا صلاة كلّها ألم. صرخ عيسى المسيح: «أبًا، أيها الآب» مستعملاً العبارة الحميمة التي لم يجروء يوحنا أن يستعملها بنفسه. ولما رآه راكعاً بالقرب من صخرة، ورأسه مرفوع إلى السماء، وذراعاه ممدودتان، وجسمه ينتفض. كانت الساعة متأخرة، وكانوا مرهَقين وقد أثقلهم الحزن، ثم التجأوا إلى النوم علّهم يجدون فيه راحة من معاناتهم.

بقي شاهد عيان سرّي مستيقظاً وكان يراقب: ذلك هو مرقس الشاب الشجاع الذي كان في عنفوان قوته، نهض من نومه، واسترق النظر من خلف الستارة عندما غادر الحواريون منزله. وأحس بشكل غريزيّ أن عيسى المسيح يمكن أن يحتاج إلى حماية، فلبس أول ثوب وصلته يداه، وكان من الكتان الفخم، ولفّه حول جسمه العاري، وزحف خلف الجماعة دون أن يكتشفوه. فقد كان يتأخر عندما كانوا يتوقفون. وزحف إلى البستان خلف عيسى المسيح، واختبأ خلف صخرة كحارس عيَّن نفسه.

ارتعب مرقس لمنظر وصوت عيسى المسيح الذي كان يصلّي وهو يتألم قائلاً: «يا ابتِ، كل شيء مستطاع معك. فأبعِد عني هذه الكأس، ولكن بإرادتك لا إرادتي». ومرَّةً تلوَ المرة، سمع مرقس الصرخة: «خُذْ عني هذه الكأس». أنصت مرقس ونظر وهو يشعر بالدهشة. فلم يكن عيسى المسيح يتوسَّل من أجل الهروب من العذاب والضيق والعار أو الموت الجسدي نفسه. وإنما عرف أن «هذه الكأس» تعني غضب الله.

وأخيراً، نهض عيسى المسيح عن ركبتيه، ومشى متثاقلاً نحو تلاميذه الثلاثة الأقرب إليه. استيقظ يوحنا خَجِلاً ليجده واقفاً إلى جانبه. وامتزج ألم عيسى المسيح الآن بالقلق. قال لهم: «ما بالكم نائمين؟ ألم تقدروا أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ قوموا وصلوا لئلا تقعوا في التجربة». ثم أضاف بلطف: «إن الروح مستعدة أما الجسد فضعيف». راقب يوحنا عيسى المسيح وهو يذهب إلى الصخرة، ثم أغلق النوم عينيه مرة ثانية.

وشاهد مرقس عيسى المسيح من مكان اختبائه وهو يركع، وسمعه وهو يصلّي بحرارة أكثر. ورغم برودة الليل، خاصة بعد مضي منتصفه، كان جسده يتصبّب عرقاً، لدرجة أن العرق الساقط على الصخرة كان يشبه الدم. صلّى ثانية: «أيها الآب، إن شئت خذ عني هذه الكأس».. وقد وصف أحد التلاميذ هذه الحادثة في السنين التالية، فقال: «قدَّم الصلوات والابتهالات بصراخ ودموع إلى الذي كان بإمكانه أن يخلّصه من الموت». عرف أن أباه لن يرغمه، وكان يستطيع أن يرفض العالم ويتركه كما وجده.

استمر في الصلاة. وكان قلب مرقس ينبض بشدة، وسمع الكلمات: «يا أبتاه، إن كان من غير المستطاع أن تؤخذ هذه الكأس، وعليَّ أن أشربها، فلتكن مشيئتك». ثم نهض عيسى المسيح من عند الصخرة.

وعلى بُعد ياردات قليلة، استيقظ يوحنا مرة ثانية، ليجده واقفاً إلى جانبه. لم يستطيعوا الكلام من شدة خجلهم. انسحب عيسى المسيح، واستسلم يوحنا للنوم، فقد أثبت النوم مرة ثانية أنه أقوى من الإخلاص، ولكنهم لم يعرفوا شيئاً عن ألمه، قبل أن يوقظهم للمرة الثالثة.

وقفوا وهم يشعرون بالذنب، ورأى يوحنا على ضوء القمر علامات الألم والتعب على وجهه، ولكنه كان هادئاً.

قال لهم: «ألا تزالون نائمين ومستريحين؟ لقد أتت الساعة التي يُسلَّم فيها ابن البشر إلى الخطأة. انهضوا! قوموا لننطلق! لقد أتى الذي يسلّمني».

»لقد حكمتُ على دم بريء«

اقتربت من المكان قوة كبيرة بقعقعة السلاح، فذهب عيسى المسيح باتجاهها. ووقف الحواريون خلفه مذعورين بعد أن نهضوا من النوم.

رأى يوحنا الجنود وحرس الهيكل يحملون المشاعل على عصي، رغم وجود القمر المكتمل تقريباً، لكي يمسكوا بطريدتهم إذا هرب بين الأشجار. كما كان لديهم مصابيح في أوعية خزفية للاستعانة بها في حالة اختبائه في أحد الكهوف. عبروا صف أشجار الزيتون الموجود على طرف البستان. ثم انفصل يهوذا الاسخريوطي عن الجنود وسار نحو عيسى المسيح، وقال بصوت مرتفع: «السلام يا معلم!» وقدَّم علامة الاحترام التقليدية بتقبيله يده بشكل مفرط.

فسأله عيسى المسيح: «يا صاحب، هل تسلِّم ابنَ البشر بقبلة؟«
لم يجب يهوذا.
فقال له: «اعمل ما جئت لأجله».

وظهرت خلف يهوذا قوة كبيرة من الجنود الرومانيين بسيوفهم، وحرس الهيكل اليهود بهراواتهم، ومسؤولون أرسلهم المجلس اليهودي الأعلى، ومجموعة من الخدم الذين سهروا حتى ساعة متأخرة لليلة الفصح. وارتبك الجميع عندما وقف عيسى المسيح بهدوء ينتظر القبض عليه بدون قتال.
سألهم: «مَنْ تطلبون؟«
أجاب رئيسُهم: «عيسى المسيح الناصري« !

أجابهم: «أنا هو». ورأى يوحنا رغم رعبه المتزايد، أن كلمات عيسى المسيح قد جعلتهم يترنحون تماماً. لأنه بالنسبة إلى المسؤولين اليهود ويهوذا إلى جانبهم، قد أعلن عن نفسه بتلك العبارة المقدسة «أنا هو» التي يستعملها الله وحده. وكان وقوفه أمامهم بجلال وثبات قد أكد على ذلك. ففقدوا التوازن وتراجعوا إلى الخلف متعثرين بمن خلفهم ووقعوا إلى الأرض.
فسألهم عيسى المسيح عندما نهضوا ثانية: «مَنْ تطلبون؟»، وأجابوه ثانية: «عيسى المسيح الناصري».

فقال لهم: «لقد قلت لكم، أنا هو. إن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء الرجال ينصرفون».
صرخ أحد التلاميذ: «يا معلّم، هل نضرب بالسيوف؟».
وقبل أن يجيب، استلَّ بطرس سيفه القصير وضرب بعنف، وقطع الأذن اليمنى لخادم رئيس الكهنة «ملخس» الذي كان يعرفه يوحنا.

أمره عيسى المسيح قائلاً: «ضَعْ سيفك في غمده». وبغضِّ النظر عما قصده عندما شجَّعهم على إحضار السيوف، فإنه وبَّخ بطرس قائلاً: «مَن يأخذ بالسيف بالسيف يموت. أتظن بأنني لا أستطيع أن أطلب من أبي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة؟» 36000 كائن سماوي مستعدون للإنقاذ، ولكن كيف ستتحقق النبوءات؟ إنها تتم بهذه الطريقة. هل يجب أن لا أشرب الكأس التي أعطاني إياها الآب؟».

تقدم إلى «مخلس» المصدوم والنازف وقد أمسك بيأس بأذنه ومد يده إلى رأسه وشفاه، وتخلَّى بطرس عن أي قتال.

التفت عيسى المسيح إلى المسؤولين اليهود ورؤساء الكهنة وقال: «هل أنا لصٌّ حتى خرجتم عليَّ بالسيوف والهراوات؟ كنت أعلّم كل يوم في الهيكل ولم تلمسوني. لكن ينبغي أن تعلموا إنما حدث هذا لكي تتمَّ نبوءات التوراة عني».

لم يسمع يوحنا أكثر من ذلك، فلم يثبت في مكانه بعد أن انهارت شجاعة زملائه. فقد هرب بطرس ويعقوب وإندراوس، وهرب كل واحد من الحواريين طالبين النجاة لأنفسهم، ما عدا يهوذا!

فَقَدَ الضابط الروماني صبره، ثم أعطى أمراً سريعاً، فأمسك الجنود بعيسى المسيح وأوثقوا ذراعيه بإحكام خلف ظهره: وسواء كان لصّاً أم نبياً، فإن ذلك كان سواء بالنسبة إلى الجنود.

شاهد أحدهم فجأة الشاب مرقس الذي جاء إلى الجسمانية لحماية عيسى المسيح، ولكن كثرة الجنود الذين شاهدهم، وهروب بطرس «الذي كان يعتبر الصخرة » ، «أضعف من شجاعته.

أمسكت إحدى الأيدي المعادية برداء مرقس الكتاني، فسحب نفسه منه وهرب عارياً في الليل. استعاد يوحنا شجاعته بسرعة. والتفت إلى الوراء في الوقت المناسب، ليرى الجنود يسيرون بعيسى المسيح خارج البستان نحو الوادي. وبعد أن استعاد شجاعته من جديد، اقترب منهم في الظلام، وتبعهم إلى بركة سلوان وفي داخل المدينة السفلى. ثم شعر بشيء يسحبه من كمه، فإذا بطرس خلفه وقد أصابته الحَيرة والخوف. وذهبا معاً وبقيا وراء الجنود السائرين، الذين كانت ظلال مشاعلهم تتراقص في الشوارع المظلمة. عَبَرَ الموكب وادي طيروبيون، ووصلوا أخيراً إلى قصر رئيس الكهنة فوق التل، على مسافة أكثر من ميل من الجسمانية. فُتحت البوابات لدخول الحرس والخدم والسجين الخائن، وترك الجنود الرومانيون ليعودوا إلى معسكرهم.

ولما كان يوحنا معروفاً لبيت رئيس الكهنة، لم يجد صعوبة في الانضمام إلى ذيل الحاشية عندما اندفعت إلى داخل الساحة. لم يجرؤ بطرس على الدخول.

رأى يوحنا عيسى المسيح وقد شُدَّت ذراعاه بالحبل، وساروا به إلى الجناح الذي يسكنه حنان، الرجل المسن الذي كان في السابق رئيساً للكهنة، حتى عزله الرومان قبل خمسة عشر عاماً. وكان القسم الأكبر من اليهود يعتبرون حنان رئيساً للكهنة بدرجة مساوية لصهره قيافا. وكان إشغال ذلك المنصب يتم مدى الحياة. وحسبوا أن حنان الذكي والوطني ما زال هو القوة المسيطرة.

وحالما رأى يوحنا المكان الذي سوف يستجوب فيه عيسى المسيح، رجع وتحدث إلى المرأة التي تقف على الباب، ففتحته لبطرس ليدخل. ونظرت إليه بينما كان يمر بالقرب من الضوء المتأرجح. وقالت وهي تتعرف عليه: «الست أنت أيضاً من تلاميذ ذلك الرجل؟» أجابها بطرس: «لست من تلاميذه».

وكان الحرس والخدم قد شعروا بالبرد خلال ذهابهم في الليل إلى الجسمانية، فاشعلوا ناراً من الفحم في الساحة. زحف بطرس قريباً منها ليتدفأ وهو يخفي نفسه. وبقيت المرأة بالقرب من الباب عندما دخل أعضاء المجلس اليهودي الأعلى الذين جاءوا من بيوتهم، وأسرعوا باتجاه قاعة القصر الكبيرة. ترك يوحنا بطرس وانضم بهدوء إلى الكهنة والكتبة الذين كانوا يراقبون الاستجواب الأولي. واقترب قدر الإمكان لكي يرى عيسى المسيح وهو يقف مربوطاً أمام حنان.

كان حنان رئيس الكهنة يوجه الأسئلة إليه، وكان على المتهم أن ينكمش أمامه وأن يجيب بصوت فيه إذلال وإهانة. لكن عيسى المسيح لم يفعل ذلك، ولم يذكر أسماء تلاميذه، ولم يعط أية معلومات عن تعاليمه. أجاب بأنه لم يقل أي شيء في الخفية، فقد علّم علانية في المجامع والهيكل. وتذكر يوحنا أن عيسى المسيح عندما كان يعلّم تلاميذه على انفراد، كان يحثهم على التصريح بتعاليمه بصوت عال. لم يكن لديه ما يخفيه. وكل ما قاله لحنان: «لماذا تسألني؟ اسأل الذين استمعوا إليَّ. اسألهم ماذا قلت لهم. فهم يعرفون ذلك».

قال له أحد الحراس: «كيف تجرؤ على مخاطبة رئيس الكهنة بهذه الطريقة؟» ولطمه على وجهه، تاركاً آثاراً لضربته. ولكن عيسى المسيح وبَّخ الذي ضربه قائلاً: «إذا كنتُ قد اخطأت في الكلام، فأرني أين الخطأ، وإذا كنتُ على صواب في ما أقوله، فلماذا تضربني؟».

علّق حنان الاستجواب، لأن عدداً كافياً من أعضاء المجلس اليهودي الأعلى قد تجمَّع حول قيافا. ثم أمر الحراس أن يسيروا به إلى القاعة الكبيرة.

وأخذوه عبر الساحة الفسيحة التي تجمَّع فيها الحرس والخدم حول النار، وصعدوا الدرجات المنخفضة التي تؤدي إلى بناية القصر الرئيسية، ووضعوه تحت ضوء المشاعل المتوهجة في الرواق المعمّد. وبان وجهه في ضوء القمر، واستطاع بطرس والذين حوله أن يروه بوضوح. وجلس قيافا على مقعده أمامه في القاعة الكبيرة، يحيط به شيوخ من الصدوقيين والفريسيين. وتجمَّع في جانب آخر يهوذا والكهنة والكتبة ويوحنا الذي لم يكلّمه أحد.

لم يتقدم أحد ليُدلي باتهام رسمي. وعندها تذكر يوحنا ما قاله له نيقوديموس قبل عدة أشهر، أن قيافا قد صمَّم على موت عيسى المسيح، وأن هذا الأمرَ سيحدث بالطرق القضائية، لأن السلطة في فَرْض حُكم الموت كانت للحاكم الروماني وحده. احتاج قيافا وأصدقاؤه إلى اعترافات أو شهادات تضمن الإدانة. ويبدو أنهم احتفظوا بشهود تم استدعاؤهم، وأدلوا بشهاداتهم. وثبت بأن أدلتهم غير مرضية من ناحية قانونية، وسيرفض الحاكم كل حالة غير قانونية. وبينما انقضى الليل، سمع يوحنا الشهود الواحد تلو الآخر، وهم يفشلون في دعم شهاداتهم، فقد اعتمدوا على الإشاعات أو ناقضوا بعضهم بعضاً. وأتاحت المحاكمة، إذا كان بالإمكان تسميتها كذلك، شيئاً من الأمل بعد كل هذا. لأن الحاكم كان يسمع القضايا وقت شروق الشمس، فسوف تنتهي المحكمة بتبرئة ساحة المتهم لعدم توفر الأدلة والوقت الكافي لإدانته. وكان يوحنا يرى أن نيقوديموس ويوسف الرامي، رغم كونهما

متعاطفَيْن سراً مع عيسى المسيح، إلا أنهما كانا متيقظين للعدالة، خشية أن يوقعا نفسهما تحت طائلة المسؤولية.

تقدم شاهدان آخران. شهد أحدهما مقسما: «لقد سمعنا هذا الرجل يقول: اهدموا هذا الهيكل الذي شيَّدَته أيدي البشر، وأنا ابني خلال ثلاثة أيام هيكلاً آخر ليس من صنع الإنسان». وذكر الشاهد الثاني نصاً مختلفاً من الكلمات التي قالها عيسى المسيح عندما أخلى الهيكل قبل ثلاث سنوات. ولم يكن بالإمكان إلصاق التهمة إذا كانت الأدلة متناقضة، إلا إذا أدان السجين نفسه. والتزم عيسى المسيح الصمت أثناء المداولات في القاعة الكبيرة.

نهض قيافا وقال: «ألا تجيب بشيء؟ هل تعترف بالشهادة التي يقولها هؤلاء الرجال ضدك؟».

التفتت كل العيون إلى عيسى المسيح وبقي صامتاً.

قال قيافا: استحلفك باسم الله الحي، هل أنت المسيح ابن الواحد المبارك؟».

فأجاب: «أنا هو!». لم يُجِب عن السؤال فقط، وإنما استعمل مرة أخرى العبارة المقدسة التي تحمل مضموناً واحداً فقط، وأضاف: «وسوف ترون ابن البشر جالساً عن يمين الله، وآتياً على غيوم السماء».

وعندئذ مزَّق رئيس الكهنة جبّته ليعبّر عن غضبه للاستهزاء بعظمة الله. لم تكن هنالك حاجة إلى شهود آخرين. وقال رئيس الكهنة: «لقد سمعتم تجديفه، ما هو حُكمكم؟».

حكموا عليه بأنه يستحق الموت. اعترض نيقوديموس ويوسف الرامي، ولكنهما كانا بلا سلطة.

أعطى رئيس الكهنة أمراً مقتضباً. غطى الحراس وجه عيسى المسيح ثم بصقوا فيه ولكموه بقبضات أيديهم. وركض الكهنة والكتبة والخدم إلى الإمام ليبصقوا عليه أو يضربوه وهم يصرخون: «تنبأ! قل لنا مَنْ ضربك». وحلّوا بذلك أنفسهم من كونهم مساعدين على التجديف. وبينما كان يوحنا يجفل من الضربات، أدرك بأنهم يخضعونه إلى اختبار تقليدي: حسب تفسير الكتبة للفصل الحادي عشر من اشعيا، فإن عيسى المسيح الحقيقي يكون قادراً على أن يرى وهو مغطّى الوجه. وعلقت بذهن يوحنا هذه الفرصة التي أعطيت لعيسى المسيح ليخلّص نفسه. ولكنه رفض استغلال هذه الفرصة وبقي صامتاً.

وفي اللحظة التي كان المجمع يقرر فيها أنه لم يكن نبياً حقاً، تمت نبوءته لبطرس. فقد جرت أثناء محاكمة عيسى المسيح في القاعة الكبيرة، محاكمة أخرى أقل أهمية في الساحة. نظرت خادمة إلى بطرس وهو يدفئ نفسه، وقالت لمجموعة من الحرس والخدم الجالسين حول النار: «هذا الرجل كان معه». أجاب بطرس: «يا امرأة، إنني لا أعرفه!». صاح ديك خارج القصر، ولم يدرك بطرس معنى ذلك. وتحرك بعيداً عن النار باتجاه الباب، حيث كانت المرأة التي تعرفت عليه عندما أدخله يوحنا إلى الساحة. وكررت هذه المرأة للحراس اعتقادها السابق بأنه كان تلميذاً للسجين (ولذلك يحتمل أن يكون خطيراً). وعندما كانت المحاكمة في القاعة الكبيرة تقترب من ذروتها بادره شخص ممن كانوا في الجسمانية، وهو قريب للخادم الذي قطع بطرس أذنه، وقال: «بالتأكيد لقد رأيتك في البستان، في الحقيقة إن هذا الرجل جليلي، أنت واحد من الحواريين!».

- «يا رجل، لست بواحد منهم!».
- «ولكن لهجتك تدل عليك!».
ولكن بطرس أخذ يلعن ويحلف بأنه لا يعرف هذا الرجل. وسُمع في تلك اللحظة عبر الساحة صراخ وأصوات، عندما كانوا يضربون عيسى المسيح.

صاح الديك مرة ثانية. وحانت من بطرس التفاتة إلى الأعلى. وعلى ضوء المشاعل رأى الحراس يزيلون غطاء الرأس عن عيسى المسيح، وعندما خف صوت الديك، التفت عيسى المسيح ونظر مباشرة إلى بطرس، فتذكر بطرس ما كان قاله له عيسى المسيح أنه سينكره ثلاث مرات قبل صياح الديك. كانت البوابة مفتوحة. مشى بطرس متعثراً إلى الشارع وهو يبكي بكاء مراً.

رآه يوحنا يذهب، وبعد دقائق قليلة، رأى تلميذاً آخر من الحواريين يذهب قبل الفجر بقليل، ثم راقب يوحنا يهوذا أثناء المحاكمة، وعندما سمع يهوذا الحكم، أسودَّ وجهه من الألم وصرخ: «لقد حكمتُ على دم بريء».

وأجاب أحد مساعدي قيافا بغضب: «ماذا علينا؟ دَبِّر أنت أمرك؟».
رمى يهوذا بالقطع النقدية الفضية على أرض القاعة وركض خارجاً من القصر.

»الذهاب«

توقف المجلس اليهودي الأعلى فترة قصيرة من الزمن، حتى بزوغ الفجر، قبل أن يحكموا على عيسى المسيح بصورة رسمية. ذلك أن الحكم الصادر في ساعات الليل، كان غير ساري المفعول. ثم ساروا به فجراً مسافة قصيرة إلى القصر الذي بناه هيرودس الكبير، والذي استعمله والي اليهودية (الحاكم الروماني) كمقر لحرسه عند زيارته القدس. وكان هيرودس قد اختار موقع قلعة الملك داود، على الأرض المرتفعة الملاصقة للسور، في الزاوية الشمالية الغربية للمدينة العليا.

لم يجد يوحنا صعوبة في اللحاق بهم، وهو غير معروف بينهم. وعند شروق الشمس كان ينتظر مع عدد من القضاة خلف السجين في شارع السوق العليا، خارج الساحة الأمامية المفتوحة الواسعة المعروفة باسم ممر السابلة. وكانت الساحة تحتوي على كرسي القضاء، حيث يجلس الحاكم لإعطاء الأحكام وتحديد العقوبات، أو إصدار الأوامر الرسمية بقوة القانون. وكان معسكر الجنود يقع في جهة، وغرف وقاعات المستمعين في الجهة الأخرى بجانب الأعمدة، حيث استمع الحاكم إلى الإفادات واستقبل الوفود وأضافهم. وخلف هذه القاعات كانت ساحة أصغر تؤدي إلى مسكنه الخاص.

وكان الفارس الروماني بيلاطس البنطي والذي كان والياً على اليهودية خلال السنوات الأربع الماضية، قد نهض من النوم في ساعته المعتادة قبل الفجر، ثم دخل الغرف العامة ليجتمع برؤساء الأقسام، ويستمع إلى تقارير رجال الأمن، ويستقبل مقدمي الاسترحامات أو للقيام بأعمال أخرى. وكان يعرف بأن المجلس اليهودي الأعلى سيُحضر أمامه شخصاً، كان قد خول فرقة مسلحة بالقبض عليه، ولكن لم ينتظره أحد من اليهود ليسلمه السجين بسبب عيد الفصح. وقد امتنع اليهود عن دخول القصر لئلا يتنجّسوا لمدة سبعة أيام، ولكي يتمكنوا من أكل عشاء الفِصح. لذلك لم يستغرب

بيلاطس عندما أخبره خادم بيته، بأن ممثلي المجلس اليهودي الأعلى قد وصلوا مع سجينهم، ولكنهم رفضوا دخول القصر.

اعتاد بيلاطس خلال ثورات غضبه أن يرضي اليهود في الأمور الصغيرة. وخرج حالاً بعد شروق الشمس إلى ممر السابلة ورأى السجين ومتهميه. ثم وقف إلى جانب كرسي القضاء في موضع يسمى البلاط، وسألهم باليونانية: «بماذا تتهمون هذا الرجل؟» فلم يعطوه جواباً مباشراً. إذ لم يكن التجديف جرماً في القانون الروماني، إلا إذا كان على الامبراطور المبجَّل. وهي جريمة ارتكبها بصمت كل يهودي ورع، ولكنهم كانوا يأملون بأن يعدم بيلاطس عيسى المسيح بقرار إداري بدون محاكمة، لأنه أخلَّ بالأمن. وكان هذا من ضمن صلاحيات الوالي. وكان بيلاطس قد قتل ما يكفي من اليهود خلال سنوات حكمه الأربع الأولى، ولذلك لم يحدِّدوا جريمة معينة.

قال المتحدث باسم المجلس اليهودي الأعلى باليونانية: «لولا أنه مجرم لما أحضرناه إليك».

وبما أنه لم تظهر على السجين علامات مثيري الشغب، سأل بيلاطس عن التفاصيل. لكنهم تجنبوا إعطاء جواب قاطع، لأنه لن يجد جريمة يعاقبه عليها. فقال لهم بيلاطس: «خذوه أنتم وحاكموه حسب شريعتكم».

فأجابوه: «لا يجوز لنا أن نحكم على أحد بالقتل».

وكانوا في بعض الأحيان يرجمون شخصاً أو يخنقونه دون تقديم حساب وذلك بدل القتل، خصوصاً إذا كانت الجريمة تتعلق بانتهاك حرمة الساحات الداخلية للهيكل من قبل غير اليهود. وعندها أدرك يوحنا ما كان قد حذر منه عيسى المسيح، بأن قيافا كان مصمِّماً على موته بالإعدام صلباً. وعندما كان يصلب رجل على شجرة، أو على جذع شجرة على مفرق طرق أو تل، كان يعلَّق على الشجرة بواسطة مسامير في باطن يديه أو رسغيه وقدميه حتى يموت ميتة بطيئة. وعرف اليهود من النصوص المقدسة، أن كل مَنْ يُعلَّق على شجرة كان ملعوناً. ولهذا.. إذا صُلب عيسى المسيح، فإنه سيموت تحت اللعنة، وينكشف كمسيح كاذب.. وإذا رُجم، فإن تلاميذه سيعتبرونه شهيداً، وإذا عُلِّق على شجرة، فسيكرهونه أو يشتركون في لعنته.

ولكي يُصلب، كان على المجلس اليهودي الأعلى إثبات أنه كان مذنباً بجريمة ضد روما. لذلك أدلى الناطق بلسان المجلس أمام الحاكم باتهامات غير واضحة، أشار فيها إلى أنه قد حثَّ على عدم دفع الضرائب لقيصر، وأنه يسمّي نفسه المسيح، ويعتبر نفسه ملكاً.

طلب بيلاطس من عيسى المسيح أن يدافع عن نفسه. لكنه بقي صامتاً. أدهش هذا الصمت الحاكم وأقلقه بوضوح، فقد كرهت العدالة الرومانية غياب الدفاع، بالقدر نفسه الذي كرهت فيه عدم توفر تُهم واضحة. وظهر أن بيلاطس يتردَّد، ثم انسحب وأمر أن يسيروا به إلى الداخل. رفض المُدّعون من اليهود تدنيس أنفسهم بالدخول إلى قاعة المستمعين، وكان تخمين بيلاطس في محله، وبذلك يستطيع أن يستجوب السجين بدون حضور الذين يتهمونه.

ولن تكون المقابلة خاصة، فسوف تصعد معه مجموعة من غير اليهود ممن يقبلون بالتدنيس. وكان يوحنا يعرف ذلك، فصعد الدرجات في الحال ومشى عبر ممر السابلة وانضم إلى

المتفرجين، ليبقى بالقرب من عيسى المسيح ويستمع. وكانت أسئلة بيلاطس وأجوبة عيسى المسيح باليونانية قد تركت أثراً لا يُنسى في ذاكرته.

سأل بيلاطس: «أأنت ملك اليهود؟».

أجاب عيسى المسيح: «هل هذا سؤالك أنت، أم أن آخرين قالوا لك ذلك عني؟».

رد بيلاطس بلهجة احتقار: «هل أنا يهودي حتى يبلغوني عنك؟ إن أمّتك ورؤساء الكهنة أحضروك أمامي. فماذا فعلت؟».

قال عيسى المسيح: «إن مملكتي ليست من هذا العالم. ولو كانت كذلك لكان خدامي يدافعون عني لئلا أسلَّمَ إلى اليهود».

قال بيلاطس: «أملكٌ أنت إذن؟».
فأجاب عيسى المسيح: «أنت تقول إني ملك». وتابع عيسى المسيح قائلاً: «ولهذا وُلدت. ولهذا أتيت إلى العالم لأشهد الحق وكل مَن كان إلى جانب الحق يستمع إلي»؟ وكانت هذه الكلمات قد فتحت مجالاً جديداً لا يُحَدُّ، لو أراد بيلاطس أن يفهم.

قال بيلاطس: «ما هو الحق؟» ولم ينتظر الجواب. وقد تحير العالم في معنى سؤال بيلاطس. هل كان يمزح، أم أنه خاف أن يتابع الموضوع، أو أقنع نفسه بأن عيسى المسيح لم يكن مذنباً. وقد تدرب القاضي الروماني على البحث عن الحقيقة، ولكن أجابات عيسى المسيح أضافت معنى مزعجاً لهذه الكلمة.

تركه بيلاطس في قاعة المستمعين، وخرج إلى جمهور اليهود المتجمعين خارج الساحة وأعلن: «أنني لا أجد علَّة في هذا الرجل».

رفض الناطق باسم المجلس اليهودي الأعلى قبول الحكم. وترددت صرخاتهم، بأن عيسى المسيح قد سبّب الاستياء بتعاليمه في أنحاء اليهودية: لقد بدأ في الجليل وهو يعلّم الآن هنا.

أرهف بيلاطس أذنيه عند سماعه اسم الجليل وقال: «إذا كان عيسى المسيح مواطناً جليلياً، فيمكن إرساله إلى هيرودس أركلاوس أمير الربع» (رغم أنه لا داع لإعادة الرجل المقبوض عليه إلى منطقة سلطته كما كان الأمر سابقاً، وذلك إذا فضّل الحاكم ذلك). ساروا به خارج الغرفة. وانسلَّ يوحنا خارجاً أيضاً آمِلاً أن يكون عيسى المسيح قد لمحه وعرف بأن صديقاً واحداً كان قريباً منه.

وبينما هم في طريقهم إلى هيرودس، واصل بيلاطس التحقيق في القضايا المتبقية عنده. وأنتهت أول قضيتين سريعاً: فقد أدين لصَّان أو سارقان بجريمة التحريض على العصيان. صعد بيلاطس على كرسي القضاء في موضع يسمى البلاط، وأصدر الحكم قائلاً: «أحكم عليكما بالصلب». أُخذ اللصان في الحال إلى المعسكر دون أن يستأنفا، ليقاسيا أول مرحلة من العقاب، وهي الجلد العنيف. وكان سكان الأقاليم يُعدمون في يوم الحكم نفسه. ولا يُفسح المجال للاستئناف إلا للمواطنين الرومانيين، مهما اختلفت أعراقهم، وذلك بتقديم الاستئناف إلى القيصر. ولم يكن

الرومانيون يُعدمون بالصلب: فقد كان الصلب يعتبر موتاً قاسياً وبطيئاً ومثيراً للاشمئزاز، وبالتالي فإنه لا يليق بالرومان. واستعملت عقوبة الصلب فقط للعبيد وسكان الأقاليم من الطبقات الدنيا.

بدأ بيلاطس في سماع القضية الثالثة. وظهرت في الحال تعقيدات في هذه القضية. كان قاطع الطريق برباس قد ارتكب جريمة قتل في ثورة حدثت مؤخراً، وهو يقاتل في سبيل الحرية. وقد تجمَّع أتباعه من (بيوت الدعارة) في المدينة السفلى ليشهدوا محاكمته. وبدأوا يصرخون بأن على بيلاطس أن يتبع التقاليد، ويحترم عيد الفِصح، بإطلاق سراح سجين يختاره الشعب. وأرادوا بذلك برباس. وكان أصدقاء عيسى المسيح قد حشدوا الجمهور على الرصيف أيضاً. فقد انتشر خبر إلقاء القبض عليه في جميع أنحاء المدينة، فجاء بعض الذين سمعوه في الهيكل، وزملاؤه الحجاج من الجليل، وصرخوا من أجل إطلاق سراحه. وكان الجمهور يزداد كل لحظة، فقد كانت جماهير اليهود التي ازدحمت بها القدس أيام الاحتفال، قد جاءت من كل مكان.

وفي تلك الأثناء استُدعي عيسى المسيح إلى المحاكمة أمام هيرودس أمير الربع. جلس هيرودس على العرش في قصره الصغير، (وكان يؤمن بالخرافات، وقد أعجب بالنبي يحيى رغم قتله له) وعبّر عن سروره بالفرصة التي سنحت له، لكي يشبع فضوله عن عيسى المسيح ويتحدث إليه، وربما لكي يرى معجزة. ولكن هيرودس تعب في الحال من القضية. وقد نظر إلى المسألة بشكل مختلف عما نظر إليها بيلاطس. ففي حين كان بيلاطس قد شعر باختلاط الأمر عليه، فإن هيرودس اعتبر الأمر مسلّياً. وحوّل أمير الربع وقواد جيشه عيسى المسيح إلى ملك من باب السخرية للمحتفلين، وألبسوه ثوباً فاخراً وسخروا منه، وأرجعوه وهو لا يزال صامتاً إلى بيلاطس.

وبينما وقف الجميع على الرصيف ينتظرون، أصبح واضحاً ليوحنا أن بيلاطس يريد الآن أن يخلي سبيل عيسى المسيح أكثر من أي وقت آخر. لأنه لم يجد هو ولا هيرودس أنه مذنب بجريمة تستحق الموت. إضافة إلى ذلك، جاء مراسل من بيت بيلاطس وأخبره «أن زوجته قد شاهدت حلماً مزعجاً، وهي تحثه أن لا يكون له شأن في أمر ذلك الرجل البريء». ولكن بيلاطس القاضي كان أيضاً بيلاطس السياسي، الذي لم يشأ أن يُغضب زعماء اليهود. إذ إن بإمكانهم أن يجعلوا حياته صعبة، وأن يشكوه إلى القيصر. وبذلك قرَّر أن يُسقط المسؤولية عن كاهله بالموافقة على المطالبة الشعبية بالعفو عن أحد السجناء خلال فترة العيد. ولم تكن الإدانة أو البراءة شيئاً عادياً في الأمبراطورية الرومانية، إذ إنها أمر صعب. ووثق بأن التصويت سيأتي لصالح الرجل المناسب من بين الرجلين، وإلا فإن برباس سوف يستأنف عمله في الثورة والإجرام، ونهب القوافل وإزعاج الجنود في الليل.

ولكن لم تتم إدانة أي من السجينين حتى الآن بشكل رسمي. وصعد بيلاطس إلى كرسي في موضع يسمى البلاط، واقترح على الجمهور من اليهود، أن يضرب عيسى المسيح لتلقينه درساً ثم يطلق سراحه. سيُضرب بالعصي ــ وهذا أقل شكل من العقوبة الجسمية، مثل العقوبة التي عانى منها بولس وسيلاس في فيلبي. وكانت تلك العقوبة في الغالب تنفذ كتنبيه عندما يكون الرجل مزعجاً للسلطات. وهي تجري في العادة علنا، ليشعر الرجل بالعار أمام جيرانه.

سألهم بيلاطس: «هل أطلق لكم ملك اليهود؟». إنهم سيشاهدون ملكهم وهو يُضرب، وستزول بذلك قصة الملوكية بصورة ساخرة.

وارتفع الصراخ من الجمهور: «ليس هذا الرجل وإنما برباس». وأسكتت الصرخات المنادية بإطلاق سراح عيسى المسيح، عندما أهاج الكهنة الشعب ليطالبوا بإطلاق سراح برباس. وحوّل الكهنة أي فوضى لصالح برباس حتى أصبحت النداءات لإطلاق سراحه هي المسيطرة على الساحة.

سألهم بيلاطس: «وماذا أصنع بهذا الرجل الذي يدّعي أنه المسيح؟«
ازداد الجمهور صراخاً: «اصلبه! اصلبه!».

تردد بيلاطس ثانية. لأنه كان الوحيد الذي يملك المسؤولية عن الحياة أو الموت. وأحس بأن المطلب الشعبي بصلب عيسى المسيح سيكون إجهاضاً للعدالة. فكر في التبرئة، ولكنه تراجع عنها خوفاً من ثورة محتملة. وقد وصف الفيلسوف اليهودي فيلو من الإسكندرية بيلاطس، وكان معاصراً له، بأنه «صارم بطبيعته، وقاس جداً لدرجة العناد»، ولكنه كان متردداً عند مواجهته لعيسى المسيح.

رأى بيلاطس مخرجاً آخر وهو الجلد. إذ أمر بجلد عيسى المسيح كخطوة أولى، أي أن يضرب بالسياط المرعبة التي تكون مقدمة للصلب. ويمكن اعتبار الجلد بحد ذاته كحكم أو جزء من استجواب المشتبه به. وعندما يشاهد الجمهور ما بقي منه بعد الجلد، فإن عاطفتهم تجاهه ستضمن له البراءة.

سار الجنود الرومان بعيسى المسيح بسرعة إلى المعسكر. وقد وُضعت يداه فوق رأسه، بينما وقف موظف لأخذ الاعترافات أو الأدلة منه وسط الصراخ. وأُخذ عيسى المسيح إلى ساحة في وسطها عمود بارتفاع الخصر، تحيط به قنوات صغيرة لغسل الدماء التي تسيل من المحكوم عليه. وكان هذا العمود قد استعمل مرتين في ذلك اليوم لجلد لصَّين.

رأى يوحنا كل ذلك، فقد زحف بين هؤلاء الذين جاءوا ودخلوا إلى القصر. وكاد يبكي وهو يراقب الجنود يعرُّونه، ويُحنونه فوق العمود ويربطونه، بحيث كان ظهره وقفاه وساقاه معرضة للضرب بالتساوي. ووقف إلى جانبه عبدان ضخمان عاريان، أمسك كلٌّ منهما بسوط مؤلف من ثلاثة سيور جلدية، رُبطت عليهما قطع من العظم. وأهوى كل منهما بدوره بالسياط بكل قوة، لتمزِّق كل ما فيه، ثم ضربوا بالسياط على كتفيه وعموده الفقري وقفاه ووركيه. والتفّت السيور على جسده، ومزَّقت صدره وأضلاعه. والضرب بالجلد يمكن أن يقتل إذا استمر فترة طويلة ،أو أن يجعل المرء كسيحاً مدى الحياة. وكان يجب الإبقاء على قوة كافية لمن يحكم عليه بالصلب، ليتمكن من حمل خشبة الصليب إلى موقع إعدامه. كان الألم فظيعاً. وعندما جُلد أتباع عيسى المسيح في السنين اللاحقة، كان الإيمان يعطيهم التعزية، لأنهم شعروا خلال ذلك بوحوده إلى جانبهم، وعرفوا ما عاناه هو بنفسه.

تحمَّل عيسى المسيح الألم بصمت وقوة فوق طاقة البشر، ولم يصرخ، ولم تؤثر هذه الشجاعة على الجنود. وعندما توقف الجَلد فكُّوه ووقف غارقاً بدمائه، يرتجف من الصدمة، والجروح تمتد من كتفيه إلى قدميه. وسخروا منه عندما وضعوا عليه معطفاً عسكرياً يشبه في لونه الأرجوان الأمبراطوري ليغطوا به عريه. وأصيب يوحنا بالرعب عندما ضفروا إكليلا من الشوك على شكل تاج دائري، ووضعوه بقوة فوق رأسه، بحيث سال الدم من صدغيه. ووضعوا قضيباً في يده اليمنى وركعوا أمامه مستهزئين: «سلام، يا ملك اليهود».

وانفجرت كراهية الجنود لليهود عندما أمسكوا بقضيب وضربوه على رأسه، مما أدخل الشوك بشكل مخيف في جلده. وجاءوا، تلو الأخر، ليركعوا أمامه ويبصقوا عليه، وهم في غضب لصمته ورفضه ردَّ الأهانة لهم.

وتوقفت هذه المسرحية الهزلية عندما أتى الأمر بإرجاعه إلى الممر .كان بيلاطس داخل القصر أثناء الجلد. وساد الصمت بين الجمهور المنتظِر عند خروجه. وأسرع يوحنا الذي كان يحبس اشمئزازه وحزنه إلى الوراء، لئلا يُمسَك هو أيضاً ويُحبس. ووقف في الشارع وشاهد بيلاطس يتقدم إلى حافة الممر ليخاطب الجمهور.

قال بيلاطس: «انتبهوا، أنا أخرجه لكم لتعلموا أنني لا أجد علَّة فيه؟» وفي صمت مطبق نظر الجميع باتجاه المعسكر. وأتى عيسى المسيح خارجاً من الظلال ببطء، والجنود يحثونه على السير، وهو يرتدي الثوب الأرجواني وإكليل الشوك، وقد تلوث وجهه بالبصاق، وارتسم عليه الألم، وثوبه مبلول بالدماء.
صرخ بيلاطس: «انظروا إلى الرجل»!.

توقف قلب يوحنا، فقد تعلّق في هذه اللحظات بآخر أمل تقريباً في إطلاق سراح عيسى المسيح، وإعادته إلى أصدقائه. ثم سمع صوتاً من الجمهور يصرخ بنغمة مسمومة: «اصلبه!» وردد الجمهور الصرخة: «اصلبه! اصلبه!».
لقد أساء بيلاطس التقدير عندما ظن أنه بفعله هذا، يمكنه الحصول على عطف على الضحية. وردَّ على صراخهم، ولكن الضوضاء ازدادت. وسمع يوحنا الكهنة يرددون: «لنا شريعة، وهذه الشريعة تقضي عليه بالموت، لأنه زعم أنه ابن الله».

بدا بيلاطس مرتبكاً ومذعوراً. أخذ عيسى المسيح إلى الداخل مرة ثانية. وفي هذه المرة كانت المقابلة خاصة. ولا بد أن يوحنا قد سمع التفاصيل بعد ذلك من عيسى المسيح بنفسه، واستطاع أن يتخيل المشهد.

وقف السجين المشوَّه بالجروح أمام الحاكم، وقد بدت عظمته أقوى من الدماء والأوساخ على جسمه. فسأله بيلاطس: «من أين أنت؟«

لم يجب عيسى المسيح بشيء.

ـ «ألا تجيبني؟ ألا تعرف بأن لي سلطة أن أخلي سبيلك، وسلطة أن أصلبك؟«
وأجابه وهو يشعر بالألم، وقد انتفخت شفتاه: «ما كان لك سلطة علي، لولا أنك نلتها من الله. أما الذي أسلمني إليك، فخطيئته أعظم من خطيئتك».

خرج بيلاطس إلى الرصيف وحده ثانية. وهنا عرف يوحنا بان كلمة واحدة من الحاكم ستخلي سبيله. ولكن المتّهمون صرخوا: «إذا أخليت سبيله، فلستَ من أصدقاء القيصر! لأن أيَّ أحد يدّعي بأنه ملك يعارض القيصر».

وقع بيلاطس في الفخ. إذا عمل واجبه وأطلق سراح عيسى المسيح الذي وجده بريئاً، فسوف يخسر وظيفته.

أمر بأن يُحضَرَ عيسى المسيح خارجاً مرة ثانية.
قال بيلاطس: «هوذا ملكُكُم« !
ردَّد الجمهور: «ليس هذا ملكَنا!، لِيُصلَبْ« !
ثم قال بيلاطس: «لماذا، وأي شر صنع؟«
ردَّد الجمهور: «لِيُصلَبْ! لِيُصلَبْ« !
فسأل بيلاطس: «هل أصلبُ ملكَكُم؟»
وردَّ الجمهور: «لا مَلِكَ علينا إلا القيصرُ؟«

ولو كانت الظروف مختلفة، لكان بيلاطس قد استمتع بسخرية أوقح شعب من رعايا الدولة الرومانية، وهو يعلن عن ولائه. وكل الذي استطاع أن يراه الآن هو خطر حصول ثورة.

أخذ مكانه على كرسي القضاء في موضع يسمى البلاط لأداء حُكم الموت بسبب الخيانة. وطلب أولاً أن يُحضَرَ إليه وعاءٌ من الماء، وهدأ الجمهور وهو يشاهده يغسل يديه بكآبة.

قال بيلاطس: «أنا بريء من دم هذا الصدّيق.. إنه صنعكم».
صرخ الناطق بلسانهم: «دمه علينا وعلى أولادنا».

وكان بيلاطس مذنباً بالجرم القضائي مثل رؤساء اليهود، إذ أطلق سراح برباس، وحكم على عيسى المسيح بالموت على الصليب.

التل المنعزل :

سادت فترة من الهدوء مرة أخرى، ثم استعدَّ الجنود في الثكنات لصلب الثلاثة الذين حُكم عليهم بالموت. وانتظر يوحنا في الخارج، وقد صمَّم أن يكون بالقرب من عيسى المسيح حتى النهاية. وانتظر الكهنة والكتبة لرؤية ضحيتهم وهو يتعذب، في حين قام أصدقاء برباس بحمله وذهبوا ليحتفلوا بإطلاق سراحه. وجاءت مجموعة من نساء القدس التقيات، اللواتي اعتدن البكاء والنحيب قرب الذين يُحكم عليهم بالموت، للتخفيف من معاناتهم. واقتربن من طرف الممر، وكنَّ على استعداد لتقديم المساعدة.

وفي يوم الجمعة الموافق 7 نيسان سنة 30 ميلادية (وهو التاريخ الحديث الذي يتطابق بأفضل شكل مع الأحداث التي جرت) كانت الشمس لا تزال قوية، عندما سمع يوحنا صوتاً مرتفعاً في داخل الثكنات يأمر الجنود بتنفيذ الإعدام. وخرج قائد الحرس بعد برهة، وقف على درجات الممر، ليشرف على فرقة الإعدام التي تحت إمرته. خرجت في البداية مجموعة من العبيد، وهم يحملون السلالم والحبال والمسامير الحديدية والمطارق، ولكن بدون العوارض الخشبية التي كان يبلغ طولها ما يقرب من ستة أقدام، وكانت موضوعة جانباً للاستعمال عند الصَّلْب وليحملها المتَّهَمون. وكان القانون الروماني يفرض على المحكوم عليهم بالموت أن يحملوا العوارض الخشبية. وهنا كان

اللصَّان يترنَّحان تحت وطأة عوارضهما الخشبية بعد أن تمَّ جَلدهما في الشارع. وكان الجنود الأربعة الذين تمّ تكليفهم بحراستهم وصلبهم، يحثون كلاً منهما على السير إلى الأمام، أو يقومون بضربهما كلما كان ذلك ضرورياً.

رأى يوحنا عيسى المسيح آتيا تحت أشعة الشمس مع جلاديه الأربعة، يرتدي ملابسه دون أن يزيل أحد إكليل الشوك عن رأسه وكانت على منكبيه عارضة خشبية ثقيلة، قرَّحت جِلده، وأحنَتْ جسمَه إلى الأمام. وكان يشعر بالضعف نتيجة لما فقده من دم ولحرمانه النوم والأكل. وبعد أن سار بضعة ياردات، تعثَّر في مشيته في الشارع، ثم سقط على الأرض مع العارضة الخشبية. تقدَّم نحوه قائد الحرس وهو خائف أن يموت قبل صلبه. ولمح أحد الجنود رجلاً قوياً يسير في الشارع، كان قادماً من الريف إلى المدينة، وهو أفريقي يدعى سمعان القيرواني، فأمره بأن يحمل العارضة الخشبية. وبما أن ولدَيْ سمعان القيرواني، الاسكندر وروفس، كانا أعضاء في الجماعة المسيحية، فلا شك أن هذه التجربة قد أثرت فيه كثيراً.

وعندما أُعفي عيسى المسيح من هذا الحمل، سار بثبات بين جلاديه. وبدأت النساء التقيات في النواح والبكاء، فالتفَتَ عيسى المسيح إليهن وتوسل أن لا يبكين عليه، وإنما على أنفسهن وأولادهن، بسبب المآسي التي ستحدث للقدس بعد موته.

وسار خلف النسوة جمهور صغير من الكهنة الذين سيشهدون الإعدام نيابة عن المجلس اليهودي الأعلى، وجماعة من المتفرجين والأصدقاء والمتعاطفين مع أولئك الموشكين على الموت. وانضمَّت إلى يوحنا أم عيسى المسيح، التي قررت بشجاعة أن تبقى إلى جانب ابنها في ساعاته الأخيرة، مهما كان المنظر مرعباً. وكانت معها أُختها سالومي أم يوحنا، ومريم المجدلية ونساء من الجليل. ولم يظهر بطرس الذي كان يشعر بالعار، لكنه كان شاهداً لآلام عيسى المسيح حسب قوله بعد ذلك بوقت طويل. كان بعيداً لا يلاحظه أحد، وحيداً بأفكاره ودموعه. أما بقية الحواريين فلا ذِكر لوجودهم في ما كُتب. أما يهوذا فكان قد انتحر.

سار الموكب عبر الشارع باتجاه البوابة. ورأى يوحنا عدداً من اليهود المنشغلين بأعمالهم اليومية، وعدداً من الحجاج المتفرجين، والذين ابتعدوا مسرعين عن طريق فرقة الإعدام. وأدار الكثيرون منهم وجوههم إلى الحائط لتجنب رؤية هذا المشهد المؤثر. وشاهد يوحنا عدداً من اليهود وهم يبكون بعد أن عرفوا عيسى المسيح، وساروا خلفه من أجل تشجيعه.

اجتاز الموكب بوابة البستان في المدينة، وتحرك قليلاً خلف الأسوار، حيث بدأت الأرض ترتفع باتجاه التل الغربي المشرف على القدس. وقف الجميع على مرتفع صخري يسمى «الجمجمة» (الجلجثة بالآرامية، كلفاريوس باللاتينية). وقد نُصبت على التل جذوع أشجار للصَّلب، كانت قد استُعملت مرَّةً تلوَ الأخرى، بعد أن كان يتمُّ إنزال مَنْ يموت عنها. وكانت المحاجر المهجورة القريبة مكاناً مناسباً لعمليات الدفن السريعة حسب العادات القديمة. وكان العزاء الوحيد لمَنْ يرتاد الجلجلة، هو قربُها من البساتين التي تقع خلفها، ومن ضمنها بستان كان يخص يوسف الرامي.

أجرى قائد الحرس فحصاً سريعاً للموقع، ثم أوعز إلى مساعِده أن يبدأ بعملية الصلب، فصرخ على اللصَّين آمِراً أن يُنزلا العارضتين الخشبيتين أمام جذع شجرة، أحدهما إلى اليسار والآخر إلى اليمين. وطلب المساعِد من سمعان القيرواني وضع عارضته الخشبية بجانب الشجرة

الموجودة في الوسط، وكان قائد الحرس يحمل لوحة خاصة بعيسى المسيح، وأراده أن يكون في الوسط بسبب كونه المدان الوحيد المعروف في المدينة.

أسند العبيد السلالم على الأعمدة ورتبوا الحبال. وقامت النساء بالبكاء والنواح، ثم قَدَّمْنَ إلى الجلادين نبيذاً يحتوي على دواء لتسكين الألم، لإعطائه للمحكوم عليهم بالصلب. كان قَطْعُ الرأس يجري بصورة سريعة ولا يؤلم بصورة نسبية، ولكنَّ الصلب كان بطيئاً وشديد الألم. رأى يوحنا اللصَّيْن وهما يشربان بامتنان آخر نقطة من النبيذ الذي يحتوي على الدواء، وعندما اقترب الجندي بزقِّ النبيذ من عيسى المسيح، ذاق مزيج النبيذ ثم هزَّ رأسه وأرجعه بأدب ولطف. ثم أخذ يوحنا مريم وسالومي وبقية النسوة إلى مكان لا يمكن أن يشاهدن منه أو أن يسمعن ما كان موشكاً على الحدوث، وتركهنَّ هناك. وعاد حتى يُعزِّي عيسى المسيح، ووقف ثابتاً في مكان قريب ليراقب، بقدر ما سمح له الجنود.

وبينما كانت الفِرَقُ الأخرى تعمل على صَلْب اللصَّيْن، وقف الجلادون الأربعة عند عيسى المسيح ليجهِّزوه للصلب، وعرّوه وأزالوا حتى القماش عن حقويه، كما يظهر في العديد من اللوحات الدينية التي تمثّل هذا الموقف. ولم يبدل الرومان من عاداتهم، فقد كان الرجل يُصلب وهو عارٍ بغضِّ النظر عمَّا إذا كان يهودياً أو من غير اليهود، وكان يمثّل ذلك جزءاً من العقوبة. ومن المعلوم أن اليهود المختونين كانوا يكرهون التعري، لأنه إهانة للكرامة الإنسانية.

ألقى الجلادون بعيسى المسيح أرضاً، وكانوا حريصين أن لا يتركوا للمصلوب مجالاً للهرب أو الدفاع عن نفسه. أراد يوحنا أن يتوسل إليهم ليكونوا لطفاء معه، لأنه يعرف أنه لن يقاوم. ولكنه لم يكن يتوقع أن التوسل سيقع على آذان صمَّاء، فهؤلاء الرجال لم يعبأوا بأن ظهر عيسى المسيح ممزَّقٌ وطريٌّ، أو أن رأسه محاطٌ بالأشواك. ومدَّد جنديان ذراعيه، ودفع جندي ثالث بالعارضة المتقاطعة تحتها، بينما ضغط جندي رابع بشدة على ركبتيه. والتقط أحد الجنود مسماراً حديدياً طويلاً ومطرقة، وجلس على إحدى ذراعَيْ عيسى المسيح، ووضع المسمار فوق راحة يده. وبضربة حادة اخترق المسمار اللحم. وضع يوحنا يديه على أذنيه، ولكنه سمع فجأة، بأن ردَّ الفعل غير الإرادي للاستغاثة لعيسى المسيح، لم يكن صرخة ألم، وإنما صرخة «أبَّا» أيها الآب. وبدأ الجندي الثاني بوضع مسمار على باطن اليد الأخرى. ثم سمع يوحنا اللصَّيْن وهما يُسَمَّران ويصرخان ويشتمان ويقولان كلاماً بذيئاً، ولكن عيسى المسيح لم يصرخ، وإنما كان يصلي. وخرجت كلماته واضحة بين اللهثات والتجرعات وضربات المطرقة: «اغفر لهم يا ابتِ، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون».

أصيب يوحنا بالدهشة، وبدأت كراهيته المتزايدة لجلادي سيده تتحوّل رغما عنه إلى محبة، وشعر أن الصلاة من أجله سوف يستجاب لها. وتذكَّر كلام عيسى المسيح إلى الآب: «أنا أعلم أنك تسمعني دائماً». وسوف يطلب هؤلاء الجنود الذين يصلبون عيسى المسيح الآن ويسخرون منه بعد قليل «أن يقبل توبتهم يوماً ما، ربما بعيداً في أرض أخرى». (ويوجد وصف حي ودقيق لهذا الموقف في إنجيل لوقا).

كان الجلادون في هذه اللحظة لا يدركون أن قسوتهم المفروضة بالأوامر العسكرية، ستلاقي المحبة بدلاً من الكراهية. دقوا المسامير ومسحوا الدم عن أيديهم.

تسلّق أحدهم السُّلَّم. ورفع آخرون العارضة الخشبية وعيسى المسيح مُسَمَّرٌ عليها، مما سبَّب له ألماً كبيراً. ثم رفعوه بالحبال بحركة مفاجئة، وثبتوا العارضة بالحبال إلى العمود، بحيث ضغط وزنه إلى الأسفل على وتد بارز بين مسند الرجلين. ثم ربطوا رجليه على الخشب، وغرزوا المسامير فيها، بشكل ثابت وقوي حسب تجربتهم الطويلة في الصلب.

أزال الجنود السُّلَّمَ والحبال، وتركوا عيسى المسيح مُعلَّقاً بالمسامير، وقدميه ترتفعان قليلاً عن الأرض. ثم وقف جندي للحراسة. وعندما حاول يوحنا أن يطرد الذباب والحشرات اللاسعة بعيداً عنه، أمره الجندي بخشونة أن ينصرف. وأخذ يراقب وهو عاجز أن يفعل شيئاً، العذاب يقضي على أحسن صديق له. وتخثَّر الدم الذي سال من يديه وقدميه، ولكنه كان يسيل من جديد كلما حاول أن يتنفس. وكان يوحنا يدرك الألم الشديد الذي يشعر به عيسى من خلال التشنُّجات الصادرة عن الذراعين والقدمين، وتقيُّح الجروح على الجلد، والأشواك والمسامير، والشمس التي لا ترحم، والعطش المحموم من الصدمة.

صعد جندي إلى السُلَّم مرة ثانية، ودقَّ على الخشبة فوق رأس عيسى المسيح، اليافطة التي سلَّمها له قائد الحرس، والتي تُظهر اسمَ المصلوب وجريمته بالآرامية واللاتينية واليونانية: «عيسى المسيح الناصري ملك اليهود». واحتجَّ في الحال شهود مجلس اليهود الأعلى، وقالوا: «لقد ادّعى أنه ملك اليهود». هز قائد الحرس كتفيه وقال لهم، إن أية شكوى يجب أن تقدم إلى الحاكم. أسرع اثنان من رؤساء الكهنة ليطلبوا مقابلة الحاكم، وعندما رجعا بعد فترة قصيرة، كانا يشعران بالغضب. أخبرا البقية بأن بيلاطس قد صدَّهما قائلاً: «ما كتبته، كتبته». وكان ردُّه موجزاً، لأنه تكلم باليونانية: «ما كُتب فقد كُتب».

وتخلى هؤلاء عن الشفقة نتيجة لغضبهم، وقذفوا عيسى المسيح بالشتائم وهو معلَّق بدون حراك على الصليب، وقالوا: «لقد خلَّص الآخرين، ولكنه لا يستطيع أن يخلِّص نفسه!» كما قالوا مستهزئين به: «إنه ملك إسرائيل! لينزل عن الصليب، وسوف نؤمن به. إنه يثق بالله. لِيُخَلِّصْهُ الله الآن إذا كان يريده، لأنه قال: أنا ابن الله». وردَّدت الجماهير التي اندفعت من المدينة، والمسافرون على الطريق، صرخات الاستهزاء، وعيّروه بكلماته التي كانت تتحدث عن الخلاص. وجلس الجنود ليقتسموا ثيابه بينهم، واقترعوا على ثوبه «غير المخيط»، واستهزأوا بلقبه «المخلّص»، وقالوا ساخرين: «إذا كنتَ ملك اليهود، خَلِّصْ نفسك!» وانضمّ اللصَّان المصلوبان إليهم في توجيه الاهانات، كما لو أنهما يريدان التخفيف من ألمهما وغضبهما قبل أن تتحوّل أصواتهما إلى أنين.

لاحظ أحد اللصَّيْن الذي كان يقاسي نفس العذاب الجسدي الذي عاناه عيسى المسيح، صبره عندما يهيج الألم في جسده المصلوب، وعدمَ ردِّه على أولئك الذين يعيّرونه، ووقاره الهادئ في هذه اللحظات المخزية. كما لاحظ مسحة من الفرح على محياه، كما لو كان يرى خلف هذا الموت البطيء شيئاً مدهشاً. صمت هذا اللص، ولكن زميله الذي كان يتلوَّى ثانية في محاولة للتخفيف من الضغط عن يديه المسمَّرتين، عيّر عيسى المسيح قائلاً: «إذا كنت المسيح فخلِّصْ نفسَك وخَلِّصْنا!» وبالكاد كان صوته مسموعاً. ولكن اللصَّ الآخر سمعه ووبخه قائلاً: «لقد نلنا ما نستحقُّ بسبب جرائمنا، ولكنَّ هذا الرجل لم يصنع سوءاً». والتفَتَ برأسه بألم إلى الصليب القائم بينهما وقال: «يا عيسى المسيح، اذكرني متى جئت إلى ملكوتك».

كانت لدى عيسى المسيح القوة لكي يلتفت برأسه ويجيب: «الحقَّ أقولُ لك، إنك اليوم ستكون معي في الفردوس».

كان انتباه يوحنا مشدوداً إلى عيسى المسيح، وأدرك الآن فقط أن مريم المستندة على أمه سالومي، قد جاءت من المكان الذي كان يحجب المنظر المرعب لابنها وهو يسمَّر ويُرفع على الصليب. شجَّعها يوحنا ونظرا معاً إلى عيسى المسيح، وشاهدا في وجهه الحب لها وامتنانه لشجاعتها ووفائها، وشجاعة يوحنا وإخلاصه. وأودع برقة الواحد منهما في رعاية الآخر.

بقي يوحنا قريباً منها، ومنذ ذلك الوقت أصبح بيته بيت مريم حيثما ذهب. ولكنها لم تكن ترغب في تَرْك الصليب، فوقفا هنالك عاجزَيْن عن استيعاب أيِّ شيء، سوى أنه كان معلَّقاً بألم فظيع، وأنه سيموت. وجعلهما الأسى والحيرة والهزيمة، ينسيان الكلمات التي قالها لهما عن موته، ووعده لهم بأنه سيراهم ثانية. ووقفت على مسافة قريبة، سالومي ومريم المجدلية، وعدد قليل من الأصدقاء المقربين. ووقف خلفهم على مسافة أبعد، بعض الذين عيَّروه، وعدد من المتفرجين الذين يشعرون بالحزن. فقد كانوا يجلسون في الماضي عند قدميه ويُعجَبون بكلماته وأعماله، ولكنهم الآن فَقَدُوا كلَّ شيء. إنه معلَّق ويموت فوق الصليب. وكان شعور الإيمان بأنه سيخلِّص أرضهم وشعبهم يموت معه.

وبعد مرور ثلاث ساعات تقريباً، كان التعذيب قد فعل فعله في جسده، حتى أصبح المنظر مرعباً. فزال الجمال الجسدي الذي كان يعكس طيبته، وأصبح منكمشاً ومشوَّهاً. سال الدم من يديه ورجليه، وكانت شفتاه ووجهه وأطرافه ملطَّخة بتشوُّهات أشعة الشمس، وعضِّ الحشرات. وظهرت الحزوز حيَّةً على جلده، حيث لُفَّ السوط حول صدره ومعدته وساقيه، وبرزت عظامه من اللحم.

وعند وقت الظهيرة، بدأ الرعب من جديد. فلقد غطى الظلام الأرض، ولم يكن ذلك كسوفاً للشمس. كان ذهاب النور بشكل غريب، من الأسباب التي تسبق الهزة الأرضية. ومهما كان السبب في ذلك، فإن هذا الظلام الذي ساد في غير وقته قد أسكت الساخرين، وزاد من معاناة مريم ويوحنا، لأنه بدا كأن عيسى المسيح محاطٌ بالشر. وبدت على وجهه علامات معاناة أكثر رعباً من ألم الجراح والسخرية. كان معلَّقاً على شجرة، وينظر برعب في هوَّة سحيقة، ويغزو روحه ظلامٌ شديد، وكراهية كل الذين حوله. وأثقل كتفيه ثقلٌ غيرُ منظور. وبينما مرَّ الوقت بشكل بطيء لا متناهٍ بدون أن تتحرك الظلال، التصقت مريم بيوحنا وهي تشعر باليأس، ولم يتمكنا من مساعدته. ولم يكن هذا موتاً مفرحاً لشهيد. فقد غرق عيسى المسيح بأسًى عميق يفوق الخيال.

بعد مرور ثلاث ساعات من الظلام، صرخ عيسى المسيح صرخة شديدة، أجفلتهم بقوتها ووضوحها: «الوي.. الوي.. لما شبقتني؟». أصاب الفزع مريم ويوحنا؟ عندما صرخ: «الهي.. الهي.. لماذا تركتني؟». قال الكلمات الأولى للمزمور الثاني والعشرين. ولكن قوة الصرخة لم تدفعهم إلى الشك في أن هذا السؤال قد انتُزع بمعناه الكامل من أعماق كيانه.

وصرخ الجنود الآخرون الذين لم يعرفوا الآرامية: «إنه ينادي إيليا!» وبعد برهة قصيرة، قال: «أنا عطشان». وغمس جندي إسفنجة في وعاء من الخلّ، ووضعها على غصن زوفا، ووضعها على شفتَيْ عيسى المسيح فشرب. وكان الواقفون الآخرون بدون إحساس، وقالوا: «اتركوه وحده.. دعنا نرى هل يأتي إيليا ويُنزله».

ومضت دقائق أخرى، وكان يتنفس بشهقات قصيرة، كما لو أنه يموت بالفعل (رغم أن الرجل المصلوب في مقتبل عمره يأخذ ثلاثة أيام حتى يموت). لم يكد يوحنا يحتمل المنظر، وكان منهكاً لا يتذكَّر كلمات عيسى المسيح في عظته العظيمة عن الراعي الصالح: «لا رجل يأخذ حياتي مني، أنا أبذلها بنفسي. لي السلطة أن أبذلها وأسترجعها ثانية».

وفجأة صرخ عيسى المسيح ثانية، ليس بنغمة الهجر، وإنما بنغمة الانتصار: «قد تم!» وبعد لحظة سمعه يوحنا يقول: «يا ابتِ في يديك أستودع روحي». ومال رأسه المكلل بالشوك، وخلال لحظة أصبح جسده معلَّقاً وساكناً تماماً.

اهتزَّت الأرض بفعل زلزال قوي، وتشقَّقت الصخور في المحاجر القريبة. وعلى بُعد نصف ميل انشقَّ الحجاب الكبير الذي يحجب الطريق إلى قدس الأقداس في الهيكل إلى نصفين من الأعلى إلى الأسفل. وعندما توقَّفت الهزة، زال الظلام، ووقف الجلادون وقد أصبح لونهم أبيض من الرعب. ونظر قائد الحرس الروماني إلى جسد عيسى وقال: «في الحقيقة كان هذا الرجل ابن الله».

الجزء الثالث

الصباح المجيد

القبر الفارغ:

كان جسد عيسى المسيح معلّقاً ويابساً في الشمس. ولم يُسمح ليوحنا بأخذه لدفنه، لأن عرض المصلوب حياً أو ميتاً كان جزءاً من حُكم الموت بالصَّلْب. وكان الجلادون يغادرون مكان الصلب أحياناً مبكرين، فيقوم أصدقاء المصلوب بإزالته، ويحاولون إنعاشه. ولكن الساعتين والنصف التي بقي فيها عيسى المسيح معلّقاً وميتاً على الصليب بدَّدت كل أمل. وكل الذي استطاع أن يفعله يوحنا هو إبعاد الطيور الجارحة عنه.

كانت مريم لا تزال ترفض المغادرة. لذلك تراجعت النساء الأخريات عن المغادرة أيضاً، وقد استبدَّ بهنَّ الأسى، وهنَّ لا يعرفن ماذا يفعَلْن. وسار الكهنة والكتبة بعيداً باتجاه المدينة، ورجع الناس والحزن يظهر على العديد منهم، وضرب البعض على صدورهم علامة للندامة. وتحولَّ اللصَّان بفعل التعذيب والصَّلْب والجوع إلى أكثر قليلاً من جثث واعية، ويمكن أن تنقضي ليلة كاملة قبل أن يموتا.

جاء مراسل رسمي إلى قائد الحرس. فقد أراد بيلاطس أن يتأكد إذا كان عيسى المسيح قد مات مبكراً في صلبه أم لا. أكدَّ قائد الحرس على ذلك، وعاد المراسل إلى سيِّده بهذا التأكيد.

ثم أصبح الجثمان متيبِّساً على الصليب مثل قطعة من الخشب، وحاول اللصان بضعف وجهد أن يتنفسا برفع صدريهما ليدخل الهواء. وقبل ساعة من الغروب تقريباً، شاهد يوحنا ثُلَّة من الجنود، وقد حملوا الرماح والمطارق الحديدية. سار جندي إلى كل لصّ، ورفع مطرقة وحطَّم

بصورة وحشية ركبتيه وساقَيْه. وأطلق كل منهما صرخات ضعيفة إشارة إلى الألم الذاوي، وتبعتها سكرات الموت في الحال. فعندما لا يستطيع المصلوب أن يتحمل الضغط على ساقيه، فإنه أيضاً يفقد القوة لرفع أضلاعه لكي يتنفس.

تجمَّع الجنود حول عيسى المسيح وكان يبدو ميتاً. ولكي يتأكدوا من ذلك طعنه أحد الجنود بحربة، محدثاً جرحاً كبيراً يمكن إدخال يد فيه. فرأى يوحنا اندفاعاً مفاجئاً لدم وماء. وكان سبب ذلك نزيف داخلي تسبَّب به الجَلْد، وجعل الدماء تستقرُّ في القفص الصدري. وعندما تحدَّث الجنود إلى قائد الحرس، عرف يوحنا بأن بيلاطس قد وافق على طلب قيافا بإزالة الأجساد الميتة، حتى لا تُنجِّس السبت العظيم للفِصح ببقائها معلَّقة خارج سور المدينة.

وقامت ثُلّة منهم بالأعمال التي تسبق مراسم الدفن، وبالكاد أنهوها، حتى اقترب يوسف الرامي ونيقوديموس مع الخدم حاملين حِزَماً من الكتان وأكياساً من الحنوط، واقتربوا من الصَّليب الأوسط. وكان هذان المستشاران في المجلس اليهودي الأعلى قد تخلَّيا عن سرية ولائهما لعيسى المسيح، وطلبا بجسارة من بيلاطس السماح لهما بأخذ الجسد ودفنه. وعندما استلم بيلاطس تقرير قائد الحرس، وافق على طلبهما، لأنهما كانا معروفين ولهما سمعة جيدة. ونادرا ما رُفض مثل هذا الطلب إلا في حالات الخيانة العظمى.

وبعد أن تقدَّم المساء، راقب يوحنا وقد أغرقه الأسى، العملية الرهيبة لإزالة المسامير بالكماشات الحديدية، وخفض الذراعين المتيبستين، ووضع جسد عيسى المسيح على الأرض، ثم أُغمي على مريم أخيرا. وعندما أنعشتها النسوة، أخذها يوحنا وسار معها بأسى عبر المدينة إلى بيت يوحنا مرقس.

ولم يعرف يوحنا ماذا حدث حتى الغسق بلحظات قبل بدء السبت، ووصول مريم المجدلية والنسوة الأخريات إلى البيت.
فقد أحضر نيقوديموس الكثير من الحنوط كما لو أنها لدفن ملك **.** وأحضر يوسف الرامي كتاناً غير مُبَيَّض لعمل الكفن ومنديلاً للرأس. ولم يُزِل اليهود الإجزاء الداخلية من الجثة كما كان يفعل المصريون. ومن أجل إتمام عملية الدفن بسرعة قبل حلول السبت، لفَّ المستشاران البارزان وخَدَمُهُما جَسَدَ عيسى المسيح غير المغسول باحترام، وحملوه مسافة قصيرة إلى بستان يوسف الرامي. وكان يوسف قد أعدَّ قبراً لكي يُدفن فيه هو نفسه، وقد حُفر القبر الجديد في جانب التل الذي يحمي خضراوته وشجيراته. وبما أنه لم يكن لعيسى المسيح قبر عائلة، ولم يكن هنالك وقت للبحث عن مكان، فقد وُضع في قبر الرجل الغني.

وشاهدت مريم المجدلية ورفيقاتها اللواتي كنَّ يتابعن عن بُعد، موكب الدفن، والرجال ينحنون للدخول إلى القبر الذي احتوى على مصطبة حُفرت في الصخر. وخرج المستشاران من القبر، ودحرج الرجال صخرة عظيمة سَدَّت بابه، وكان العرق يبلِّل أجسامهم. وبعد أن شاهدت النسوة كلَّ ذلك، أسرعن راجعات إلى المدينة.

أمضى يوحنا ومريم والنسوة الأخريات ليل ونهار السبت في حزن وصمت. لقد انهار عالمهم. ولم يتمكن حديث أنبياء العهد القديم، ولا كلمات عيسى المسيح الأخيرة، أن تخفف من حزنهم. وبعد أن فقدوه، فقدوا الأمل والهدف. ولم تطاوعهم قلوبهم في الذهاب إلى الكنيس أو الهيكل،

ولكنَّ الأصدقاء الذين جاءوا لتقديم التعازي، تحدثوا عن انقسام في المدينة. إذ احتفل كثيرون منهم بصخب، وفي الحين نفسه، أصابت الحَيرة قسماً آخر منهم، بسبب الإدانة المفاجئة والموت المخيف لعيسى المسيح. ولم يخبرهم أحد بأن قيافا قد أرسل رؤساء الكهنة إلى قصر بيلاطس في ذلك السبت العظيم، منجِّسين بذلك أنفسَهم حسب الطقوس، وذلك ليحذِّروا بيلاطس بأن الحواريين يمكن أن يسرقوا الجسد، ومن ثم يعلنوا بأن عيسى المسيح قد قام من بين الأموات. وقد وافق بيلاطس، بعد جهد، على طلب الكهنة، بأن يقيموا حرسهم ويختموا القبر. وقد انتهك هذا العمل قدسية السبت.

ولو علمت النسوة بوجود الحراس، لما كانت لديهن الشجاعة في التوجه إلى القبر في صباح اليوم التالي: لقد عرفن عن وجود الصخرة العظيمة، ولم يعرفن كيف يمكن إزاحتها.

وحالما انتهى السبت، أسرعت مريم المجدلية وسالومي ومريم الأخرى (التي كان أبناؤها بين الحواريين) إلى الدكاكين التي أعيد فتحها واشترين حنوطاً. ورغم معرفتهن بالمقدار الوفير الذي حنط به نيقوديموس جَسَدَ عيسى المسيح، أرَدْنَ أن يضَعْنَ هذا العطر للمساعدة في إزالة رائحة الموت، وتكريم ذكرى عيسى المسيح . وقد قُمْنَ بمزج الطيب أثناء الليل قبل نومهنَّ، وكان هذا التحضير هو الثاني بعد وفاته.

وفي فجر اليوم الثالث، الأحد 9 نيسان سنة 30 ميلادية، بينما كانت مريم نائمة حزينة، ذهبت النسوة الأخريات لزيارة القبر في الفجر. وسرنْ في حدادٍ داخل شوارع المدينة، وعبر البوابة التي فُتحت عند الفجر، ثم دخلن بستان يوسف الرامي.

سمع يوحنا قرعاً على الباب. فأدخلت رودا الخادمة سمعان بطرس، الذي لم يعرف أحدٌ أين كان يقيم، رغم أن زوجته كانت مع الحجاج. جلس الرجلان معاً في حزن عميق لا تعبِّر عنه الكلمات، بينما أشرقت الشمس وملأ الضوء العليَّة. ثم سمعوا أصواتاً أخرى. فقد اجتمع الحواريون الواحد بعد الآخر، لأنهم استطاعوا الآن أن يتحركوا بحرية، لأن السبت كان قد انتهى. واجتمعوا في بيت الذكريات السعيدة ليستمدوا القوة بعضهم من بعض. ولم يتحدث أحد منهم عمَّا جرى خلال الأيام القليلة الماضية، فقد كان الحزن يوحّدهم ويسكتهم عن الحديث، ولأنهم أرادوا الآن تعزية أمه مريم.

وسمعوا فجأة جلبة في الأسفل، وأصوات وقع أقدام على الدرج. وكانت تلك الجلبة بسبب مقدم النساء. واندفعت مريم المجدلية وسالومي ومريم الأخرى إلى داخل الغرفة، وبعدها صرخت مريم المجدلية: «لقد أخذوا الرب من القبر ولا نعرف أين وضعوه!»

كانت رواية النسوة للحدث غير متناسقة ومذهلة، بحيث كان رد الفعل الطبيعي ليوحنا وبطرس والآخرين أن ينظروا إليها كهراء. ولم يكن لقول المرأة اعتبار كبير عندهم، ولا قوة له في القانون. ولم يلحظ أحد بدقة ماذا قلن، كما أن التناقضات الظاهرية في أقوالهن جعلت التاريخ يسجل شهادتهن بصورة غير واضحة وعفوية.

فقد قلن إنهن دخلن البستان بعد شروق الشمس تماماً، وشاهدن في الحال بأن الحجر قد أزيل عن باب القبر. وقد استلقى الحراس المسلحون على الأرض، وصاروا مثل الأموات: ثم نظرن في القبر، فلم يُشاهَد عيسى المسيح. فلقد اختفى الجسد. وبينما هن في حَيرة، شاهدن نور ملاك باهر كالبرق. ولم يستطعن أن يتذكرن إذا كان ملاكاً واحداً أو أكثر، كما لم يعرفن أكان في داخل القبر أم

جالساً على الحجر. وقال الملاك للمرأتين: لا تخافا.. إن المسيح ليس هنا، لقد قام، وسيذهب إلى الجليل حيث يرونه، اذهَبْنَ وأخبرْنَ الحواريين «وبطرس» في الحال.

تركت المرأتان القبر مسرعتين وهما في خوف وصدمة ورعب، وأسرعتا راجعتين إلى المدينة دون أن تتفوّها بكلمة واحدة لأي شخص مرّتا به، وقدمتا في الحال إلى البيت.

حجر ضخم قد أزيح، حراس مثل الميِّتين، ملائكة باهرون، قبر فارغ. بدت كل هذه الأمور كأنها قصص سخيفة. ولكن شيئاً ما قد حدث.

انتعل بطرس ويوحنا حذاءيهما وركضا بسرعة كبيرة. كان يوحنا أسرع من بطرس، لأن هذا الأخير كان ضخم الجثة. وعندما خرجا من الشوارع المكتظة وعَبَرا البوابة، تقدَّم يوحنا على بطرس ووصل البستان أولاً، ولكنه لم يستطع رؤية الحراس في أي مكان. ثم ركض إلى القبر، انحنى ونظر داخل القبر، وبعد أن اعتادت عيناه على الرؤية في المكان المظلم لم يشاهد أية دلالة على أن القبر قد سُرق. كان الكفن الكتاني مطوياً قطعة واحدة وليس كومة مثل ملابس اليعازر في القبر، عندما أمر عيسى المسيح «أن يحلّوه»، وكأن الجسم قد عبر من خلال الكفن. ورأى يوحنا على مسافة قريبة المنديل الذي كان على رأسه وحول الفك والجمجمة مطوياً على حدة.

وصل بطرس ودخل مباشرة إلى القبر، ثم تبعه يوحنا. كان القبر والكفن فارغين بدون شكّ. لقد آمن يوحنا بالشيء الذي لا يمكن أن يُصدَّق: لم يتوقع ما شاهده. لم يَدُرْ بذهنه أيٌّ من النبوءات التي علَّمها لهم عيسى المسيح من الكتاب المقدس، بأنه سيقوم من بين الأموات، لكنه آمن.

خرج بطرس من القبر صامتاً وتبعه يوحنا، سارا معاً بعيداً عن البستان وتبعتهما اثنتان من النسوة. بقيت مريم المجدلية هناك، وسمعوها تبكي ثانية. ودخلوا بوابة المدينة دون أن ينطقوا بكلمة واحدة، ولم يرجع بطرس إلى بيت مرقس، وإنما انطلق إلى مسكنه.

وبعد ساعة أو ساعتين، وبينما كان يوحنا والآخرون في حَيرة حول معنى القبر الفارغ، أتت مريم المجدلية إلى البيت ثانية، وركضت صاعدة الدرج، وكان وجهها متألقاً وقالت: «لقد رأيت الرب!».

تجمَّعوا حولها، فقد كانت القصة ظاهرة أخرى غريبة، إضافة إلى ما جرى في هذا الصباح الغريب من فراغ القبر. أخبرتهم كيف توقفت عن البكاء عندما نظرت ثانية داخل القبر. فرأت في المكان الذي وُضع فيه جسد عيسى المسيح، رؤيا باهرة: ملاكاً عند الرأس وآخر عن القدمين.

قال لها الملاكان: «لماذا تبكين؟«
أجابت: «لقد أخذوا الرب ولا أعرف أين وضعوه».

وهناك شيء جعلها تلتفت وراءها، ودموعها ما زالت تجعل المنظر ضبابياً، فشاهدت رجلاً وظنت أنه البستاني: لم تكن الرؤية ملائكية في هذه المرة، وإنما كان رجلاً طبيعياً وقوياً في بداية الثلاثينات من عمره.

توسلت إليه أن يخبرها أين وضعوا عيسى المسيح وقالت: «أنا سآخذه». قال لها الرجل: «يا مريم« !

لم تخطئ في إدراك الصوت، فعرفته وصرخت: «يا معلّمي»، وخرّت على قدميه. قال لها المسيح بلطف: «لا تلمسيني»، لأنه لم يصعد بعد إلى الآب.

وأحضرت لهم رسالته التي دعاهم فيها بإخوته، وقالت إنه يقول لهم: «أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم، إلى الهي وإلهكم».

كان ذلك مجرد كلام امرأة. ربما رأت رؤيا؟ اشتاق يوحنا أن يراه بعينيه، ويمسكه ولو لثانية أو ثانيتين، كما سمح لمريم أن تفعل قبل ذهابه إلى الآب.

لم ينتقل فرح مريم المجدلية إلى الآخرين، إذ لم يصدِّقها البعض، ومن ضمنهم توما الذي كان عليه أن يغادر بعد وقت قليل لشؤون سوف تُشغله بقية النهار. وذهب اثنان من الحواريين في رحلة بعد الظهر إلى عمواس التي تبعد سبعة أميال عن القدس. وسارا في حزن وحيرة.

لم يمض على مغادرتهما أكثر من ساعة، عندما فُتح باب البيت وأُغلق ثانية. وسمع يوحنا خطوات ثقيلة على الدرج، ولم تكن سوى خطوات بطرس. دخل سمعان بطرس الغرفة، ولاحظ يوحنا في الحال أن شيئاً مدهشاً جداً قد حصل له. كان هادئاً، ولكنه يشعر بسعادة، واختلطت الدموع بالفرح، ثم قال: «لقد ظهر لي». ولم يكشف عن أية كلمة من الحديث الذي جرى بينهما. وعرف يوحنا الذي اشتاق أكثر من أي وقت مضى إلى رؤيته، الطبيعة الحقيقية لعيسى المسيح . لقد ظهر لأول مرة للذي أحبه وأنكره في الوقت نفسه.

ورغم أن بطرس لم يكشف ما جرى معه بصورة خاصة، لم يَعُدِ الشكُّ يسيطر على معظم الحاضرين. ومهما سيقول العالم، فإن عيسى المسيح قد قام من بين الأموات.

وعلم الحواريون أن قيافا وموظفيه، جابهوا الشائعات التي انتشرت بسرعة في المدينة عن قيام عيسى المسيح، بنشر بيانات تقول، إن تلاميذ عيسى المسيح قد سرقوا جثمانه عندما كان الحراس نائمين. وستؤدي الإجراءات التي سيتخذها رئيس الكهنة إلى الكشف عنهم وإلقاء القبض عليهم ومعاقبتهم، حتى لا يتمكّنوا من نشر هذه الخدعة. وأسرعوا إلى إغلاق الباب الخارجي والباب الداخلي لبيت مرقس بالمزلاج.

تحدَّثوا كثيراً بين أنفسهم. كان القبر فارغاً، رأته مريم، وظهر لبطرس وغفر له، ولكنهم لا يعرفون ماذا سيفعلون بعد ذلك. كانت أحداث ذلك اليوم تعجز عنها التجارب العادية. وعند المساء أحضرت «رودا» وجبةً من السمك المشوي والعسل والخبز، وجلسوا يأكلون، وهم يشعرون بالحمد والفرح، ولكن الأسى والدهشة كانا لا يزالان ماثلين في نفوسهم.

وسُمع فجأة طرق شديد على الباب، فخاف بعضهم، وظنوا أن شرطة الهيكل قد اكتشفتهم، وسمعوا الأبواب تُفتح، وأصوات معروفة لهم فرحة جداً. وبعد أن أُغلقت الأبواب، صعد الاثنان

اللذان ذهبا إلى عمواس بسرعة على الدرج، واندفعا إلى الغرفة. عرف يوحنا في الحال ماذا حدث، وقبل أن يتكلم قال أحدهم: «حقاً، لقد قام الرب! لقد ظهر لسمعان!».

لم يستطع المسافران أن يخفيا انفعالهما عندما أجابا بأنهما كانا سائرَيْن على الطريق يحاولان فَهْمَ أحداث الأيام الماضية، ولم يتمكنا من التخلص من حزنهما رغم القصة التي جاءت بها النسوة، ثم انضم إليهما رجل غريب، سألهما عن سبب حزنهما. لم يتمعَّنا في وجهه الذي كان مخفياً تحت غطاء رأسه، فقد كانا ينظران إلى الأرض. وعندما بدا لهما أنه يجهل الأحداث، أخبراه عن موت النبي الذي علّقا عليه آمالهما، كما أخبراه قصة اكتشاف النسوة للقبر الفارغ، وكيف أن بطرس ويوحنا قد أسرعا إلى المكان، ووجدا أن الأمر كما ذكرته النسوة، ولكنهما لم يرياه.

فوبَّخهما الرجل الغريب، وقال إنهما غبيان ولا يؤمنان بسهولة بكل ما تكلم به الأنبياء عن عيسى المسيح. وبدأ يشرح لهما نصوص الكتاب المقدس بطريقة زرعت الأمل في قلبيهما بشكل غريب، ثم وصلا إلى عمواس، وتظاهر الغريب أنه ذاهب إلى مكان أبعد. ولما كان وقت الغروب قد حان، توسلا إليه أن يمكث معهما في البيت. تناولوا وجبة الطعام، وعندما أخذ الخبز وشكر وكسره، وأعطاهما كسراً من يدين مجروحتين، أدركا مَن هو.

وفجأة وبعد لحظة الإدراك المجيدة تلك، اختفى الرجل الذي حسباه مسافراً. رجعا في الحال إلى القدس عند المساء ليحملا الأخبار. ولم تقف مخاطر الطريق واللصوص والتعب والإنهاك عائقاً أمام العودة، بسبب الفرح الذي كان يحفزهما على المجيء.

انصت يوحنا مع الباقين بصمت. ولم تبق لديه أي ذرة شك، ولكنه اشتاق بقوة أن يراه هو بنفسه. لقد رآه أربعة من رفاقه على الأقل، ولم يره هو بعد.

كانوا يتحدثون بانفعال عندما سمعوا صوت عيسى المسيح المميز يقول لهم: «السلام لكم». نظروا ورأوه هناك واقفاً بالقرب من الطاولة بينهم، رغم أن الأبواب مغلقة. ورغم أنهم قد اشتاقوا إليه، إلا أن المفاجأة أغلقت عليهم أبواب التفكير، وظنوا أنهم يرون شبحه. كان جسد الجلجلة المحنَّط حيًّا بصحة عادية، ويرتدي ملابسه المعتادة، بابتسامة لا تُنسى أبداً. ورغم شعورهم واعتقادهم بأنه قد قام، إلا أن مجيئه المفاجئ قد سبَّب لهم الاضطراب.

تحدَّث إليهم ثانية وقال: «لماذا أنتم مضطربون؟ لماذا تثور الشكوك في أذهانكم؟ انظروا إلى يديَّ وقدميَّ. إني أنا بنفسي. المسوني وانظروا إليَّ. ليس للشبح لحم وعظم كالتي ترونها لي».
مدَّ يديه، فاتضحت لعيونهم الثقوب التي أحدثتها المسامير في يديه. وأراهم قدميه، ورأوا مكان اختراق المسامير. وبينما كانوا لا يزالون صامتين من الفرح والدهشة، ولا يزال بعضهم يشعر بالشكّ، طلب شيئاً ليأكل. فأعطوه بعض السمك والعسل وأكله.

جلس معهم وعلّمهم تماماً كما فعل في الماضي. ذكر كيف أخبرهم بأن النبوءات عن المسيح ستتمُّ فيه. خاض معهم حديثاً عن الكتب المقدسة، كما حدّث الاثنين على طريق عمواس، مبدياً لهم أنه كان على عيسى المسيح أن يتألم من أجل خطايا البشر، ثم يقوم من بين الأموات ويدخل إلى مجده. وقد تمت النبوءات الواحدة بعد الأخرى، برجال يعملون وهم غير مدركين، مثل الجنود الذين لم يكسروا ساقيه، والمستشارين الذين دفنوه في قبر رجل غني.

وفي هذه الأثناء كان جميع الحاضرين يشعرون بالفرح الكبير، وقال لهم ثانية: «السلام لكم». وأخبرهم بأنهم سيكملون عمله في منح مغفرة الخطايا للناس.

لم يمكث معهم طويلاً، ولم يظهر ثانية في اليوم التالي. وعندما رجع إليهم توما، رفض أن يؤمن بأنهم قد رأوه. وقال: إنه ما لم ير علامات المسامير هو بنفسه، ويضع إصبعه حيث كانت، ويضع يده في جنبه، فلن يؤمن. ولم يغير رأيه شيء مما قالوه. ولم يقابل عيسى المسيح أيًّا منهم ولم يواجه مضطهديه. ومرت أيام وبدأ الشك يدخل إلى نفوسهم.

وفي مساء الأحد التالي، كانوا مجتمعين ثانية في العلية وبينهم توما، كأنهم يحتفلون بصورة لا شعورية بالقيامة بعد أسبوع. وزادت توقُّعاتهم أنهم سوف يرونه، فلم يَخِبْ ظنُّهم. ورغم أن الأبواب كانت مغلقة، فقد انضمَّ عيسى المسيح إليهم، وتفتحت قلوبهم لتسمع سلامه.

أشار في الحال إلى توما قائلاً: «هات إصبعك وانظر يدي. وهات يدك وضعها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن، وآمن».

لم يرفع توما إصبعه، ولكنه أجاب» :ربي، وإلهي!».

»معكم دائماً«

تلألأ بحر الجليل بعد ظهر أحد أيام شهر نيسان، تحت أشعة الشمس الربيعية التي انعكست على عشرات السفن. وظهر الشاطئ الشرقي للبحيرة واضحاً عبر المياه الزرقاء الداكنة وقد ارتفعت خلفه التلال الخضراء. وكان الثلج فوق جبل الشيخ يظهر تحت الضباب وفوق الأفق إلى الشمال. كان المشهد مألوفاً، وكأن الزمن قد توقف منذ ذلك اليوم الربيعي قبل ثلاثة أعوام، عندما قفز يوحنا إلى الشاطئ من فوق سفينة أبيه ليلاقي عيسى المسيح.

وكان يوحنا ويعقوب وبطرس يسيرون بعد ظهر ذلك اليوم ذهاباً وإياباً على الشاطئ وهم يشعرون بالقلق. كان نثنائيل وتوما واثنان آخران من الحواريين جالسين خلفهما فوق مساحة صغيرة من العشب الأخضر، بينما كان الأربعة الباقون في مكان ما من البلدة. فقد رجعوا من القدس إلى الجليل استجابة لتعليمات عيسى المسيح، ولكنه لم يظهر لهم ثانية. وبدت حياتهم معلَّقة بين الماضي والمستقبل المجهول. وسبَّبت حالة عدم اليقين هذه الانزعاج لبطرس، الذي لم يَسْتَعِد مرحه الطبيعي. لقد عرف بأن عيسى المسيح قد غفر له، ولكنه لم يستطع أن يغفر لنفسه. وكانت لدى يوحنا رغبة كبيرة في رؤية عيسى المسيح، وإقناعه بالعدول عن الذهاب عنهم.

وبعد أن مالت الشمس نحو الغروب، قال بطرس فجأة: «أنا ذاهب لصيد السمك». رحَّب الآخرون بهذه الفكرة، وجاء نثنائيل وتوما معهم رغم أنهما لا يعرفان الصيد. ومضت ساعة تقريباً وبطرس ويوحنا ويعقوب يجهِّزون عدة الصيد. ثم أبحر السبعة من الشاطئ قبل الغروب بقليل. ألقوا شباك الصيد طيلة الليل، ولكنهم لم يصطادوا شيئاً: فكانت هذه الليلة تشبه الليلة التي وعظ فيها عيسى المسيح من قارب بطرس.

ومع ظهور العلامات الأولى للفجر، بدأوا بالعودة إلى الشاطئ. وعندما كانوا على بعد مائة ذراع من البر، شاهدوا رجلاً يجلس عليه، لكن الضوء الخافت خلفهم لم يسمح لهم بمعرفته. فناداهم الرجل قائلاً: «يا فتية أمعكم شيء يؤكل؟».

فردُّوا عليه قائلين: «كلا».

ناداهم عبر المياه وطلب منهم أن يلقوا الشباك على يمين قاربهم «وسوف يجدون السمك». لم يتردَّدوا في تنفيذ نصحه: فقد يتمكن الواقف على الشاطئ أحياناً أن يرى مجموعات السمك التي لا يراها الذين فوق الماء. ألقوا شبكة يدوية، وأحسُّوا بالثقل في الحال، ووجدوا أنها ثقيلة جداً عند سحبها.

عرف يوحنا الرجل حالاً بغريزته. ولم يكد ينظر إلى الشخص الموجود على الشاطئ، والذي أصبح الآن واضحاً في ضوء الفجر المكتمل، حتى قال لبطرس بهدوء: «إنه الرب!».

كان بطرس قد خلع ملابسه ليعمل على سحب الشباك. فأمسك بردائه الخارجي ولفَّه حول جسمه وقفز إلى الماء وسبح باتجاه الشاطئ. قاد يوحنا القارب إلى الشاطئ وسحب الشباك وأرسى مقدِّمة السفينة.

وعندما قفزوا من السفينة رأوا جمراً، إذ كان الشخص الموجود على الشاطئ يشوي عليه بضع سمكات، وكان لديه خبز أيضاً. قال لهم: «هاتوا من السمك الذي اصطدتموه». وتسلَّق بطرس الذي كان لا يزال مبتَّلاً ظهر السفينة وفكَّ الشبكة. وعندما جرَّها الحواريون إلى الشاطئ رأوا صيداً ضخماً. وأُصيبوا بالدهشة أيضاً لأن الشبكة لم تتمزق. وبدأوا يُعِدُّون السمك وهم يشعرون بالسعادة، واختاروا بعض السمكات ليشووها. ولم ينس يوحنا أن مجموع عدد السمكات كان مائه وثلاثاً وخمسين سمكة كبيرة تماماً.

ثم دعاهم عيسى المسيح إلى تناول الفطور الذي أعدَّه. وتجمعوا حول النار دون إلقاء التحية التلقائية، وكان الموقف مثيراً قليلاً، وما تجرأ أحد منهم أن يسأله مَنْ أنت لأنهم عرفوه. وكانت تحيط به هالة من الحياة والقوة، والنقاء والهدوء. ثم أخذ الخبز وكسره وناولهم، وكذلك فعل بالسمك. وزال التوتر باللمسة المميزة لمعاملته لهم. وعندما غمرت أشعة الشمس المكان بالضوء والدفء ظهرت فرحتهم.

وعندما أنهوا تناول الطعام. التفت عيسى المسيح إلى سمعان بطرس وقال له: «يا سمعان بن يونا، هل تحبني أكثر من هؤلاء؟».

- «نعم يا رب، أنت تعلم أنني أحبك».
فقال له: «ارع خرافي!».

سُرّ يوحنا لأن عيسى المسيح قد أعاد بصورة علنية الاعتبار لتلميذه، وهو الصديق الأقرب إليه. ولكن عيسى المسيح كرَّر السؤال في الحال، وعندما سمع الجواب نفسه قال: «ارع خرافي».

ثم سأل السؤال مرة ثالثة.

أُصيب بطرس بحزن كبير، لأن عيسى المسيح قد سأله للمرة الثالثة، مما جعله يتذكر إنكاره له ثلاث مرات. فنهض وسار بعيداً عنهم وهو حزين، ثم تبعه عيسى المسيح ويوحنا. خفض بطرس رأسه وتمتم: «يا رب أنت تعلم كل شيء.. أنت تعلم بأني أحبك».

فقال له: «ارع خرافي».

رفع بطرس رأسه والتقت أعينهما تماماً، كما التقت في قصر رئيس الكهنة قبل أقل من ثلاثة أسابيع. ثم تلاشى حزن بطرس، وقَبِل الوصية في أن يكون راعياً لقطيع الله: لا خروف يقدر أن يضل أكثر مما فعل. ثم أعطاه عيسى المسيح تحذيراً بشكل نبوءة عن استشهاده لمجد الله بعد 31 عاماً، وكرَّر العبارة نفسها التي استعملها على الشاطئ نفسه، عندما ترك الشركاء الأربعة شباكهم، وبدأوا المغامرة الكبرى: «اتبعني!».

وبعد عدة أيام، رأوا المسيح يظهر ثانية. ليس للحواريين فقط، وإنما لمجموعة كبيرة تزيد عن 500 مؤمن، تجمَّعوا في مكان ما من الجليل، حسب تعليمات عيسى المسيح. كان بينهم الشاب الذي شفاه من نائين، والرجل الممسوس، والرجل الذي كانت ذراعه مشلولة، وآخر كان مشلولاً، وقد أتى مع أصدقائه الأربعة الذين أنزلوا فراشه من خلال السقف، وبُرْصٌ تم شفاؤهم، والرجال العميان الذين أبصروا، ويائيروس وزوجته وابنته، والمرأة التي لمست طرف ردائه، وقائد الحرس الروماني وخادمه وكل أهل بيته، والعشرات من الرجال والنساء الذين لم يصابوا بمرض ولم يكونوا في شدة، ولكنهم كانوا قد سمعوا الرسالة التي وعظ بها في أنحاء الجليل. وقليل منهم كان كبير السن. وعندما كتب الرسول بولس، الذي عرف الكثيرين منهم، عن هذه الحادثة بعد 23 عاماً تقريباً، كان القسم الأكبر منهم لا يزال حيًّا.

لم تدوَّن الكلمات التي قالها المسيح لهذه الجماعة، ولكنه التقى الحواريين لفترة قصيرة مرة ثانية فوق جبل كان قد أرشدهم إليه، وقال لهم بأنه قد نال كل سلطان في السماء والأرض. وأوصاهم أن ينطلقوا ويتلمذوا جميع الأمم، ويعمِّدوهم، ويعلّموهم أن يطيعوا ما أوصاهم به. وقال: «تأكدوا أنني معكم دائماً إلى انقضاء الدهر».

ومنذ ذلك اليوم، عرف الحواريون أنهم ليسوا فقط تلاميذ، وإنما رسل وشهود لقيامته. وسيبدأون بالوعظ ونشر إنجيله إلى كل رجل وامرأة وطفل في جميع أنحاء العالم.

مرت الأسابيع، وظهر لهم مرَّةً تلوَ الأخرى، وآمن به كثيرون ومنهم يعقوب ابن خالته. كان بإمكان قيافا أن يتحدث عن جثمان مسروق، ويمكن للآخرين أن يهزأوا أو يلمِّحوا إلى هلوسات، ولكن يوحنا وبطرس وأصدقاءهما ويعقوب غير الشقيق، عرفوا بما لا يدع الشكّ، بأن عيسى المسيح حي، وأنه ابن الله.

شرح للحواريين الكثير عن ملكوت الله، وبيَّن لهم بالتفصيل كيف تنبأ الكتاب المقدَّس بوضوح عما حَدَثَ له. واتضحت أمور كثيرة، منها: لماذا أحاطت الخطيئة بعيسى المسيح البريء عندما عُلِّق على الصليب؟ ولماذا قال النبي يحيى عندما أشار إليه للمرة الأولى على ضفاف الأردن: «هوذا حَمَلُ الله، هوذا الحامل خطايا العالم»؟ ولماذا انشقَّ حجاب الهيكل الذي يحجب أقدس مكان من أعلاه إلى أسفله في اللحظة التي مات فيها؟ وكيف تعلّم بطرس سريعاً ليصبح واعظاً مؤثراً وشاهداً على صدق رسالة عيسى المسيح؟ وكيف أصبح كل نص في متناول يده ،بعد أن كان قد غضب عندما أخبرهم عيسى المسيح مسبقاً بصلبه، وذهل لوعده بأنه سيقوم ثانية؟

وكان المسيح في كل مرة ينهي فيها حديثه، يغادر بطريقة غامضة مثل الطريقة التي يأتي بها، ولكن الحواريين كانوا لا يشعرون بحزن، لأنهم كانوا يتوقعون رؤيته مرة أخرى.

بعد خمسة أسابيع، طلب من الحواريين أن يعودوا إلى القدس، مع أمه وأصدقاء آخرين. وكان قد بقي لحلول عيد العنصرة أسبوعان، وكانت المدينة تعج مرة أخرى بالحجاج. وفتحت عائلة مرقس لهم بيتها، واتخذ الرسل من العلية مقراً لهم.

ظهر المسيح لهم بينما كانوا يتناولون الطعام، وأكل معهم، وأمرهم هذه المرة أن لا يتركوا القدس لأيٍّ سبب كان. وقال: «يجب أن تنظروا الهبة التي وعد بها أبي، والتي سمعتموني أتكلم عنها، لأن يحيى عمَّد بالماء، ولكن بعد أيام قليلة سوف تُعمِّدون بالروح القدس».

وفي صباح اليوم الأربعين بعد قيامته من بين الأموات، ظهر لهم ثانية. وأخذهم هذه المرة خارج المدينة في طريق الذكريات المؤلمة القاسية، التي ساروا فيها في الليلة التي أسلم فيها. وفيما هم سائرون، طرح أحدهم سؤالاً أيَّده الآخرون: «يا رب، هل ستعيد هذه المرة المُلك إلى إسرائيل؟».

رفض أن يُجَرَّ إلى الجواب وقال: «ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة التي حدَّدها الآب بسلطانه»، وأنهى بذلك هذا السؤال بشكل قاطع، فتخلوا عن هذا الموضوع، ولم يقاطعوا تعاليمه عن الملكوت ثانية. واستمر قائلاً: «ولكنكم ستنالون القوة عندما يحل الروح القدس عليكم. وستكونون لي شهوداً في القدس واليهودية والسامرة وفي جميع أنحاء الأرض».

استمروا في سيرهم، وبعد أن عبروا وادي قدرون، لم يأخذهم إلى بستان الجسمانية، وإنما إلى قمة جبل الزيتون، إلى بقعة هادئة خالية فوق بيت عنيا. وقفوا حوله، إلا أنه لم يودِّعهم، ولكنه باركهم بالإشارة المألوفة. وفيما هو يباركهم ارتفع جسمه عن الأرض، وغطته سحابة المجد التي أرعبت بطرس ويعقوب ويوحنا عند التجلِّي. وكان المشهد رائعاً وهم يراقبونه، ولكن السحابة لم ترعبهم في هذه المرة.

انجذبت عيونهم إليه وهو يتراجع بطريقة مميزة، عندما رأوا فجأة رجلين بثياب بيضاء، قالا لهم: «لماذا أنتم واقفون تنظرون إلى السماء أيها الرجال الجليليون؟ إن المسيح هذا الذي أُخذ منكم إلى السماء، سيعود بالطريقة نفسها التي رأيتموه يصعد فيها».

وعندئذ علموا بأنهم لن يروه بالشكل الجسدي الذي اعتادوا عليه، ليلمسوه أو يأكلوا معه أو يسمعوا صوته المحبوب. ثم رجعوا باتجاه المدينة دون حزن، سائرين بخطى خفيفة فرحة، لأنه قد صعد ليكون مع الآب.

وصلوا بيت مرقس، وصعدوا الدرجات إلى العلية، وأخبروا أمه والنسوة الأخريات والأصدقاء بالخبر. وصدَّق الجميع بأنهم لن يروه ثانية. ولكن الحال كانت تختلف في هذه المرة تماماً عن الأيام التي تلت صلبه. كانوا في ذلك الحين في حداد تحت تأثير الصدمة الكبرى لموته، ولكنهم الآن يشعرون بفرح انتظار وعده. فقد عرفوا بأنهم يعيشون في فترة تمهيدية، قبل استئناف قصة حياته. وكان بإمكانهم فقط تخمين ماذا سيحدث.

انقضت الأيام، والحماس يزداد بصورة مستمرة، والحواريون والذين عرفوا وآمنوا بأن المسيح قد قام من بين الأموات، وهم جماعة أخوية من 120 رجلاً وامرأة، يجتمعون مراراً. يسبحون الله في الهيكل أو يملأون العلية، التي لم يكن فيها مكان للجلوس على الأرض. أمضوا الوقت في الصلاة وهم يتذكرون كلماته: «سيعطي أبوكم السماوي الروح القدس لهؤلاء الذين يسألونه». تحدثوا في ما بينهم، واستطاعت أمه مريم في هذه اللحظات، أن تخبرهم قصة حبلها به عندما كانت عذراء، والتي كانت تبدو حكاية لا قيمة لها فعلاً قبل قيامته من بين الأموات. وعرف الرسل تفاصيل مولده في بيت لحم، وقصة الرعاة والحكماء، وكل الأمور التي احتفظت بها مريم في قلبها حتى أتى الوقت المناسب لترويها.

واستطاع نيقوديموس أن يكشف عمَّا قال له عيسى المسيح، عندما ذهب إليه سراً، أثناء زيارته الأولى للقدس بعد «المعمودية»، لأن هذا الكلام أصبح واضحاً الآن: ما لم يولد الإنسان ثانيه بالماء والروح، فلن يرى ملكوت الله. واستطاع نيقوديموس أن يذكر كلمات عيسى المسيح التي سببَّت له الحيرة، ولكنها أصبحت الآن واضحة بالنسبة إليه: «هكذا أحب الله العالم، حتى أنه بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك العالم، وإن كل مَنْ يؤمن به، ينال الحياة الأبدية».

جاءوا وذهبوا، ولكنهم كانوا قريبين جداً من بعضهم البعض: مرتا ومريم وأليعازر، وزكا من أريحا الذي أحضر معه بارتيميوس الذي كان ضريراً، والرجل المقدسي الذي وُلد أعمى، وعضوا المجلس الكبيران نيقوديموس ويوسف من الرامة، والمجموعة الكبيرة من الجليليين. ثم اختاروا من هؤلاء خلفا ليهوذا. وقال لهم بطرس بأن الخيار سيقع على واحد ممن كانوا معنا طوال الوقت، في كل اللحظات التي دخل وخرج فيها عيسى المسيح بيننا، من معموديته حتى صعوده إلى السماء. اختاروا اثنين، وبعد أن اشتركوا في الصلاة معاً، أخذوا واحداً بالقرعة ليكون الرسول الثاني عشر، شاهداً على قيامة المسيح.

وفي هذه الأثناء، صار الشارع العريض خارج العلية مزدحماً إذ تدفق اليهود والمهتدون حديثاً من البلدان الشرقية والغربية على القدس، للاحتفال بيوم العنصرة. وكان هذا العيد الذي كان يحتفل به سابقاً بحصاد الشعير، من أيام الفرح الوطنية، ولكنه بالنسبة إلى جماعة الحواريين الذين اجتمعوا صباح العنصرة في هذا العام، يوم فرح خاص، لكونه الأحد السابع واليوم الخمسين منذ قيام المسيح من بين الأموات.

وقبل الساعة التاسعة بقليل، كان الجميع (120 شخصاً) في العليَّة يصلّون ويقدمون الشكر. كان يوحنا إلى جانب بطرس. وفجأة شعروا بضوضاء غير عادية مثل صوت الريح تعصف بالغرفة. فنظر كل واحد إلى الأعلى، وبدا المكان مشتعلاً، ولكن بدون دخان. وانقسمت النار إلى ألسنة، واستقرَّت شعلة فوق رأس كل واحد منهم. وعندما لامست الشعلة رأس يوحنا، أحس بشعور مدهش يملأه بالفرح والسلام، ويفوق أي شعور عرفه من قبل، وبقوة رفعته تقريباً. استطاع أن يرى بأن كل الرسل والأصدقاء من الرجال والنساء يشعرون الشعور نفسه، وبدأوا يسبحون الله بأصوات مرتفعة بصورة تلقائية، وسيل جارف من الكلمات.

إضافة إلى ذلك، كان لدى يوحنا شعور رائع وغامر، بأن عيسى المسيح ليس معهم في الغرفة فقط، وإنما في داخله تماماً. فلقد رجع كما وعد وقال: «لن أترككم أيتاماً».

»سآتي إليكم... سنأتي إليكم، ونجعل مقامنا فيكم..».

وبذلك حافظ على وعده، وحل الروح، روح الله الآب، روح عيسى المسيح نفسه فيهم، وبمجيئه جعل كل الأشياء جديدة. لقد انقضت الأشياء القديمة، ووُلد يوحنا ثانية، ووُلد بطرس ثانية، وشعر الجميع بأنهم وُلدوا من جديد، ورأى يوحنا ذلك على وجوههم.

القوة.. النار.. الفرح.. نزلوا الدرج إلى الشارع، وصرخوا بفرح وهم يسبِّحون ويضحكون ويشهدون بأن عيسى المسيح حي. تجمَّع المارة والجيران ليروا ما الأمر. وفي الحال ازدحم الشارع بجمهور كبير من المواطنين والحجاج، وأظهرت ملابسهم بأنهم قدِموا من اثني عشر بلداً أو أكثر. وعندما سمع يوحنا ما قاله الناس، وشاهد نظراتهم المعبِّرة عن الدهشة، أدرك بأنه وبطرس ويعقوب والآخرين، كانوا يستعملون عدة لهجات وألسنة لم يتعلَّموها أو يعرفوها من قبلُ. وكان الحجاج يسمعون عن أعمال الله المدهشة بلغاتهم الأصلية.

وعندما رأى بطرس الجمهور، ركض راجعاً إلى البيت وصعد الدرج إلى ظهر البيت المسطح. وتبعه يوحنا والحواريون العشرة الآخرون. أشار بطرس بيده للجمهور أن يصمتوا. هدأ معظم الجمهور، ولكن يوحنا سمع أصواتاً ساخرة تقول: «لقد امتلأوا بالنبيذ الحلو!».

سمع بطرس هذا الكلام، وبروح مرحة دحض هذه الادعاءات وقال: «إن الوقت هو الساعة التاسعة صباحاً!». ألقى بطرس موعظة عظيمة وقال، هذا ما أخبر عنه النبي يوئيل: «سأسكب روحي على جميع الناس...». وكان يوحنا يسمع ويلاحظ ذلك الفرق الكبير بين ذلك الرجل الذي انسحب خلسة وهو خائف، بعد أن كذب على الخادمة وأنكر عيسى المسيح، وذلك الرجل الذي يقف الآن ليعلن بأن عيسى المسيح هو المسيح المنتظر.

تحدث بطرس عن عيسى المسيح ومعجزاته وصلاحه . لم ينس أن يذكِّر مستمعيه كيف أسلموه ليسمَّر على صليب. «ولكن الله أقامه من بين الأموات... إلى الحياة ونحن كلنا شهود على هذه الحقيقة. ورفع مقامه إلى يمين الله ونال من الآب الروح القدس الموعود، وأنعم علينا ما ترونه الآن وتسمعون».

وصل بطرس إلى ذروة عظمته، وعرف يوحنا بأن عيسى المسيح قد تكلم من خلاله، كما تكلم بالتأكيد إلى الجماهير في الجليل أو القدس. وأعلن بطرس: «لتعلم جميع إسرائيل بصورة مؤكدة، أن الله قد جعل عيسى المسيح هذا الذي صلبتموه، الرب والمسيح».

كان للعظة تأثيرها المباشر، فقد صرخت عشرات الأصوات من الجمهور: «ماذا نفعل؟ ماذا نفعل؟» اغتنم بطرس هذه الفرصة، فأعلن أن أي إنسان ندم وآمن، يمكن أن يُعمَّد، وأن ينال النعمة التي حلَّت عليهم، «إن الوعد لكم! ولأطفالكم! ولكل هؤلاء البعيدين، ولكل هؤلاء الذين سوف يدعوهم إلهنا».

وفي الحال، طلب المئات من الناس أن يتعمَّدوا. وعمل الرسل بجد بالقرب من البركة، حتى أحصوا حوالى 3000 مؤمن جديد في ذلك اليوم وحده. وسُرَّ الرسل بأن كل واحد من المؤمنين الجدد قد رسخ في نفسه أن المسيح حي.

وبالنسبة إلى يوحنا وزملائه الرسل، فقد كان يوم الأحد هذا أكثر الأيام مجداً، أكثر من تلك الأيام التي استمتعوا فيها مع عيسى المسيح في الجليل. كانوا في تلك الفترة يشكُّون أو يتمردون. ولكنهم أصبحوا الآن تلاميذ عاملين معه بطريقة جديدة. أدركوا بأن كل ما عمله عيسى المسيح وعلّمه في الجليل واليهودية، كان بداية لما خطَّط أن يفعله من خلالهم ومعهم ومن خلال هؤلاء الذين ينضمون إليهم كل يوم. وتذكّر يوحنا كلماته في العشاء الأخير، بأنهم سوف يقومون بأعمال أعظم من أعماله، وبوجوده إلى جانبهم كانوا يبرهنون على ذلك عندما كانوا يعظون ويعلّمون ويشفون.

كانت تلك هي البداية فقط. سيكونون في الحقيقة شهوداً له في اليهودية والسامرة وأقاصي الأرض: سيذهب بطرس إلى روما، وتوما إلى الهند، ويوحنا إلى افسس، وبولس غير المعروف لهم بعد والذي سيضطهدهم قريباً، سيصبح الأشد عملاً والأكثر سَفَراً بينهم، بعد التدخل المباشر للمسيح.

عرفوا بأنهم ما زالوا رجالاً ضعفاء. لا أحد منهم يستطيع أن يقارن نفسه به. ولكن الروح كان يجعلهم أكثر شبهاً كل يوم. واكتشف يوحنا حالاً بأنه يعرف عيسى المسيح الآن أحسن من الماضي، عندما كانوا يسيرون معاً على طرقات الجليل. واستطاع أن يتحدث إليه في صلواته بحرية أكبر من الحرية التي كانت لديه عندما كانوا يتحدثون عن احتياجاتهم وما يقلقهم ويزعجهم أثناء الأشهر والسنين التي أتى وذهب فيها بينهم. لم يقم عيسى المسيح من بين الأموات فحسب، وإنما صعد إلى السماء. كان إلى جانب الآب يتوسط لهم ويسكب عليهم نعمه. ولكنه كان إلى جانبهم أيضاً.

واكتشف يوحنا بأن لدى كل مؤمن هذا الشعور الحميم المتنامي نفسه. وربما تخبو مع السنين ذكرى رجل عظيم أو رجل صالح، ولكن يوحنا عرف الحقيقة التي عبّر عنها بعد عدة سنوات في العبارة الخالدة: «إن عيسى المسيح هو نفسه بالأمس واليوم وإلى الأبد».

وهكذا انطلق يوحنا وأصدقاؤه في الطرق الرئيسة والفرعية، في المدن والأرياف، وعبروا البحار ليعلنوا «كلمة الحياة التي رأيناها، ونظرنا إليها وشعرنا بها».